قضايا إيمانية وقرآنية

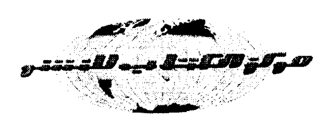
من خلال
نورانيات سورة يوسف عليه السلام

دراسات مستخلصة من التفاسير القديمة والحديثة

دكتور
أحمد عبده عوض

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م



الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م



مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة

تليفون: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس- المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

http://www.top25books.net/bookcp.asp.
E-mail:bookcp@menanet.net

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، أنزل القرآن العظيم ، بلسان عربى مبين ، على قلب رسوله الأمين ﷺ وعلى آله وصحبه وحملة نور الدين واليقين ، وبعد .

فإن قصص الأنبياء فيها عبرة وعظة ، فهم رجال أوحى الله إليهم ، ودعوا إلى الله على بصيرة وهدى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[يوسف] .

وقصة نبى الله يوسف عليه السلام اختصها الله بسورة كاملة فى القرآن الكريم من بين سائر سور القرآن ، فهى أحسن القصص وأفضل السير ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾[يوسف] .

ويأتى اختيارنا لهذه السورة لكونها اشتملت على فضائل عظمت ودروس أخلاقية وتوجيهات نبوية ، وتمثل البناء الصحيح لمجتمع مسلم صحيح .

وفيها تناول لقضايا دينية شتى ، جمعناها فى ثلاثين قضية محورية كما رصدنا من خلالها الجانب التاريخى والحضارى والاقتصادى لمصر من خلال آيات السورة الشريفة .

وهذا العرض للسورة هو تجميع لآراء المفسرين العظام ، ولكتبهم المشهود لها وهى تفسير القرطبى والطبرى والرازى وابن كثير والبيضاوى والألوسى ، وغيرها .

وحرصنا على التأكيد على جوانب الإفادة والتوجيه من السورة ، وذلك بعرض العديد من القضايا الإيمانية والتعبدية والأخلاقية ، وقضايا فى المعاملات والتشريع والاقتصاد وذلك من خلال نوارنيات السورة الكريمة .

واشتمل الكتاب على مقدمة مهمة تتناول مداخل إلى علم التفسير ، ينتفع بها القارئ فى التعرف على أهمية هذا العلم ومدارسه واتجاهاته.

وبعد ذلك عرضنا إطلالة تفسيرية عامة لسورة يوسف عليه السلام ، أبرزنا من خلالها الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لمصر فى هذه الفترة التاريخية.

والله نسأل التوفيق والسداد والهداية والقبول وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

والحمد لله رب العالمين،،،

د. أحمد عبده عوض

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر تلكَ آياتُ الكتاب المبين ﴿١﴾ إنا أنزلناهُ قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون ﴿٢﴾ نحنُ نقصُ عليكَ أحسنَ القصصِ بما أوحينا إليكَ هذا القرآنَ وإن كنتَ من قبله لمنَ الغافلين ﴿٣﴾ إذ قالَ يوسفُ لأبيه يا أبت إني رأيتُ أحد عشر كوكبًا والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدينَ ﴿٤﴾ قالَ يا بُنيَ لا تقصُص رءياكَ علىٰ إخوتك فيكيدوا لكَ كيدًا إنَ الشيطانَ للإنسان عدوٌ مبينٌ ﴿٥﴾ وكذلكَ يجتبيك ربُك ويُعلمُكَ من تأويل الأحاديث ويُتمُ نعمتهُ عليكَ وعلىٰ آل يعقوب كما أتمها علىٰ أبويكَ من قبلُ إبراهيمَ وإسحاقَ إنَ ربكَ عليمٌ حكيمٌ ﴿٦﴾ لقد كانَ في يوسفَ وإخوته آياتٌ للسائلين ﴿٧﴾ إذ قالوا ليوسفُ وأخوهُ أحبُ إلىٰ أبينا منا ونحنُ عصبةٌ إنَ أبانا لفي ضلالٍ مبينٍ ﴿٨﴾ اقتلوا يوسفَ أو اطرحوهُ أرضًا يخلُ لكم وجهُ أبيكم وتكونوا من بعده قومًا صالحينَ ﴿٩﴾ قالَ قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسفَ وألقوهُ في غيابة الجبَ يلتقطهُ بعضُ السيارة إن كنتم فاعلينَ ﴿١٠﴾ قالوا يا أبانا ما لكَ لا تأمنا علىٰ يوسفَ وإنا لهُ لناصحونَ ﴿١١﴾ أرسلهُ معنا غدًا يرتع ويلعب وإنا لهُ لحافظونَ ﴿١٢﴾ قالَ إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخافُ أن يأكلهُ الذئبُ وأنتم عنهُ غافلون ﴿١٣﴾ قالوا لئن أكلهُ الذئبُ ونحنُ عصبةٌ إنا إذًا لخاسرون ﴿١٤﴾ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوهُ في غيابت الجبَ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴿١٥﴾ وجاءوا أباهم عشاءً يبكون ﴿١٦﴾ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسفَ عند متاعنا فأكلهُ الذئبُ وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين ﴿١٧﴾ وجاءوا علىٰ قميصه بدمٍ كذبٍ قالَ بل سولت لكم أنفسكم أمرًا فصبرٌ جميلٌ واللهُ المستعانُ علىٰ ما تصفونَ ﴿١٨﴾ وجاءت سيارةٌ فأرسلوا واردهم فأدلىٰ دلوهُ قالَ يا بشرىٰ هذا غلامٌ وأسروهُ بضاعةً واللهُ عليمٌ بما يعملون ﴿١٩﴾ وشروهُ بثمنٍ بخسٍ

دراهم مَعْدُودَةٍ وكانوا فيه من الزَّاهدين ﴿٢٠﴾ وقال الَّذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسىٰ أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا وكذلك مكَّنَّا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب علىٰ أمره ولكن أكثر النَّاس لا يعلمون ﴿٢١﴾ ولمَّا بلغ أشده آتيناه حكمًا وعلمًا وكذلك نجزي المحسنين ﴿٢٢﴾ وراودته الَّتي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنَّه ربي أحسن مثواي إنَّه لا يفلح الظَّالمون ﴿٢٣﴾ ولقد همت به وهمَّ بها لولا أن رأىٰ برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنَّه من عبادنا المخلصين ﴿٢٤﴾ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلاَّ أن يسجن أو عذاب أليم ﴿٢٥﴾ قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدَّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ﴿٢٦﴾ وإن كان قميصه قدَّ من دبر فكذبت وهو من الصَّادقين ﴿٢٧﴾ فلمَّا رأىٰ قميصه قدَّ من دبر قال إنَّه من كيدكن إنَّ كيدكن عظيم ﴿٢٨﴾ يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنَّك كنت من الخاطئين ﴿٢٩﴾ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًّا إنَّا لنراها في ضلال مبين ﴿٣٠﴾ فلمَّا سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأً وآتت كل واحدة منهن سكينًا وقالت اخرج عليهن فلمَّا رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرًا إن هذا إلاَّ ملك كريم ﴿٣١﴾ قالت فذلكن الَّذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونًا من الصَّاغرين ﴿٣٢﴾ قال رب السجن أحب إليَّ ممَّا يدعونني إليه وإلاَّ تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴿٣٣﴾ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنَّه هو السميع العليم ﴿٣٤﴾ ثمَّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتىٰ حين ﴿٣٥﴾ ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرًا وقال الآخر إني

أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا

عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ
لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ
﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ
أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا
لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةُ
يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ
ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ
تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ
﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا
أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن
قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ
رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا
وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ
اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾
وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ
اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا
دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ
يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا

دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ

إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً

وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف] .

مقدمة استفتاحية
عن
التفسير والتأويل

أولاً : معنى التفسير والتأويل.

ثانياً : شروط المفسر وآدابه.

ثالثاً : نشأة التفسير وتطوره.

رابعاً : التفسير في عهد النبي ﷺ وأصحابه.

خامساً : التفسير في عصر التابعين.

سادساً : طبقات المفسرين.

سابعاً : حكم التفسير بالمأثور.

ثامناً : التفسير بالرأي.

تاسعاً : التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي.

عاشراً : التفسير الإشاري الرمزي لدى الصوفية.

مقدمة استفتاحية

عن التفسير والتأويل (١)

القرآن الكريم هو مصدر التشريع الأول للأمة المحمدية ، وعلى فقه معناه ومعرفة أسراره والعمل بما فيه تتوقف سعادتها . ولا يستوى الناس جميعاً فى فهم ألفاظه وعباراته مع وضوح بيانه وتفصيل آياته ، فإن تفاوت الإدراك بينهم أمر لا مراء فيه فالعامى يدرك من المعانى ظاهرها ومن الآيات مجملها ، والذكى المتعلم يستخرج منها المعنى الرائع. وبين هذا وذاك مراتب فهم شتى، فلا غرو أن يجد القرآن من أبناء أمته اهتماماً بالغاً فى الدراسة لتفسير غريب، أو تأويل تركيب.

أولاً : معنى التفسير والتأويل :

التفسير فى اللغة العربية : تفعيل من الفسر بمعنى الإبانة والكشف وإظهار المعنى المعقول، وفعله : كضرب ونصر ، يقال: فسر الشيء يفسر الكسر ويفسره بالضم فسرا ، وفسَّره : أبانه، والتفسير فسر : الإبانة وكشف المغطى، وفى لسان العرب : الفسر كشف المغطى. والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل . وفى القرآن ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴿٣٣﴾ ﴾[الفرقان] .. أي بياناً وتفصيلاً والمزيد من الفعلين أكثر فى الاستعمال.

وقال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ أي تفصيلاً.

وقال بعضهم : هو مقلوب من «سفر» ومعناه أيضاً : الكشف، يقال: سفرت المرأة سفورا: إذا ألقت خمارها عن وجهها، وهى سافرة، وأسفر الصبح : أضاء، وإنما بنوه على التفعيل، لأنه للتكثير ، كقوله تعالى: ﴿ .. يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [البقرة] ، وقوله :﴿ .. وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾[يوسف] ، فكأنه يتبع سورة بعد سورة، وآية بعد أخرى.

(١) استعنا فى إعداد هذا الجزء بالعديد من الكتب منها :
- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى.
- البرهان للزركشى.
- التفسير والمفسرون الأستاذ / محمد حسين الذهبى.
- مباحث فى علوم القرآن للشيخ مناع قطان.

وقال الراغب : الفسر والسفر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما ، لكن جعل الفسر لإظهار المعنى المعقول، وجعل السفر لإبراز الأعيان للأبصار ، فقيل: سفرت المرأة عن وجهها ، وأسفر الصبح.

والتفسير فى الاصطلاح : عرفه أبو حيان بأنه : علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، ومدلولاته ، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك.

ثم خرج التعريف فقال: فقولنا: علم، وهو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا: يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، هذا هو علم القراءات ، وقولنا! ومدلولاتها، أي مدلولات تلك الألفاظ ، وهذا هو علم اللغة الذى يحتاج إليه فى هذا العلم، وقولنا: وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، هذا يشمل علم التصريف وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع، وقولنا: ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب، يشمل ما دلالته عليه بالحقيقة، وما دلالته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضى بظاهره شيئاً ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على غير الظاهر، وهو المجاز، وقولنا: وتتمات لذلك. هو معرفة النسخ وسبب النزول، توضيح بعض ما أبهم فى القرآن ونحو ذلك.

وقال الزركشي : التفسير : علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه[1].

والتأويل فى اللغة : مأخوذ من الأول، وهو الرجوع إلى الأصل، يقال : آل إليه أولا ومآلا : رجع .. ويقال : أول الكلام تأويلاً وتأوله : دبره وقدره وفسره. وعلى هذا: فتأويل الكلام فى الاصطلاح له معنيان :

١ - تأويل الكلام :

بمعنى ما أوله إليه المتكلم أو ما يؤول إليه الكلام ويرجع ، والكلام إنما يرجع ويعد إلى حقيقته التى هى عين المقصود. وهو نوعان : إنشاء وإخبار ، ومن الإنشاء بالأمر.

فتأويل الأمر : هو الفعل المأمور به ، ومن ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت:(كان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك اللهم

(١) الإتقان : جـ٢ - ص ١٧٤.

اغفر لي، يتأول القرآن) [رواه البخاري ومسلم] .. نعنى قوله تعالى:﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾[النصر]..

وتأويل الإخبار : هو عين المخبر به إذا وقع . كقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ .. ﴿٥٣﴾ ﴾[الأعراف] ؛ فقد أخبر أنه فصل الكتاب، وأنهم لا ينتظرون إلا تأويله، أي مجيء ما أخبر القرآن بوقوعه ، من القيامة وأشراطها ، وما فى الآخرة من الصحف والموازين والجنة والنار وغير ذلك .. فحينئذ يقولون :﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ ؟

٢ - تأويل الكلام :

أي تفسيره وبيان معناه .. وهو ما يعنيه ابن جرير الطبرى فى تفسيره بقوله :(القول فى تأويل قوله تعالى كذا وكذا) وبقوله (اختلف أهل التأويل فى هذه الآية) فإن مراده التفسير. ذلك هو معنى التأويل عند السلف.

والتأويل فى عرف المتأخرين : هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترب به .. وهذا الاصطلاح لا يتفق مع ما يراد بلفظ التأويل فى القرآن عند السلف.

هذا ومن العلماء من يفرق بين المعنى ، والتفسير، والتأويل، للتفاوت بينها لغة وإن كانت متقاربة ، وقد نقل (الزركشى) هذا [١].

قال ابن فارس: معنى العبارات التى يعبر بها عن الأشياء ترجع إلى ثلاثة : المعنى، والتفسير، والتأويل، وهى وإن اختلفت فالمقاصد بها متقاربة.

فأما المعنى : فهو القصد والمراد ، يقال: عنيت بهذا الكلام كذا ، أي قصدت وعمدت، وهو مشتق من الإظهار ، يقال: عنت القربة، إذا لم تحفظ الماء بل أظهرته، ومن هذا عنوان الكتاب.

---

(١) انظر «البرهان» - جـ ٢ - ص ١٤٦.

وأما التفسير فى اللغة : فهو راجع إلى معنى الإظهار والكشف. وقال ابن الأنبارى: قول العرب: فسرت الدابة وفسرتها ، إذا ركضتها محصورة لينطلق صرها ، وهو يؤول إلى الكشف أيضاً ، فالتفسير كشف المغلق من المراد بلفظه ، وإطلاق للمحتبس عن الفهم به.

وأما التأويل : فأصله فى اللغة من الأول ، ومعنى قولهم : ما تأويل هذا الكلام؟ أي إلام تؤول العاقبة فى المراد به ؟ كقوله تعالى: ﴿ .. يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأعراف] أي تكشف عاقبته، ويقال: آل الأمر إلى كذا ، أي صار إليه، وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف] ، وأصله من المآل ، وهو العاقبة والمصير، وقد أولته فآل - أي صرفته فانصرف فكان التأويل صرف الآية إلى ما تحتمله من المعانى .. وإنما بنوه على التفعيل للتكثير..

الفرق بين التفسير والتأويل :

اختلف العلماء فى الفرق بين التفسير والتأويل - وعلى ضوء ما سبق فى معنى التفسير والتأويل نستطيع أن نستخلص أهم الآراء فيما يأتى :

١ - إذا قلنا: إن التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه، فالتأويل والتفسير على هذا متقاربان أو مترادفان، ومنه دعوة رسول الله ﷺ لابن عباس (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل).

٢ - وإذا قلنا: إن التأويل هو نفس المراد بالكلام، فتأويل الطلب نفس الفعل المطلوب، وتأويل الخبر نفس الشيء، المخبر به ، فعلى هذا يكون الفرق كبير بين التفسير والتأويل، لأن التفسير شرح وإيضاح للكلام، ويكون وجوده فى الذهن بتعقله، وفى اللسان بالعبارة الدالة عليه ، أما التأويل فهو فى الأمور الموجودة فى الخارج، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها ، وهذا هو الغالب فى لغة القرآن كما تقدم، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يونس].. فالمراد بالتأويل وقوع المخبر به.

٣ - وقيل : التفسير : ما وقع مبينا فى كتاب الله أو معيناً فى صحيح السنة، لأن معناه قد ظهر ووضح ، والتأويل ما استنبطه العلماء، ولذا قال بعضهم :(التفسير ما يتعلق بالرواية ، والتأويل ما يتعلق بالدراية)[1].

٤ - وقيل : التفسير : أكثر ما يستعمل فى الألفاظ ومفرداتها، والتأويل : أكثر ما يستعمل فى المعانى والجمل - وقيل: غير ذلك.

شرف التفسير :

والتفسير من أجل علوم الشريعة وأرفعها قدراً، وهو أشرف العلوم موضوعاً وغرضاً وحاجة إليه - لأن موضوعه كلام الله تعالى الذى هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة -ولأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية - وإنما اشتدت الحاجة إليه لأن كل كمال دينى أو دنيوى لابد وأن يكون موافقاً للشرع ، وموافقته تتوقف على العلم بكتاب الله[2].

ثانياً : شروط المفسر وآدابه :

البحث العلمى النزيه أساس المعرفة الحقة التى تعود على طلابها بالنفع، وثمرته من أشهى الأكل لغذاء الفكر وتنمية العقل، ولذلك فإن تهيؤ أسبابه لأي باحث أمر له اعتباره فى نضج ثماره ودنو قطوفه، والبحث فى العلوم الشرعية عامة وفى التفسير خاصة من أهم ما يجب الاعتناء به والتعرف على شروطه وآدابه ، حتى يصفو مشربه ، ويحفظ روعة الوحى وجلاله.

شروط المفسر:

وقد ذكر العلماء للمفسر شروطاً نجملها فيما يأتى :

١ - صحة الاعتقاد : فإن العقيدة لها أثرها فى نفس أصحابها، وكثيراً ما تحمل ذويها على تحريف النصوص والخيانة فى نقل الأخبار، فإذا صنف أحدهم كتاباً فى التفسير أوّل الآيات التى تخالف عقيدته ، وحملها باطل مذهبه ، ليصد الناس عن اتباع السلف، ولزوم طريق الهدى.

٢ - التجرد عن الهوى : فالأهواء تدفع أصحابها إلى نصرة مذهبهم ، فيغرون الناس بلين الكلام ولحن البيان، كدأب طوائف القدرية والرافضة والمعتزلة ونحوهم من غلاة المذاهب.

---

(١) الإتقان - جـ ٢ - ص ١٧٣.

(٢) انظر :الإتقان جـ٢ - ص ١٧٥ .

٣ - أن يبدأ أولاً بتفسير القرآن بالقرآن، فما أجمل منه في موضع فإنه قد فصل في موضع آخر، وما اختصر منه في مكان فإنه قد بسط في مكان آخر.

٤ - أن يطلب التفسير من السنة فإنها شارحة للقرآن موضحة له، وقد ذكر القرآن أن أحكام رسول الله ﷺ إنما تصدر منه عن طريق الله: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ .. ﴿١٠٥﴾ ﴾[النساء] وذكر الله في السنة مبينة للكتاب ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[النحل]، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه» يعني السنة .. وقال الشافعي رضي الله عنه (كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن) وأمثلة هذا في القرآن كثيرة - جمعها صاحب الإتقان مرتبة مع السور في آخر فصل من كتابه كتفسير السبيل بالزاد والراحلة ، وتفسير الظلم بالشرك، وتفسير الحساب اليسير بالعرض.

٥ - فإذا لم يجد التفسير من السنة رجع إلى أقوال الصحابة : فإنهم أدرى بذلك مما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله ، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح.

٦ - فإذا لم يجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة: فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، وربما تكلموا في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال، والمعتمد في ذلك كله النقل الصحيح، ولهذا قال أحمد: (ثلاث كتب لا أصل لها، المغازي والملاحم والتفسير) يعني بهذا التفسير الذي لايعتمد على الروايات الصحيحة في النقل.

٧ - العلم باللغة العربية وفروعها : فإن القرآن نزل بلسان عربي، ويتوقف فهمه على شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، قال مجاهد: (لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب).

والمعاني تختلف باختلاف الإعراب، ومن هنا مست الحاجة إلى اعتبار علم النحو. والتصريف الذي تعرف به الأبنية، والكلمة المهمة يتضح معناها بمصادرها

ومشتقاتها. وخواص تركيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، ومن حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها . ثم من ناحية وجوه تحسين الكلام - وهى علوم البلاغة الثلاثة المعانى والبيان والبديع - من أعظم أركان المفسر ، إذ لابد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وإنما يدرك الإعجاز بهذا العلوم .

٨ - العلم بأصول العلوم المتصلة بالقرآن : كعلم القراءات لأن به يعرف كيفية النطق بالقرآن ويترجح بعض وجوه الاحتمال على بعض، وعلم التوحيد، حتى لا يؤول آيات الكتاب إلا فى حق الله وصفاته تأويلاً يتجاوز به الحق، وعلم الأصول، وأصول التفسير خاصة مع التعمق فى أبوابه التى لا يتضح المعنى ولا يستقيم المراد بدونها ، كمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، ونحو ذلك.

٩ - دقة الفهم التى تمكن المفسر من ترجيح معنى على آخر : أو استنباط معنى يتفق مع نصوص الشريعة.

آداب المفسر:

١ - حسن النية وصحة المقصد : فإنما الأعمال بالنيات ، والعلوم الشرعية أولى بأن يكون هدف صاحبها منها الخير العام، وإسداء المعروف لصالح الإسلام، وأن يتطهر من أعراض الدنيا ليسدد اللّه خطاه ، والانتفاع بالعلم ثمرة الإخلاص فيه.

٢ - حسن الخلق : فالمفسر فى موقف المؤدب، ولا تبلغ الآداب مبلغها فى النفس إلا إذا كان المؤدب مثالاً يحتذى فى الخلق والفضيلة، والكلمة النابية قد تصرف الطالب عن الاستفادة مما يسمع أو يقرأ ونقطع عليه مجرى تفكيره.

٣ - الامتثال والعمل : فإن العلم يجد قبولا من العاملين أضعاف مما يجد من سمو معارفه ودقة مباحثه - وحسن السيرة يجعل المفسر قدوة حسنة لما يقرره من مسائل الدين، وكثيراً ما يصد الناس عن تلقى العلم من بحر زاخر فى معرفة لسوء سلوكه وعدم تطبيقه.

٤ - تحرى الصدق والضبط فى النقل : فلا يتكلم أو يكتب إلا عن تثبت لما يرويه حتى يكون فى مأمن من التصحيف واللحن.

٥ - التواضع ولين الجانب: فالصلف العلمى حاجز حصين يحول بين العالم والانتفاع بعلمه.

٦ - عزة النفس : فمن حق العالم أن يترفع عن سفاسف الأمور، ولا يغشى أعتاب الجاه والسلطان كالسائل المتكفف.

٧ - الجهر بالحق : فأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.

٨ - حسن السمت : الذى يكسب المفسر هيبة ووقاراً فى مظهره العام وجلوسه ووقوفه ومشيته دون تكلف.

٩ - الأناة والروية : فلا يسرد الكلام سرداً بل يفصله ويبين عن مخارج حروفه.

١٠ - تقديم من هو أولى منه : فلا يتصدى للتفسير بحضرتهم وهم أحياء، ولا يغمطهم حقهم بعد الممات، بل يرشد إلى الأخذ عنهم وقراءة كتبهم.

١١ - حسن الإعداد وطريقة الأداء : كأن يبدأ بذكر سبب النزول - ثم معانى المفردات وشرح التراكيب وبيان وجوه البلاغة والإعراب الذى يتوقف عليه تحديد المعنى، ثم يبين المعنى العام ويصله بالحياة العامة التى يعيشها الناس فى عصره، ثم يأتى الاستنباط والأحكام.

أما ذكر المناسبة والربط بين الآيات أولاً وآخراً فذلك حسب ما يقتضيه النظم والسياق.

ثالثاً : نشأة التفسير وتطوره [1] :

جرت سنة اللّه أن يرسل كل رسول بلسان قومه . ليتم تخاطبه معهم ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. ﴿٤﴾ ﴾[إبراهيم] .. وأن يكون الكتاب الذى أنزل عليهم بلسانه ولسانهم، وإذا كان لسان محمد ﷺ عربياً فإن الكتاب الذى أنزل عليه يكون بلسان عربى، وبذلك نطق محكم التنزيل ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[يوسف] ، ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾[الشعراء] ..

فألفاظ القرآن عربية، ووجوه المعانى فى القرآن توافق وجوه المعانى عند العرب، وإذا كانت هناك ألفاظ قليلة تختلف فيها أنظار العلماء، أهى من لغات أخرى وعربت، أم هى عربية بحتة ولكنها مما تواردت عليها اللغات؟ فإن هذا لا يخرج القرآن عن أن يكون عربياً.

(١) راجع هذا البحث بالتفصيل فى كتاب (التفسير والمفسرون) للأستاذ محمد حسين الذهبى.

والذى عليه المحققون أنها كلمات اتفقت فيها ألفاظ العرب مع ألفاظ غيرهم من بعض أجناس الأمم. وهذا هو ما رجحه جهبذ المفسرين ابن جرير الطبرى[1] فقد أورد ما روى فى ذلك كقوله تعالى: ﴿ .. يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ .. ﴿٢٨﴾ ﴾[الحديد] . قيل : الكفلان : ضعفان من الأجر بلسان الحبشة. وقوله :﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ .. ﴿٦﴾ ﴾[المزمل] ، قيل : بلسان الحبشة إذا قام الرجل من الليل قالوا : نشأ. وقوله:﴿ .. يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ .. ﴿١٠﴾ ﴾[سبأ] قيل الأسد بالحبشة، وقوله: ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾[المدثر]، قيل: سبحى بلسان الحبشة وقوله : ﴿ .. حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ .. ﴿٨٢﴾ ﴾[هود:٨٢، والحجر:٧٤] ، فارسية أعربت - أورد الطبرى ما روى فى ذلك ثم بين أن أحداً لم يقل أن هذه الأحرف وما أشبهها لم تكن للعرب كلاماً.. وإنما قال بعضهم: حرف كذا بلسان الحبشة معناه كذا، وحرف كذا بلسان العجم معناه كذا ، وقد ظهر أن بعض الألفاظ اتفقت فيها الألسن المختلفة، كالدرهم والدينار والدواة والقلم والقرطاس ، فأي مرجح يجعل اللفظ من لغة بعينها ثم نقل إلى اللغة الأخرى؟ فليس أحد الجنسين أولى بأن يكون أصل ذلك كان من عنده من الجنس ومدعى ذلك يدعى شيئاً بلا دليل.

رابعاً : التفسير فى عهد النبى ﷺ وأصحابه :

تكفل الله تعالى لرسوله بحفظ القرآن وبكيانه ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾[القيامة] ؛ فكان النبى ﷺ يفهم القرآن جملة وتفصيلا. وكان عليه أن يبينه لأصحابه ﴿ ... وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[النحل].

وكان الصحابة رضى الله عنهم يفهمون القرآن كذلك لأنه نزل بلغتهم، وإن كانوا لا يفهمون دقائقه ، يقول ابن خلدون فى مقدمته : (إن القرآن نزل بلغة العرب - وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه) ولكنهم مع هذا كانوا يتفاوتون فى الفهم ، فقد يغيب عن واحد منهم ما لا يغيب عن الآخر.

وأخرج أبو عبيدة فى الفضائل عن أنس : أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة وأبا) فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر[2].

---

(١) تفسير الطبرى جـ١ - ص١٣ .
(٢) الإتقان جـ ٢ - ص ١٣٣ .

ولذا قال ابن قتيبة : (إن العرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل فى ذلك عن بعض)[1].

وكان الصحابة يعتمدون فى تفسيرهم للقرآن بهذا العصر على :

أولاً : القرآن الكريم :

فما جاء مجملاً فى موضع جاء مبنياً فى موضع آخر ، تأتى الآية مطلقة أو عامة ، ثم ينزل ما يقيدها أو يخصصها، وهذا هو الذى يسمى: بتفسير القرآن بالقرآن ولهذا أمثلة كثيرة، فقصص القرآن جاء موجزاً فى بعض المواضع ومسهباً فى مواضع أخرى، وقوله تعالى: ﴿ .. أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ .. ﴿١﴾ ﴾[المائدة] ، فسره آية ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ .. ﴿٣﴾ ﴾[المائدة] ، وقوله تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾[الأنعام]، فسره آية ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[القيامة] ..

ثانياً: النبى ﷺ :

فهو المبين للقرآن ، وكان الصحابة يرجعون إليه إذا أشكل عليهم فهم آية من الآيات عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ .. ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام]. شق على الناس فقالوا: يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال: إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا قول العبد الصالح ﴿ .... إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾[لقمان]. إنما هو الشرك[رواه أحمد والشيخان وغيرهم].

كما كان الرسول ﷺ يبين لهم ما يشاء عن الحاجة ، عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ .... ﴿٦٠﴾ ﴾[الأنفال]، وإن القوة الرمى [أخرجه مسلم وغيره].

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : « الكوثر نهر أعطانيه ربى فى الجنة »

[أخرجه أحمد ومسلم]

وقد أفـــردت كتب السنة بابا للتفسير بالمـــأثـــور عند رسول الله ﷺ ، وقـــال اللــه تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[النحل] ..

---

(١) التفسير والمفسرون - جـ ١ - ص ٣٦.

ومن القرآن ما لا يعلم تأويله إلا بيان الرسول ﷺ كتفصيل وجوه أمره ونهيه، ومقادير ما فرضه الله من أحكام، وهذا البيان هو المقصود بقوله ﷺ :« ألا أنى أوتيت الكتاب ومثله معه ».

ثالثاً : الفهم والاجتهاد :

فكان الصحابة إذا لم يجدوا التفسير فى كتاب الله تعالى، ولم يجدوا شيئاً فى ذلك عن رسول الله ﷺ اجتهدوا فى الفهم، فإنهم من خلص العرب، يعرفون العربية، ويحسنون فهمها، ويعرفون وجوه البلاغة فيها.

واشتهر بالتفسير من الصحابة جماعة منهم : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود، وابن عباس، وأنس بن مالك، وعبدالله بن عمر، وجابر بن عبدالله ، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعائشة ، على تفاوت فيما بينهم قلة وكثرة، وهناك روايات منسوبة إلى هؤلاء وغيرهم فى مواضع متعددة من تفسير القرآن بالمأثور تتفاوت درجتها من حيث السند. صحة وضعفا.

ولا شك أن التفسير بالمأثور عن الصحابة له قيمته ، وذهب جمهور العلماء إلى أن تفسير الصحابى له حكم المرفوع إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول وكل ما ليس للرأى فيه مجال. أما ما يكون للرأى فيه مجال فهو موقوف عليه ما دام لم يسنده إلى رسول الله ﷺ.

والموقوف عن الصحابى من التفسير يوجب بعض العلماء الأخذ به لأنهم أهل اللسان، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختصوا بها، ولما لهم من الفهم الصحيح. قال الزركشى فى البرهان : (اعلم أن القرآن قسمان : قسم ورد تفسيره بالنقل ، وقسم لم يرد ، والأول: إما أن يرد عن النبى أو الصحابة، أو رؤوس التابعين - فالأول يبحث فيه عن صحة السند، والثانى ينظر فى تفسير الصحابى ، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان، فلاشك فى اعتماده ، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرآن فلا شك فيه)[1].

وقال الحافظ ابن كثير فى مقدمة تفسيره (وحينئذ إذا لم نجد التفسر فى القرآن ولا فى السنة رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح -

---

(١) الإتقان - جـ ٢ - ص ١٨٣.

ولاسيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة ، والخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين المهديين، وعبدالله بن مسعود)[١].

ولم يدون شيء من التفسير فى هذا العصر، لأن التدوين لم يكن إلا فى القرن الثانى، وكان التفسير فرعاً من الحديث، ولم يتخذ شكلاً منظماً - بل كانت هذه التفسيرات تروى منثورة لآيات متفرقة. من غير ترتيب وتسلسل لآيات القرآن وسوره كما لا تشمل القرآن كله.

خامساً : التفسير فى عصر التابعين :

كما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير ، اشتهر بعض أعلام التابعين الذين أخذوا عنهم من تلاميذهم بالتفسير كذلك معتمدين فى مصادره على المصادر التى جاءت فى العصر السابق بالإضافة إلى ما كان لهم فى اجتهاد ونظر.

قال الأستاذ محمد حسين الذهبى : (وقد اعتمد هؤلاء المفسرون فى فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء فى الكتاب نفسه ، وعلى ما رواه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ ، وعلى ما رووه عن الصحابة عن تفسيرهم أنفسهم، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء فى كتبهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر فى كتاب الله تعالى.

وقد روت لنا كتب التفاسير كثيراً من أقوال هؤلاء التابعين فى التفسير قالوها بطريق الرأى والاجتهاد ، ولم يصل إلى علمهم شئ فيها عن رسول الله ﷺ . أو عن أحد الصحابة.

وقد قلنا فيما سبق : إن ما نقل عن الرسول ﷺ وعن الصحابة وعن التفسير لم يتناول جميع آيات القرآن، وإنما فسروا ما غمض فهمه على معاصريهم ، ثم تزايد ذلك الغموض -على تدرج - كلما بعد الناس عن عصر النبى ﷺ والصحابة ، فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى أن يكملوا بعض هذا النقص، فزادوا فى التفسير بمقدار ما زاد من غموض، ثم جاء من بعدهم فأتموا تفسير القرآن تباعاً، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم فى القول، وعلى ما صح لديهم من الأحداث التى حدثت فى عصر نزول القرآن، وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث[٢].

(١) ابن كثير - جـ ١ - ص ٣.
(٢) التفسير والمفسرون - جـ١ - ص ٩٩ ، ١٠٠.

لقد اتسعت الفتوحات الإسلامية ، ونقل كثير من أعلام الصحابة إلى الأمصار المفتوحة ، ولدى كل واحد منهم علم، وعلى يد هؤلاء تلقى تلاميذهم من التابعين علمهم، وأخذوا عنهم، ونشأت مدارس متعددة.

ففى مكة نشأت مدرسة ابن عباس، اشتهر من تلاميذه بمكة: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس بن كيسان اليمانى، وعطاء بن أبى رباح.

وهؤلاء جميعاً من الموالى، وهم يختلفون فى الرواية عن ابن عباس قلة وكثرة، كما اختلف العلماء فى مقدار الثقة بهم والركون إليهم، والذى ورد فيه شىء ذو بال هو عكرمة، فإن العلماء يختلفون فى توثيقه وإن كانوا يشهدون له بالعلم والفضل.

وفى المدينة اشتهر أُبى بن كعب بالتفسير أكثر من غيره، وكثر ما نقل عنه فى ذلك. واشتهر من تلاميذه من التابعين الذين أخذوا عنه مباشرة أو بالواسطة : زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظى.

وفى العراق نشأت مدرسة ابن مسعود التى يعتبرها العلماء نواة مدرسة أهل الرأى: وعرف بالتفسير من أهل العراق كثير من التابعين .. اشتهر منهم علقمة بن قيس ، ومسروق ، والأسود بن يزيد ، ومرة الهمذانى ، وعامر الشعبى، والحسن البصرى، وقتادة ابن دعامة السدوسى.

وهؤلاء هم مشاهير المفسرين من التابعين فى الأمصار الإسلامية الذين أخذ عنهم أتباع التابعين من بعدهم ، وخلفُّوا لنا تراثاً علمياً خالداً.

سادساً : طبقات المفسرين :

وعلى ضوء ما سبق نستطيع أن نقسم طبقات المفسرين على النحو التالى:

١ - المفسرون من الصحابة :

واشتهر منهم الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأُبى بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعرى، وعبدالله بن الزبير، وأنس بن مالك ، وأبو هريرة، وجابر، وعبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهم أجمعين، وأكثر من روى عنه من الخلفاء الأربعة على بن أبى طالب كرم الله وجهه، والرواية عن الثلاثة نزرة جداً ، وكان السبب فى ذلك تقدم وفاتهم، كما أن ذلك هو السبب فى قلة رواية أبى بكر رضي الله عنه ، فقد روى معمر عن وهب بن عبدالله عن أبى الطفيل قال: (شهدت عليا يخطب وهو يقول: سلونى ..

فوالله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم - وسلونى عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم فى سهل أم فى جبل).

وأما ابن مسعود فروى عنه أكثر مما روى عن على، وقد أخرج بن جرير وغيره عنه قال: (والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت؟ ولو أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته) وأما ابن عباس فسنترجم له بعد إن شاء الله.

٢ - المفسرون من التابعين:

قال ابن تيمية: (أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب بن عباس كمجاهد، وعطاء بن أبى رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وسعيد بن جبير، وطاوس وغيرهم - وفى الكوفة أصحاب ابن مسعود - وفى المدينة زيد بن أسلم الذى أخذ عنه ابنه عبدالرحمن بن زيد، ومالك بن أنس) ومن أصحاب ابن مسعود علقمة، والأسود بن يزيد، وإبراهيم النخعى، والشعبى، ومن هذه الطبقة: الحسين البصرى، وعطاء بن أبى مسلم الخراسانى، ومحمد بن كعب القرظى، وأبو العالية رفيع بن مهران الرياحى، والضحاك بن مزاحم، وعطية بن سعد العوفى، وقتادة بن دعامة السدوسى، والربيع بن أنس، والسدى - فهؤلاء قدماء المفسرين من التابعين وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة.

سابعاً: التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى:

التفسير بالمأثور: هو الذى يعتمد على صحيح المنقول بالمراتب التى ذكرت سابقاً فى شروط المفسر، من تفسير القرآن بالقرآن، أو بالسنة لأنها جاءت مبينة لكتاب الله، أو بما روى عن الصحابة لأنهم أعلم الناس بكتاب الله، أو بما قاله كبار التابعين لأنهم نقلوا ذلك غالباً عن الصحابة.

وهذا المسلك يتوخى الآثار الواردة فى معنى الآية فيذكرها، ولا يجتهد فى بيان معنى من غير أصل، ويتوقف عما لا طائل تحته ولا فائدة فى معرفته ما لم يرد فيه نقل صحيح.

قال ابن تيمية: يجب أن يعلم أن النبى ﷺ بين لأصحابه معانى القرآن، كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿ .. لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾[النحل] .. يتناول هذا وهذا، وقد قال أبو عبدالرحمن السلمى[1]: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن،

---

(١) هو عبدالله بن حبيب التابعى المقرئ، المتوفى سنة ٧٢ هـ، وهو غير أبى عبدالرحمن السلمى الصوى المتوفى سنة ٤١٢ هـ.

كعثمان بن عفان، وعبدالله بن مسعود وغيرهم، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: (فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً . ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة، قال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا) [رواه أحمد فى مسنده] ، وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمانى سنين، أخرجه مالك فى الموطأ، وذلك أن الله تعالى قال ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آياته ... (٢٩) ﴾[ص] وقال: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾[النساء] وتدبر كلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ كتاباً فى فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه.. فكيف بكلام الله الذى هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم؟)[1].

ومن التابعين من أخذ التفسير كله عن الصحابة، عن مجاهد قال :(عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته ، أستوقفه عند كل آية وأسأله عنها) .

سابعا : حكم التفسير بالمأثور :

التفسير بالمأثور هو الذى يجب اتباعه والأخذ به ؛ لأنه طريق المعرفة الصحيحة، وهو أأمن سبيل للحفظ من الزلل والزيغ فى كتاب الله. وقد روى عن ابن عباس أنه قال (التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه أحد إلا الله) .

فالذى تعرفه العرب هو الذى يرجع فيه إلى لسانهم ببيان اللغة.

والذى لا يعذر أحد بجهله : هو ما يتبادر فهم معناه إلى الأذهان من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد ولا لبس فيها، فكل امرئ يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى:﴿ ... وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ .. (٦٢) ﴾[الأنفال].. وإن لم يعلم أن هذه العبارة وردت بطريق النفى والاستثناء فهى دالة على الحصر.

وأما ما لا يعلمه إلا الله، فهو المغيبات، كحقيقة قيام الساعة، وحقيقة الروح.

وأما ما يعلمه العلماء : فهو الذى يرجع إلى اجتهادهم المعتمد على الشواهد والدلائل دون مجرد الرأى ، من بيان مجمل، أو تخصيص عام، أو نحو ذلك.

وقد ذكر ابن جرير الطبرى نحو هذا فقال:(فقد تبين ببيان الله جل ذكره: أن مما أول الله من القرآن على نبيه ﷺ ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول ﷺ ، وذلك

(١) الإتقان - جـ ٢ - ص ١٧٦.

تأويل جميع ما فيه : من وجوه أمره - واجبه وندبه وإرشاده - وصنوف نهيه، ووظائف حقوقه وحدوده ، ومبالغ فرائضه ، ومقادير اللازم بعض خلقه لبعض، وما أشبه ذلك من أحكام آية التى لم يدرك علمها إلا ببيان رسول الله ﷺ لأمته ، وهذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله ﷺ بنص منه عليه ، أو بدلالة قد نصبها دالة أمته على تأويله.

وأن منه ما لا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار، وذلك ما فيه من الخبر عن آجال حادثة، وأوقات آتية، كوقت قيام الساعة، والنفخ فى الصور، ونزول عيسى ابن مريم، وما أشبه ذلك .. ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾[الأعراف]..

وأن منه ما يعلم تأويله كل ذى علم باللسان الذى نزل به القرآن، وذلك إقامة إعرابه، ومعرفة المسميات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها، والموضوعات بصفاتها الخاصة دون ما سواها، فإن ذلك لا يجهله أحد منهم، وذلك كسامع منهم لو سمع تالياً يتلو ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) ﴾[البقرة].. لم يجهل أن معنى الإفساد هو ما ينبغى تركه مما هو مضرة وأن الإصلاح هو ما ينبغى فعله مما فعله منفعة، وإن جهل المعانى التى جعلها الله إفساداً، والمعانى التى جعلها الله إصلاحاً[1].

ثامناً : التفسير بالرأى :

التفسير بالرأى : هو ما يعتمد فيه المفسر فى بيان المعنى على فهمه الخاص واستنباطه بالرأى المجرد - وليس منه الفهم الذى يتفق مع روح الشريعة، ويستند إلى نصوصها - فالرأى المجرد الذى لا شاهد له مدعاة للشطط فى كتاب الله، وأكثر الذين تناولوا التفسير بهذه الروح كانوا من أهل البدع الذين اعتقدوا مذاهب باطلة وعمدوا إلى القرآن ؛ فتأولوه على رأيهم، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لا فى رأيهم ولا فى تفسيرهم ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم . كتفسير عبدالرحمن بن كيسان الأصم، والجبانى ، وعبدالجبار، والرمانى، والزمخشرى ، وأمثالهم.

---

(١) تفسير الطبرى - جـ١ - ص ٧٤ ، ٧٥ .

ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة يدس مذهبه فى الكلام يروج على كثير من الناس كما صنع صاحب الكشاف فى اعتزالياته وإن كان بعضهم أخف من بعض، فمنهم طوائف من أهل الكلام أولت آيات الصفات بما يتفق مع مذهبهم . وهؤلاء أقرب إلى أهل السنة من المعتزلة، إلا أنهم حين جاءوا بما يخالف مذهب الصحابة والتابعين فقد شاركوا المعتزلة وغيرهم من أهل البدع.

حكم التفسير بالرأى:

وتفسير القرآن بمجرد الرأى والاجتهاد من غير أصل حرام لا يجوز تعاطيه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴿٣٦﴾ ﴾[الإسراء]، وقال ﷺ :« من قال فى القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار » [أخرجه الترمذى والنسائى وأبو داود . وقال الترمذى: هذا حسن] ، وفى لفظ « من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ ».

ولهذا تحرج السلف عن تفسير ما لا علم لهم به ، فقد روى عن يحيى بن سعيد عن سعيد ابن المسيب (أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: إنا لا نقول فى القرآن شيئاً) [رواه ابن مالك فى الموطأ].

وأخرج أبو عبيد القاسم بن سلام (أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سئل عن الأب فى قوله تعالى﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾[عبس] ، فقال : (أى سماء تظلنى؟ وأى أرض تقلنى؟ إذا قلت فى كلام الله ما لا أعلم) [رواه ابن أبى شيبة والطبرانى].

قال الطبرى : (وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا : من أى ما كان من تأويل أى القرآن الذى لا يدرك علمه إلا بنص بيان رسول الله ﷺ ، أو ينصبه الدلالة عليه، فغير جائز لأحد القليل فيه برأيه، بل القائل فى ذلك برأيه - وإن أصاب الحق فيه - فمخطىء فيما كان من فعله ، بقيله فيه برأيه ، لأن إصابته ليست إصابة موقن أنه محق، وإنما هى إصابة خارص وظان، والقائل فى دين الله بالظن، قائل على الله ما لا يعلم، وقد حرم الله جل ثناؤه ذلك فى كتابه على عباده ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[الأعراف][(١)].

فهذه الآثار وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم من الكلام فى التفسير بما لا علم لهم به.. أما من تكلم بما لا يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا روى

---

(١) تفسير الطبرى - جـ ١ - ص ٧٨ ، ٧٩ .

عن هؤلاء وغيرهم أقوال فى التفسير - ولا منافاة - لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل إنسان، ويكون الأمر أشد نكيراً لو ترك التفسير بالمأثور الصحيح وعدل عنه إلى القول برأيه ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (وفى الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما تخالف ذلك كان مخطئاً ، بل مبتدعاً ، لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذى بعث الله به رسولهﷺ).

وقال الطبرى : (فأحق المفسرين بإصابة الحق فى تأويل القرآن - الذى إلى علم تأويله للعباد سبل - أوضحهم حجة فيما تأول وفسر ، مما كان تأويله إلى رسول ﷺ دون سائر أمته، من اختبار رسول الله ﷺ الثابتة عنه : إما من جهة النقل المستفيض فيما وجد فيه من ذلك عنه النقل المستفيض ، وإما من جهة نقل العدول الإثبات، فيما لم يكن فيه عنه النقل المستفيض ، أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته، وأصحهم برهاناً - فيما ترجم وبين من ذلك - مما كان مدركاً علمه من جهة اللسان ، إما بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة، كائنا من كان ذلك المتأول والمفسر، بعد أن لا يكون خارجا تأويله وتفسيره ما تأول وفسر من ذلك، عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة، والخلف من التابعين وعلماء الأمة)[1].

الإسرائيليات :

لليهودية ثقافتها الدينية التى تستمد من التوراة، وللنصرانية ثقافتها الدينية التى تستمد من الإنجيل، وقد انضوى تحت لواء الإسلام منذ ظهوره كثير من اليهود والنصارى، ولهؤلاء وأولئك ثقافتهم الدينية.

وقد اشتمل القرآن على كثير مما جاء فى التوراة والإنجيل ولاسيما ما يتعلق بقصص الأنبياء وأخبار الأمم ، ولكن القصص القرآنى يجمل القول مستهدفاً مواطن العبرة والعظة دون ذكر للتفاصيل الجزئية كتاريخ الوقائع ، وأسماء البلدان والأشخاص، أما التوراة فإنها تتعرض مع شروحها للتفاصيل والجزئيات، وكذلك الإنجيل.

وحيث دخل أهل الكتاب فى الإسلام فقد حملوا معهم ثقافتهم الدينية من الأخبار والقصص الدينى، وهؤلاء حين تقرأون قصص القرآن قد يتعرضون لذكر التفصيلات الواردة

---

(١) تفسير الطبرى - جـ ١ - ص ٩٣ .

فى كتبهم، وكان الصحابة يتوقفون إزاء ما يسمعون من ذلك، امتثالاً لقول رسول الله ﷺ « لا تصدوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمناً بالله وما أنزل إلينا.. » [أخرجه البخارى].. وقد يدور حوار بينهم وبين أهل الكتاب فى شىء من تلك الجزئيات ، ويقبل الصحابة بعض ذلك ما دام لا يتعلق بالعقيدة ولا يتصل بالأحكام ، ثم يتحدثون به ، لما فهموه من الإباحة فى قوله ﷺ «بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[أخرجه البخارى].. أى حدثوا عن بنى إسرائيل بما لا تعلمون كذبه، أما ما جاء فى الحديث :«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم».. فهو محمول على ما إذا كان ما يخبرون به محتملاً لأن يكون صدقاً، ولأن يكون كذباً، فلا تعارض بين الحديثين.

تلك الأخبار التى تحدث بها أهل الكتاب الذين دخلوا فى الإسلام هى التى يطلق عليها الإسرائيليات من باب التغليب للجانب اليهودى على الجانب النصرانى، حيث كان النقل عن اليهود أكثر لشدة اختلاطهم بالمسلمين منذ بدأ ظهور الإسلام، وكانت الهجرة إلى المدينة.

ولم يكن بعض المفسرين يتحرى صحة النقل فيما يأخذونه من هذه الإسرائيليات، ومنها ما هو فاسد وباطل، لذا كان على من يقرأ فى كتبهم أن يتجاوز عما لا طائل تحته، وألا ينقل منهم إلا ما تدعو إليه الضرورة وتتبين صحة نقله ويظهر صدق خبره.

وأكثر ما يروى من هذه الإسرائيليات إنما يروى عن أربعة أشخاص هم : عبدالله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج، وقد اختلفت أنظار العلماء فى الحكم والثقة بهم ، ما بين مجرح وموثق، وأكثر الخلاف يدور حول كعب الأحبار، وكان عبدالله بن سلام أكثرهم علماً، وأعلاهم قدراً ، واعتمده البخارى وغيره من أهل الحديث ، ولم ينسب إليه من التهم ما نسب إلى كعب الأحبار ووهب بن منبه.

تاسعاً : التفسير الإشارى الرمزى لدى الصوفية :

إذا أريد بالتصوف السلوك التعبدى المشروع الذى تصفو به النفس، وترغب عن زينة الدنيا وبالزهد والتقشف ، والعبادة، فذلك أمر لا غبار عليه إن لم يكن مرغوباً فيه، ولكن التصوف أصبح فلسفة نظرية خاصة لا صلة له بالورع والتقوى والتقشف ، واشتملت فلسفته على أفكار تتنافى مع الإسلام وعقيدته ، وهذا هو الذى نعنيه هنا، وهو الذى كان له أثره فى تفسير القرآن.

ويعتبر ابن عربى زعيم التصوف الفلسفى النظرى، وهو يفسر الآيات القرآنية تفسيراً يتفق مع نظرياته الصوفية سواء كان ذلك فى التفسير المشهور باسمه ، أو فى الكتب التى تنسب إليه كالفصوص ، وهو من أصحاب نظرية وحدة الوجود.

فهو يفسر مثلاً قوله تعالى فى شأن إدريس عليه السلام ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾[مريم] بقوله : وأعلى الأمكنة المكان الذى تدور عليه رحى عالم الأفلاك، وهو فلك الشمس، وفيه مقام روحانية إدريس.. ثم يقول : وأما علو المكانة فهو لنا أعنى المحمديين، كما قال تعالى:﴿ .. وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ .. ﴿٣٥﴾ ﴾[محمد] ، فى هذا العلو وهو يتعالى عن المكان لا عن المكانة.

ويقول فى تفسير قوله تعالى فى أول سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ .. ﴿١﴾ ﴾ اتقوا ربكم : اجعلوا ما ظهر منكم وقاية لربكم، واجعلوا ما بطن منكم – وهو ربكم – وقاية لكم، فإن الأمر ذم وحمد، فكونوا وقاية فى الذم، واجعلوه وقايتكم فى الحمد تكونوا أدباء عالمين[1].

فهذا التفسير ونظائره يحمل النصوص على غير ظاهرها، ويغرق فى التأويلات الباطنية البعيدة، ويجر إلى متاهات من الإلحاد والزيغ.

ومن هؤلاء المتصوفة من يدعى أن الرياضة الروحية التى يأخذ بها الصوفى نفسه تصل إلى درجة ينكشف له فيها ما وراء العبارات القرآنية من إشارات قدسية ، وتهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية، ويسمى هذا بالتفسير الإشارى، فللآية ظاهر وباطن، والظاهر: هو الذى ينساق إليه الذهن قبل غيره، والباطن هو: ما وراء ذلك من إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك وهذا التفسير الإشارى كذلك إذا أوغل فى الإشارات الخفية صار ضرباً من التجهيل، ولكنه إذا كان استنباطاً حسناً يوافق مقتضى ظاهر العربية وكان له شاهد يشهد لصحته من غير معارض، فإنه يكون مقبولاً.

ومن ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : (كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم ، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم، قال: ما تقولون فى قوله تعالى:﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً،

---

(١) انظر : التفسير والمفسرون – جـ ٣ – ص ٧ ، ٨.

فقال لى: أكذلك تقول يا ابن عباس، فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول اللهﷺ أعلمه له ، قال: إذا جاء نصر الله والفتح، وذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول) [أخرجه البخارى].

قال ابن القيم: (وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ، وهو الذى ينحو إليه المتأخرون، وتفسير على المعنى : وهو الذى يذكره السلف، وتفسير على الإشارة: وهو الذى ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم، وهذا لا بأس به بأربعة شروط:

١ - ألا يناقض معنى الآية.

٢ - وأن يكون معنى صحيحاً فى نفسه.

٣ - وأن يكون فى اللفظ إشعار به.

٤ - وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم.

فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطاً حسناً[1].

غرائب التفسير :

من الناس من له شغف بالإعراب فى القول وإن حاد عن الجادة وركب مسلكاً وعرا، فكلفوا أنفسهم من الأمر ما لا يطيقون، وأعملوا فكرهم فيما لا يعلم إلا بالتوقيف، فخرجوا وليس فى يدهم سوى ما تسفهه عقولهم من الرعونة والغى، ولهذا عجائب فى معانى آيات من القرآن نذكر من غرائبها :

١ - قول من قال فى (ألم) معنى ألف : اللّه محمداً فبعثه نبياً - ومعنى لام : لامه الجاحدون وأنكروه - ومعنى ميم : ميم الجاحدون المنكرون.

٢ - قول من قال فى (حم عسق) إن الحاء : حرب على ومعاوية - والميم : المراونية (نسبة إلى مروان من بنى أمية) والعين: ولاية العباسية - والسين : ولاية السفيانية . والقاف : قدوة مهدى.

(١) من أهم كتب التفسير الإشارى : تفسير القرآن العظيم للسترى - مطبوع - وحقائق التفسير لأبي عبدالرحمن السلمي الصوفي - مخطوط - وعرائس البيان في حقائق القرآن لأبي محمد الشيرازي - مطبوع - والتأويلات النجمية لنجم الدين دابة وعلاء الدين السمتاني - مخطوط - والتفسير المنسوب إلي ابن عربي - مطبوع - .

٣ - ما ذكره ابن فورك فى تفسير قوله تعالى: ﴿ ولَكن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . . . ﴿٢٦٠﴾ ﴾[البقرة] ، إن إبراهيم كان له صديق وصفه بأنه قلبه، أى ليسكن هذا الصديق إلى هذه المشاهدة إذا رآها عياناً.

٤ - قول أبى معاذ النحوى فى قوله تعالى : ﴿ الَّذي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا . . ﴿٨٠﴾ ﴾ [يس] ، يعنى من إبراهيم ناراً، أي نوراً، هو محمد ﷺ ﴿ . . . فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يس] ، تقتبسون الدين.

وهذا كله خروج عن المنهج الصحيح فى التعامل مع كتاب الله عز وجل وتفسيره، نسأل الله لنا ولهم الهداية والعافية.

مقدمة تاريخية للسورة

من خلال رصد الجانب الحضارى
والتاريخى والاجتماعى والاقتصادى
لمصر فى عهد يوسف عليه السلام

مقدمة تاريخية للسورة

من خلال رصد الجانب الحضارى والتاريخى والاجتماعى والاقتصادى لمصر فى عهد يوسف عليه السلام

جاءت كلمة « **مصر** » فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع هى:

١ - ﴿ .. قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة][1].

٢ - ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس].

٣ - ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف].

٤ - ﴿ .. وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يوسف].

٢ - ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف].

هذا بخلاف المواضع الأخرى التى وردت فيها مصر بصورة غير مباشرة أو المواضع التى ذكرت فيها سيناء من أرض مصر وكونها مباركة ومقدسة.

---

(١) (هذه الآية خلافية كما هو معلوم من ناحية اللغة وذلك لكونها جاءت مصروفة غير ممنوعة من الصرف مصراً فتحتمل مصر أو أى مصر من الأمصار).

لمحات قرآنية عن النظام السياسي المصري في عصر يوسف عليه السلام

(رؤية تفسيرية عامة عن القصة الكريمة)

رأينا إشارة قرآنية لعظمة الدولة المصرية منذ القدم من خلال ورود كلمة (مصر) فى القرآن ومن خلال الإشارة إليها على أنها (الأرض) ، ومن الطبيعى أن هذه العظمة الدنيوية تتجلى أساساً فى نظام الحكم السياسى وقوة الدولة المصرية.

والدولة المصرية القديمة (٣٢٠٠ - ٢٢٥٠) ق.م ، بدأت بتوحيد القطرين ثم ازدهرت ثم إنهارت، ولم يحدث وقت انهيارها أن استولى على مصر عدو خارجى؛ لأنه فى الوقت السحيق لم توجد قوة تجرؤ على استغلال الضعف الداخلى فى مصر.

ولذلك عادت مصر للاتحاد والقوة فى عصر الدولة الوسطى إلا أن الانهيار ما لبث أن لحقها وحينئذ ظهرت قوة خارجية استغلت ذلك الضعف فسيطرت على مصر خصوصاً فى الدلتا وكان الرعاة الهكسوس هم تلك القوة الدافعة من الشرق، وعاد الحكم المصرى القوى بعد أن دحر أحمس الهكسوس ، وبدأت بذلك الدولة الحديثة التى بلغت عظمتها فى عصر الرعامسة.

وقد تعرض القرآن الكريم للتاريخ المصرى فى مرحلتين مهمتين تمثلان مرحلتى الحكم المصرى الأصيل ومرحلة الحكم الوافد، ففى قصة يوسف عليه السلام كان الهكسوس يحكمون مصر، وفى قصة موسى عليه السلام كان الفرعون ممثلاً لمصر والمصريين، والتاريخ المصرى الطويل هو نتاج للحكم المصرى الوطنى والحكم الأجنبى المستعمر.

ومن إعجاز القرآن الكريم منذ ١٤٠٠ عام أن يتحدث عن حاكم مصر فى عصر يوسف عليه السلام بوصفه (الملك) بينما يتحدث عن حاكم مصر فى عصر موسى عليه السلام بأنه (فرعون) وأن تأتى الإشارة موحية بالاختلاف بين نظام الحكم فى العصرين لتشير بأن كلا منهما يختلف عن الآخر.

فى قصة يوسف عليه السلام وصف القرآن حاكم مصر وقتها بأنه الملك فى خمسة مواضع ولم يصفه بالفرعون ، بينما ذكر القرآن فى قصة موسى لقب الفرعون ولم يذكره بأنه مجرد ملك.

ويقول مؤرخو مصر القديمة: إن الهكسوس لم يتركوا بمصر آثارا يمكن أن يستخلص منها شيئاً عن نظام حكمهم ، الأمر الذى يجعل من الإشارات القرآنية عن ملك الهكسوس فى مصر المصدر الوحيد المتاح علاوة على أنه المصدر اليقينى الذى لا ريب فيه فى كل ما يخبر به من أقوال وأحداث.

ويمكن أن نتخيل شخصية الملك الهكسوسى من خلال قصة يوسف عليه السلام فهو ملك له (ملأ) أى مجلس مشورة يستشيرهم ، وإن كانت علاقته بذلك الملأ هى العلاقة العضوية التى كانت بين فرعون موسى وملأه فبينما يجد فرعون موسى كل التأييد من ملأه نرى الملك الهكسوسى يفتقد حماس أتباعه حين قص عليهم رؤياه.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) ﴾

ومن دراسة النصوص القرآنية التى تتناول علاقة فرعون موسى بملأه يمكننا أن نتوقع رد فعل مناقض ، فلو تخيلنا أن فرعون موسى قص على ملأه رؤيا ، وقال لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾.

لسارعوا بتفسير الرؤيا بما يعرفون أنه يتفق مع هوى الفرعون ، ولربما أحضروا له سريعاً السحرة والمنجمين والعرافين، وما كانوا بالتأكيد سيقولون له فى تثاؤب وكسل ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ ﴾.

ومع ذلك فالملك الهكسوسى كان لا يخلو من فراسة صادقة ومعرفة بأقدار الرجال ويتجلى ذلك فى اختياره ليوسف عليه السلام الذى تم بعد تفكير ودراسة نعرفها من خلال الآيات الكريمة، فالملك حين خاب أمله فى الملأ الذى عجز عن تعبير رؤياه رشح له الساقى – زميل يوسف عليه السلام فى السجن من قبل – يوسف ليأخذ منه تعبير الرؤيا ، وأرسله الملك إلى حيث يوسف فى السجن، ثم عاد الساقى بتفسير الرؤيا ، وعرضها على الملك، ولابد أن الملك قد أدرك أن تعبير الرؤيا ليس مجرد كلام يقال على عواهنه بل هو أمر خطير سيحدث فى المستقبل، وأنه ليس مجرد تفسير بل هو خطة متكاملة للمستقبل تستلزم استعداداً لسنوات المجاعة، وتوفيراً من إنتاج المحاصيل فى سبع سنوات من الرخاء ليستعين بها المصريون، ومن حولهم فى سبع سنوات أخرى من المجاعة.

وأيقن الملك بعد تفكير أن الحل الأمثل هو أن يستدعى يوسف عليه السلام ويحرره من السجن ليستعين بمشورته ، وذلك الحرص على الاستشارة والمشورة من جانب الملك

الهكسوسى فى قضية مصيرية تهـم العامـة والخاصـة من الجوانـب الإيجابية فى شخصيته.

وأرسل الملك رسولاً خاصاً من لدنه إلى يوسف عليه السلام في السجن، وذلك تكريم خاص ليوسف لا يحلم به سجين فى تلك العصور ، ولكن يوسف عليه السلام أصر أن يخرج من السجن، وصفحته نقية من تلك التهمة الكاذبة التى ألصقوها به ظلما، وأدى ذلك الموقف من يوسف إلى تصعيد جديد آثار اهتمام الملك بيوسف أكثر، ولا ريب أن الساقى قد حدث الملك من قبل عن شخصية يوسف من خلال احتكاكه به فى السجن، ثم جاء رفض يوسف للخروج من السجن إلا بعد إثبات براءته ليجعل الملك يقوم بنفسه بالتحقيق من ملابسات الحادث الذى مضى عليه سنوات، ولذلك فالملك يستدعى النسوة ويحقق معهن ، ويبدأ التحقيق باتهامهن بأنهن اللاتى راودن يوسف عن نفسه، أي يبدأ التحقيق باتهامهن بدلاً من اتهام يوسف، أي أنه من البداية نصب نفسه مدافعاً عن يوسف البرئ، ولذا يعترفن ببراءة يوسف، وتعترف امرأة العزيز أمام الملك بأنها مذنبة، وبعد ذلك الموقف الفريد يمثل يوسف عليه السلام أمام الملك بعد أن استدعاه الملك للمرة الثانية فيستجيب بعد أن حقق رغبته فى تنقية صفحته وإثبات براءته ، ودار بينهما الحديث الذى كان الملك يتوق إليه وهو القائل عن يوسف: ائتونى به أستخلصه لنفسى، وبعد ذلك الحديث ازداد الملك اقتناعاً بيوسف وإعجاباً بشخصيته فأحله المقامة السامية فى بلاطه وحينئذ يطلب يوسف بنفسه أن يكون مشرفاً على خزائن المملكة لأن لديه الخبرة التى تمكنه من الإشراف عليها خلال السنوات الحاسمة القادمة.

تلك هى الحقائق التاريخية عن ملك مصر والهكسوس والتى نستخلصها من سورة يوسف.

ويقول مؤرخو مصر القديمة بأن الهكسوس لم يعاملوا المصريين إلا بالعنف والقسوة، ولكن هذا الاتهام يعوزه الدليل الحاسم، ولكن القرآن يعزز ذلك الرأى.

فهناك شخص برئ دخل السجن ظلماً ليستر فضيحة امرأة العزيز والنسوة المترفات فى المدينة، ولكن الذى وقع فيه يوسف عليه السلام أنه تمسك بالعفة مع تهديدهن له بالسجن إن لم يستجب لنزواتهن ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ ﴾[يوسف]..

وكان من الممكن أن ينسوا يوسف فى السجن فيظل فيه إلى أن يموت لولا أن مسار الأحداث اتجه إلى رؤية الملك والتداعيات بعدها.

ومن ذلك نفهم أن الطبقات الفقيرة فى مصر كانت تدفع فاتورة الترف والانحلال الذى تعيشه الطبقة الحاكمة من الهكسوس ، وحين تمسك يوسف عليه السلام بعفته ولم يرضخ لنزوات امرأة العزيز ونساء الطبقة الراقية دفع الثمن من حريته وكان ممكنا أن يبقى فيها إلى نهاية عمره.

ونلمح موقفاً آخر يتجلى فيه ظلم الهكسوس للمصريين فى قصة صاحبى يوسف فى السجن. وأحدهما خباز والآخر الساقى ، وقد دخلا السجن مع يوسف عليه السلام فى نفس الوقت، ولا بد أن تؤسس هذه الزمالة بينهم صداقة.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾

لقد رأى كلاهما رؤية مستوحاة من مهنته الأصلية، فالخباز رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، والساقى رأى أنه يعصر خمراً وتداعيات الأحداث تنبئنا بأنهما ينتميان لطبقتين مختلفتين ، فالساقى الذى حظى بعفو الملك ولم يلبث أن أصبح ساقياً للملك وأشد الناس قربا منه حتى أنه يشترك فى مداولات الملك مع الملأ ، ولأنه من الطبقة العليا فإنه بمجرد العفو عنه وخروجه من السجن نسى يوسف ووعده ليوسف بأن يحدث الملك فى قضيته وهو الذى يعرف أن يوسف مظلوم وأن الملك الذى يراه كل يوم ويستطيع الحديث معه متى شاء، يمكنه أن يرفع الظلم عن يوسف البرئ المتهم فى شرفه زوراً.

وانشغل الساقى بهموم الطبقة العليا وحياة القصور ونسى ذكريات السجن والسجين المظلوم الذى كان يستضئ به فى ظلمات السجن ، ولم يتذكره إلا عندما اقتضت مصلحة الملك ذلك عندما عجز الملأ عن تفسير الرؤيا .

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) ﴾

والذى يعنينا هنا أن الساقى الذى ينتمى للطبقة الحاكمة قد خرج من السجن، ووجد وظيفته فى البلاط بجانب الملك.

هذا بينما الخباز المسكين يلقى حتفه مصلوباً، والخباز بحكم مهنته لابد أن ينتمى للطبقة الشعبية، والمفهوم أن جريمته قد لا تتعدى السرقة مما تقع عليه يداه من دقيق وخبز، وذلك ما يعكسه المنام الذى رآه وهو يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، أي أنه جوزى بسرقته الخبز فصلبوه بسبب ذلك.

وقد كان السجن هو المرحلة الأولى التى مر بها الخباز المسكين قبل أن يصلب ويبدو أن السجن ذا أهمية خاصة فى تاريخ مصر القديمة فكلمة السجن ومشتقاتها لم ترد فى القرآن الكريم إلا فيما يخص الأحداث الخاصة بمصر.

وامرأة العزيز تهدد يوسف بالسجن أمام زوجها ﴿ ... قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وتهدده بالسجن أمام النسوة ﴿ .. وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

ويرضى يوسف عليه السلام بالسجن : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. ﴿٣٣﴾ ﴾.

وتظل رابطة السجن قوية فى نفس يوسف عليه السلام فيخاطب رفيقيه بقوله : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾.

وحتى بعد أن أصبح يوسف عزيز مصر، وله فيها مطلق السلطات فإن ذكريات السجن ظلت تلاحقه ، وهو فى تمام النعمة يقول ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ .. ﴿١٠٠﴾ ﴾.

وارتبط السجن بالعذاب الجسدى والنفسى وذلك ما تلحظه فى قول امرأة العزيز: ﴿ إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، ﴿ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾.

ويكفى من قسوة السجن أن يوسف قال للساقى الذى تنبأ له بالخروج : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾.

ونسى الساقى فلبث يوسف عليه السلام : ﴿ .. فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

وظل السجن المصرى مرعباً بعد يوسف، ففى قصة موسى نرى الفرعون يهدد قائلاً: ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[الشعراء].

وإلى جانب الملك الهكسوسى نلمح وظيفة سياسية أخرى رفيعة المنزلة وهى (عزيز مصر) وجاء هذا اللقب مرتين فى حديث القرآن الكريم عن المرأة التى راودت يوسف عليه السلام عن نفسه وهى امرأة العزيز وجاء مرتين وصفاً للمكانة التى احتلها يوسف بعد أن مكن الله له فى الأرض.

لقد عبر القرآن الكريم عن قوة شخصية يوسف عليه السلام حين تولى هذا المنصب بجدارة فقد قام يوسف عليه السلام بأعباء المنصب إلى درجة أن إخوته حين دخلوا عليه لم يعرفوه بينما عرفهم ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

وقد أخذتهم هيبة يوسف فأخذوا يرجونه حين أخذ أخاه : ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ . . . ﴿٧٨﴾ ﴾.

ثم حين رجعوا له قالوا خاضعين : ﴿ . . . يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

ومن خلال المهام التى قام بها يوسف تعرف أن منصب عزيز مصر هو الإشراف الكامل على شئون مصر الزراعية والاقتصادية ، فبذلك المنصب مكن الله تعالى ليوسف عليه السلام فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، أو أن يوسف عليه السلام كان يشارك فى حكم المملكة ونلمح ذلك من قوله تعالى وهو يشكر ربـه تعالى : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ . . ﴿١٠١﴾ ﴾.

وكان المصريون فى عصر يوسف عليه السلام يقولون عنه باللغة المصرية القديمة (عزيز مصر) وإلى عهد قريب كان من ألقاب التشريف أن يقال بالعربية التركية (عزتلو) وبالعربية الفصحى (صاحب العزة).

ونستفيد من النصوص القرآنية أن مصر فى عصر الهكسوس كانت لها حدود شرقية تقوم عليها بوابات وحراسة ترصد القادم والداخل، وذلك تطور هام فى الدولة المصرية القديمة يؤكد من أهميته أن الهكسوس وقتها حرصوا على الإشراف على الحدود المصرية الشرقية ، هذا مع ترحيبهم بالوافدين من آسيا بمثل ما فعلوه بأبناء يعقوب (إسرائيل) عليه السلام وقد كان دخول الحدود المصرية أمراً يستحق الإعداد والاستعداد.

نلمح ذلك من قول يعقوب عليه السلام لبنيه : ﴿ . . يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

والتزم الأبناء بوصية أبيهم : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا . . . ﴿٦٨﴾ ﴾.

ونفهم من ذلك أن الحدود المصرية الشرقية كانت لها بوابات متفرقة، وأن عليها حرسا شديدى الملاحظة، وقد خشى يعقوب عليه السلام أن يرتابوا فى أبنائه فيحدث لهم ما لا تحمد عقباه فنصحهم بما يستطيع ولم يبق عليه إلا أن يتوكل على الله ويسلم أمره إليه.

وحين قدم يوسف عليه السلام نفسه لأخوته وقال لهم: ﴿ ..وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ سافر ينتظرهم عند الحدود المصرية الشرقية، وهناك استقبل يوسف عليه السلام أبويه وأهله وساروا معه إلى مصر آمنين حيث لم يعد مجالا للخوف من يعقوب على أبنائه ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

أي كانوا يطلقون على العاصمة اسم (مصر) لقد كانت الحدود المصرية الشرقية نقاط حراسة ضد البدو وعصاباتهم، وكان لابد أن يحوط الشك بكل من يأتى من الصحراء.

وقد حمد يوسف عليه السلام ربه فقال: ﴿ .. وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ... ﴿١٠٠﴾ ﴾.

أي جاءوا بسلام ودخلوا من بوابات الحدود المصرية إلى مصر (أم الدنيا) بسلام آمنين، وبذلك عاش بنو إسرائيل – أو يعقوب – فى مصر واستمروا فيها إلى أن خرجوا مع موسى، وبنو إسرائيل لا علاقة لهم باليهود البيض فى دولة إسرائيل اليوم الذين يمثلون فى الحقيقة سلالة قبائل الخزر التى اعتنقت اليهودية فى العصور الوسطى ثم هاجرت لأوروبا ثم كونوا فى العصر الحديث عماد دولة إسرائيل الراهنة.

وفى قصة يوسف عليه السلام إشارات عن الرقى الحضارى الذى كان عليه البيت المصرى فى الطبقات الحاكمة، فقد كان يتكون من حجرات شتى، وأبواب متعددة وأجنحة مختلفة، بدليل أن امرأة العزيز حين أرادت الخلوة بيوسف عليه السلام غلقت الأبواب ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾.

والمتوقع أن تكون قد عملت على إتمام الخلوة بأن تغلق باب الجناح الذى تقيم فيه مع باب حجرتها الخاصة وأبوابا أخرى بينهما، ومما يدل على كثرة الأبواب التى ينبغى غلقها فى تلك المساحة أن القرآن الكريم يستعمل لفظ الجميع ﴿ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ وكثرة الأبواب دليل على تقدم الرقى الحضارى والمعمارى، وحاول يوسف عليه السلام الهرب من حجرتها فقفز للباب كى يخرج وسبقته هى لتحول بينه وبين الخروج وجذبته من الخلف فمزقت قميصه وانفتح الباب فظهر الزوج المحترم لدى الباب ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ... ﴿٢٥﴾ ﴾.

إذا كان العزيز يحتفظ بمفاتيح للأبواب ، أى كانت الأقفال تفتح من الداخل والخارج، وذلك تطور معمارى هائل فى ذلك العصر البعيد.

وأرادت امرأة العزيز أن ترد على نساء المدينة فأقامت لهن حفلا ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

من خلال الآية نتجول فى داخل بيت العزيز، ففيه مساحة واسعة تكفى لأن تعد السيدة فيه متكئاً لمجموعة كبيرة من النساء ، والمتكأ المناسب لبيت مثل هذا لا يمكن أن يكون حصيرة بل أرائك ناعمة تتكئ عليها النسوة المترفات، بينما تطوف عليهن الخادمات بأطباق الفاكهة وسكاكين يأكلن بها ، أى أن المصريين منذ حوالى أربعة آلاف عام كانوا يستعملون السكاكين فى تناول الطعام، وهذا فى الوقت الذى كان فيه الأوربيون لم يهبطوا بعد من فوق الأشجار.

والرقيق الذى يخدم فى البيوت كان من مظاهر الجاه فى ذلك الوقت، وقد جاءت قافلة من الشرق تحمل يوسف عليه السلام وفى مصر بيع يوسف واشتراه الرجل الذى صار عزيزا لمصر وحرص على أن يرعاه رعايته لابنه، وذلك تقدم حضارى فى التفكير تجاوز عقلية لتكون محرر العبيد فى أمريكا﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ... ﴿٢١﴾ ﴾.

والملفت للنظر أن القرآن الكريم يعتبر نشأة يوسف عليه السلام رقيقا فى هذا البيت تمكينا له فى الأرض﴿ .. وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ .. ﴿٢١﴾ ﴾.

ولقد كانت مصر جنة الرقيق والمماليك وأصبحوا بها ملوكاً وسلاطين.

لقد كان عزيز مصر حين اشترى يوسف يطمع فى أن يتخذه ولداً ، ولكن كان لزوجته رأى آخر.

والمهم أنها ردت على النسوة بتلك التجربة وفاجأتهن برؤية يوسف ومن ذلك نفهم أنهن لم يرين يوسف من قبل ولعل ذلك يرجع إلى حواجز كانت تمنع النساء من الطبقة الراقية من الاختلاط برقيق البيوت الأخرى. وربما لم يكن مباحا ليوسف أن يغادر البيت إلى الشارع أو إلى البيوت الأخرى، وإلا فإن حسنه سيصير مشهوراً فى المدينة ولا حاجة حينئذ للتجربة التى أقامتها زوجة العزيز.

وامرأة العزيز تجرنا إلى الحديث عن المرأة العصرية القديمة.

إن المرأة تلعب دوراً فى قصة يوسف عليه السلام ونلمح فيها أدواراً لامرأة العزيز والنسوة فى العاصمة المصرية القديمة وأم يوسف.

أما فى قصة موسى عليه السلام فللمرأة دور واضح.

فهناك أم موسى وأخته وامرأة الفرعون والمراضع والفتاتان فى مدين وإحداهما أصبحت زوجة موسى عليه السلام التى عادت معه إلى مصر.

ومع كثرة الأدوار النسائية فى قصة موسى عليه السلام إلا أن صوتهن خفت ليفسح المجال لصوت فرعون الطاغية ، وحتى زوجة فرعون نفسها كانت تخلو بنفسها بعيدا عنه تدعو الله عليه!!

أما فى قصة يوسف عليه السلام فكان صوت المرأة أعى على حساب الرجل، ويكفى أن الإشاعات النسائية كانت تجد الرواج.

فقد ذاعت قصة امرأة العزيز مع فتاها الوسيم وانشغلت العاصمة المصرية بتلك النميمة ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

وذلك الصوت العالى للمرأة يعنى أنه كان لها نفوذها فى داخل البيت المصرى فى ذلك الوقت.

صحيح أنه من الناحية الرسمية كان الرجل سيد المرأة، والقرآن يقول عن الوضع الرسمى للـــزوج فى ذلك الوقت ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ... ﴿٢٥﴾ ﴾.

إذاً كان العزيز زوج المرأة سيداً لها ، وفى نصائح الحكيم المصرى بتاح حتب فى معاملة الزوجة: «أسعد قلبها ما دامت حية لأنه حقل طيب لمولاها» ، أي كان الزوج هو ولى أمر الزوجة وسيدها ، ورد ذلك فى القرآن والتراث الفرعونى، هذا صحيح من الناحية الرسمية ولكن الواقع أن الزوج فى هذه الفترة كان يملك ولا يحكم، له السلطة الاسمية فى البيت وكفى، أما السلطة الفعلية فللمرأة الحديدية وتعبيرات القرآن الكريم فى قصة يوسف عليه السلام تعكس ذلك.

فعزيز مصر الذى يحتل مكانة سياسيــة هامــة حين اشترى يوســف قال لامرأته ﴿ .. أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ... (٢١) ﴾.

فحين طلب منها ذلك قدم لها تبريراً يقنعها فقال : ﴿ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾.

وقال القرآن : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ .. (٢٣) ﴾.

وهو تعبير بليغ عن تحكم تلك المرأة فى البيت وسلطانها على ما فيه ومن فيه، وحين ضبطها الزوج المحترم وهى تراود يوسف عليه السلام فى مخدعها، أو مخدع زوجها فإنها لم تفقد رباطة جأشها وهي فى ذلك الوضع الشائن أمام زوجها ولكنها قالت ﴿ .. مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) ﴾.

أي أنها بادرت بالاتهام ثم عجلت بالحكم والعقاب وليس على الزوج إلا أن يسمع ويطيع، وحدث فعلاً أنه سمع وأطاع، بورك فيه.

ولأنها تحب يوسف ولا يزال لديها أمل فى إغوائه فإنها لم تقل .

إلا أن يقتل أو عذاب أليم.

أرادت له السجن أو العذاب لتنتقم لكرامتها المجروحة ، أما الزوج فليس له اعتبار فى الموضوع مجرد التنفيذ لأوامر زوجته.

وملابسات الموضوع تطرح براءة يوسف عليه السلام من البداية ورجل فى ذكاء عزيز مصر وقتها لابد أن يفهم ذلك، ولا بد أنه فهم ذلك.

ولكن ما باليد حيلة، ولكن يوسف البرئ تمسك بعفته وصارت قضية تولى الحكم فيها رجل من أهل المرأة ، وتبين له براءة يوسف عليه السلام ومع ذلك فلم يزد على أن قال لها باختصار واستسلام ﴿ .. إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾.

ثم قال ليوسف كأنه يعتذر له : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا .. (٢٩) ﴾.

ولا نسمع تحركا إيجابياً من الزوج المحترم، بل إنه حتى لم يوبخ امرأته ، أو لم يفصل بينها وبين يوسف، فترك يوسف لها فريسة مما شجعها على خطواتها التالية.

فقد انتهزت المرأة تلك الإشاعة النسائية عن غرامها بيوسف فأعدت تلك الوليمة وفاجأت النسوة المحتجات بيوسف يظهر أمامهن ففقدن وعيهن أمام جماله وضمنت امرأة العزيز تأييدهن لها.

وتبدو تمام سيطرتها على يوسف - برضى زوجها أو سكوته - فى أمرها ليوسف أن يدخل على النسوة يخدمهن - فى الأغلب﴿ .. وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ .. (٣١) ﴾ . أى رتبت المرأة كل شىء.

اعتدت لهن الأرائك المريحة الناعمة فاسترسلن فى (الرغى) ثم جاءت أطباق الفاكهة بالسكاكين ، ثم أمرت يوسف بأن يدخل القاعة فجأة - وأطاع فليس له أن يعصيها - فأتت المفاجأة ثمرتها.

وتحول الموقف إلى صالح المرأة وساندتها وأصبح الرأى العام النسائى يطالب بافتراس يوسف. ولم يجد يوسف عليه السلام نصير من الأزواج المحترمين ، امرأة العزيز تهدده باسم النساء ﴿ .. وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾.

لذا لجأ يوسف عليه السلام إلى ربه ليحميه من كيد النسوة : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾.

واستجاب له ربه فحماه من كيد النسوة المفترسات : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ﴾.

لقد هددت امرأة العزيز يوسف عليه السلام أمام زوجها بأن تسجنه، وكانت تهمته أن راودها عن نفسها، وظهر افتراؤها وأنها هى التى راودته ثم كانت النهاية بعد أن انكشفت حقيقتها أمام زوجها وأمام المجتمع أنها أعادت تهديد يوسف بالسجن إن لم يفعل بها الفاحشة ، وانضم إليها فى هذا التهديد باقى النسوة (المحتجات سابقاً والطامعات فى يوسف بعدها) وأصبحت الفضيحة جماعية ، وبدلاً من وجود حياء لدى النساء وكرامة لدى الأزواج فإن رأى النساء هو الذى انتصر فى النهاية، وقرر الرجال المحترمون عقوبة يوسف بالسجن لأنه لم يرض زوجاتهم !! يقول تعالى عنهم : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) ﴾.

ولقد كشفت تلك القصة عن نفوذ هائل للمرأة فى عصر الهكسوس.

وبسبب مافيها من عناصر إنسانية اجتماعية درامية فإن تلك القصة ترسبت فى الوجدان الشعبى المصرى القديم، وحيكت على منوالها قصص كثيرة منها تلك الأسطورة الشهيرة التى راجت فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد أى بعد يوسف بنحو خمسة قرون.

وأبطالها ثلاثة : (أنبو) وهو صاحب دار ومزرعة وزوجته الفاتنة اللعوب ثم (باتا) شقيقه الأصغر الذى وصفته الأسطورة بالقوة والإخلاص والوفاء وأنه مؤيد بقوة ربانية مع

مهارته فى الزراعة والرعى، وواضح أن الأخ الأكبر يمثل شخصية عزيز مصر، والأخ الأصغر يمثل شخصية يوسف عليه السلام .

وقد اعتاد الأخ الأصغر أن يرعى زراعة أخيه ويعود فى المساء محملاً بالخيرات فيداوم على خدمة أخيه فى المنزل، وهنا ملمح آخر من قصة يوسف عليه السلام الذى عمل فى منزل العزيز خادماً وعمل مشرفاً على الزراعة والمحاصيل المصرية فيما بعد، وتقول الأسطورة أنه عندما حل موسم الزرع أعد (باتا) مع أخيه الثيران للحرث، وانشغلا فى العمل فأرسله أخوه من الحقل إلى البيت ليحضر البذور، ولما بلغ الدار وجد زوجة أخيه تمشط شعرها فطلب منها إحضار البذور.

فقالت له : إذهب أنت إلى مخزن الغلال واحمل منها ما تشاء ولا تضطرنى لترك ضفائرى.

ودخل (باتا) المخزن وبينما يحمل البذور فى المخزن دخلت زوجة أخيه وراودته عن نفسها وقالت له هيت لك ودعنا نخرج ساعة ونضطجع، ولكن الفتى نهرها قائلاً : أنت بالنسبة لى بمنزلة الأم وزوجك فى منزلة الأب وقد تعهدنى وربانى فلم هذا العار الذى تدعيننى إليه؟

وهذا القول يشبه قول يوسف عليه السلام لامرأة العزيز : ﴿ .. إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

وعاد (باتا) للمزرعة فلم يخبر أخاه ولكن فى المساء اتهمت الزوجة (باتا) بأنه راودها عن نفسه فعزم الأخ على قتل أخيه، وتربص به، ولكن الأبقار أخبرت الأخ الأصغر وحذرته من أخيه وخنجره، وذلك ملمح من التأثر بمنام الملك الذى يحوى البقرات، وهرب الآخر من خنجر الأكبر وتطلع للسماء فقال : (مولاى الكريم أنت تفصل بين الآثم والبرئ) .

فظهر نهر عظيم ملئ بالتماسيح فصل بين الأخوين ، وأظهر الأخ الأصغر براءته لأخيه فصدقه ، وقال له إنه سيهاجر إلى وادى الأرز - أي لبنان - وعلى أخيه الأكبر أن يبحث عنه إذا حدث له مكروه (ولو أنفق فى البحث سبع سنين) .

ومن بلاد الأرز جاء يوسف وأخوته ، والسبع سنوات وردت فى تفسير يوسف للمنام.

ولكن علو نفوذ المرأة فى ذلك العصر لا ينبغى أن يحجب بعض العناصر الإيجابية فى الناحية الأخلاقية.

فهناك الرجل الذى شهد بالحق ضد امرأة العزيز مع مكانتها الاجتماعية وكونه من أهلها، وكان ممكنا أن يجور على الحق تعصباً لقريبته المخطئة أو لمكانتها الاجتماعية وعوامل الطبقية خصوصاً وأن الخصم فى القضية خادم مملوك ، ولكن ذلك الشاهد وقف موقفاً رجولياً سجله القرآن الكريم وجعله رمزاً.

﴿ . . . وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾.

لقد جاء حكم الشاهد عادلاً ساوى بين الخصمين مع ذكاء وفهم ملابسات القضية وظروف الواقعة ، وحين ظهرت النتيجة واضحة فى براءة يوسف، واتهام سيدة البيت طيب الرجل خاطر يوسف ووبخ امرأة العزيز ودعاها لأن تستغفر لذنبها لأنها كانت من الخاطئين.

وهو بذلك يتفق مع ما جاء فى متون الأهرام : (إن الملاح السماوى لا يسمح بالعبور لغير الصالحين العادلين).

ثم حدث تطور أخلاقى فى موقف امرأة العزيز ونسوة المدينة بعد أن لبث يوسف فى السجن بضع سنين ، مرجعه فى الحقيقة إلى صحوة فى الضمير وليس من إشارة فى القرآن تنبىء عن وقوع ضغط سياسى من الملك عليهن كى يعترفن ببراءة يوسف، لقد أراد الملك أن يصل للحقيقة وجاءه الاعتراف واضحاً وصريحاً يعكس الندم وتأنيب الضمير.

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾.

الحياة الاقتصادية :

فى القرآن الكريم إشارات متفرقة ولكن غنية عن تفصيلات الحياة الاقتصادية فى مصر القديمة ، فالزراعة فى مصر قديمة قدم الوجود الإنسانى على هذا الكوكب وتتأثر هذه الزراعة ، ولا تزال، بكمية المياه المتاحة من الفيضان.

وحين رأى الملك الهكسوسى رؤياه كان تعبير يوسف عنها أنه : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ

شدادٌ يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون ﴿٤٨﴾ ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴿٤٩﴾ ﴾.

وانتهى الأمر بأن أسند الملك ليوسف شئون الإشراف على الزراعة والتموين فى مصر.

﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴿٥٥﴾ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء .. ﴿٥٦﴾ ﴾.

والمفهوم من الآيات أن تقام مخازن ضخمة تستوعب إيراد مصر من القمح والشعير والأرز خلال سبع سنوات يتم فيها تخزين السنابل لكى تحفظ الحبوب داخلها من احتمالات التسوس والفساد ويستلزم ذلك إشرافاً كاملاً دقيقاً على جميع المحاصيل من كل مكان وعلى نقلها إلى صوامع التخزين، وقد كانت تلك الصوامع مثل أقماع السكر كما يذكر مؤرخو الحضارة المصرية القديمة.

ويستلزم ذلك - أيضاً - عمالة ضخمة وإرادة متكاملة فى التجميع والتخزين ثم فى أمور البيع والتسويق ، ثم فى تقدير الوارد والمنصرف، والاحتياجات الفعلية والاحتياطى والإنتاج المستهدف والاستهلاك اليومى والشهرى والسنوى، والمنتظر أن يتم تسجيل ذلك كله فى حسابات وخطط وبرامج طيلة زمن يقدر بأربعة عشر عاماً.

ويتم بذلك عبور هذه السنوات الخطيرة حين يضطر المصريون إلى الاقتصاد من سنوات الرخاء السبع الأولى، ثم يأتى عام بعد سنوات المجاعة يهل فيه الخير ويأكلون ويعصرون المشروبات ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون.

وإشارات أخرى عن التجارة وردت فى قصة يوسف عليه السلام فالبيع والشراء كان بالنقد بالدراهم وكان بتبادل البضاعة ببضاعة أخرى.

ويوسف عليه السلام نفسه حين ألقى فى الجب وعثرت عليه القافلة باعوه بدراهم معدودة، وكان الذى اشتراه من مصر ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴿٢٠﴾ ﴾ وواضح أنه لم تكن هناك تسعيرة بدليل أن صبيا فى مثل جمال يوسف بيع بثمن بخس لأن القافلة كانت فيه من الزاهدين أي ترغب فى التخلص منه بأى طريقة.

وحين كان يأتى أخوة يوسف كانوا يحضرون معهم بضائع يبادلونها بالحبوب، وكلمة بضاعة لم ترد فى القرآن إلا فى سورة يوسف.

ومنها نفهم أن البضائع كانت تباع وتشترى بالنقد وذلك فى حالة يوسف السابقة حين كان بضاعة فى نظر الذى عثر عليه فى الجب ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ... (١٩) ﴾ .. ثم كانت البضائع ثمناً للحبوب بطريق التبادل.

وحتى يجعل يوسف أخوته يعودون أوعز إلى عماله : ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) ﴾.

وفيما بعد : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا .. (٦٥) ﴾.

ونفهم أن الحبوب كانت تكال بالكيل، وكانت أدوات الكيل هى السقاية والصواع، وأن المعروف أن المشترى يستسمح فى أن يوفى له البائع الكيل.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ... (٨٨) ﴾.

وحين خطط يوسف لاحتجاز أخيه الشقيق عول على اتهامه بالسرقة.

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) ﴾.

ويبدو أن وحدة البيع والشراء فى عهد يوسف كانت حمولة البعير، وأنها كانت النصاب المسموح به لكل فرد يقدم للتزود من الحبوب، أي أن نظام البيع بالبطاقة التموينية بدأ به يوسف عليه السلام فى الزمن السحيق.

ودليلنا أن أخوة يوسف عليه السلام رجواً أباهم أن يسمح لهم بأن يبعث معهم بأخيهم شقيق يوسف – حتى يزدادوا بوجوده كيل بعير.

﴿ .. قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ .. (٦٥) ﴾.

وقد تكرر مجيء أخوة يوسف طلباً للمؤونة مما يدل على أن المجاعة لم تؤثر على مصر وقتها فقط وإنما أثرت على الأقطار المجاورة التى تعيش على التبادل التجارى مع مصر، وعلى الحدود الشرقية أقيمت قرى فيها الفنادق لراحة التجار والمشترين.

وكانت تلك القرى المصرية تحت الإشراف المباشر ليوسف عليه السلام وقد قال لأخوته يستميلهم: ﴿ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) ﴾.

أي أنه استمالهم بالكيل الوافى وأنزلهم فى منزل مريح.

وحين اتهمهم بالسرقة - وأثبت التهمة على أخيه الشقيق قال أخوهم الأكبر لأخوته: ﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾.

فالقوافل كانت تتوقف عند القرى التى على الحدود وهناك يقيمون فيها ويحدث التعارف وتنتشر الأخبار، ولذلك طلب أبناء يعقوب منه أنه يذهب بنفسه إلى تلك القرية المصرية التى كانوا ينزلون فيها ويستوثق من أهلها أن أبناءه صادقون فيما يخبرونه به عن اتهام أخيهم بالسرقة.

التفسير التحليلى لسورة يوسف عليه السلام

وعرض لقضايا فقهية وفكرية
وأخلاقية واجتماعية واقتصادية
وتوجيهية من خلال آيات السور الكريمة



سورة يوسف عليه السلام

هى مكية كلها . وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها ، وروى أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف عليه السلام فنزلت السورة، وقال سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فقالوا : لو قصصت علينا ، فنزل: ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص .. ﴿٣﴾ ﴾ فتلاه عليهم زماننا فقالوا : لو حدثتنا فأنزل : ﴿ الله نزل أحسن الحديث .. ﴿٢٣﴾ ﴾[الزمر] ، قال العلماء : وذكر الله أقاصيص الأنبياء فى القرآن ، وكررها بمعنى واحد فى وجوه مختلفة بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها فى سور أخرى؛ إشارة إلى تمييز هذه القصة الشريفة.

قوله تعالى: ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين ﴿١﴾ ﴾[1].

قوله تعالى : « الر » والتقدير هنا : تلك آيات الكتاب، على الابتداء والخبر، وقيل: « آلر » اسم السورة أى هذه السورة (المسماة) ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين ﴾ يعنى القرآن المبين، أى المبين حلاله وحرامه، وحدوده ، وأحكامه، وهداه، وبركته ، وقيل: أى هذه تلك الآيات التى كنتم تدعون بها فى التوراة.

قوله تعالى: ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾[يوسف] [2].

قوله تعالى: ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا .. ﴿٢﴾ ﴾[يوسف][3] يجوز أن يكون المعنى: إنا أنزلنا القرآن عربياً، نصب ﴿ قرآنا ﴾ على الحال أى مجموعاً، و﴿ عربيا ﴾ نعت لقوله قرآنا ، ويجوز أن يكون توطئة للحال، كما تقول: مررت بزيد رجلاً صالحاً، و﴿ عربيا ﴾ على الحال، أى يقرأ بلغتكم يا معشر العرب ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أى لكى تعلموا معانيه، وتفهموا ما فيه.

---

(١) المبين : الواضح الذى لا لبس فيه.
(٢) قضية عروبة النص القرآنى.
(٣) نقص عليك : فحدثك أو نبين لك يا محمد.

وقيل: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى لتكونوا على رجاء من تدبره ، فيعود معنى الشك إليهم لا إلى الكتاب، ولا إلى الله عز وجل، وقيل: ﴿ أَنزَلْنَاهُ ﴾ أى أنزلنا خبر يوسف ، قال النحاس: وهذا أشبه بالمعنى لأنه يروى أن اليهود قالوا: سلوه ثم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن خبر يوسف، فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقاً لما فى التوراة، وفيه زيادة ليست عندهم ، فكان هذا للنبى ﷺ إذ أخبرهم ولم يكن يقرأ كتاب ولا هو فى موضع كتاب - بمنزلة إحياء عيسى ابن مريم عليه السلام الميت.

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ ابتداء وخبر ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ بمعنى المصدر، والتقدير : قصصنا أحسن القصص، وأصل القصص تتبع الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ .. (١١) ﴾[القصص] .. أي تتبعي أثره، فالقاص تتبع الآثار فيخبر بها، والحسن يعود إلى القصص لا إلى القصة ، يقال: فلان حسن الاقتصاص للحديث أي جيد السياقة له، وقيل: القصص له مصدرا، بل هو فى معنى الإسم، كما يقال: الله رجاؤنا، أى مرجونا، فالمعنى على هذا : نحن نخبرك بأحسن الأخبار ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي: بوحينا إليك ﴿ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ نصب القرآن على أنه نعت لهذا ، أو بدل منه، أو عطف بيان ، ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أى : من الغافلين عما عرفناك.

مسألة : واختلف العلماء لم سميت هذه السورة أحسن القصص[1] من بين سائر الأقاصيص؟ فقيل : لأنه ليست قصة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة، وبيانه قوله فى آخرها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ .. (١١١) ﴾.

وقيل : سماها أحسن القصص بحسن مجاوزة يوسف عن أخوته ، وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم - بعد التقائهم - عن ذكر ما تعاطوه ، وكرمه فى العفو عنهم، حتى قال: ﴿ .. لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ .. (٩٢) ﴾ ، وقيل: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين، والجن والإنس والأنعام والطير، وسير الملوك والممالك ، والتجار والعلماء، والجهال، والرجال والنساء وحيلهم، ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجمل الفوائد والتى تصلح للدين والدنيا،

(١) قضية القصة القرآنية.

وقيل: لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسؤهما ، وقيل: «أحسن» هنا بمعنى أعجب، وقال بعض أهل المعانى إنما كانت أحسن القصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة، انظر إلى يوسف وأبيه وأخوته، وامرأة العزيز، قيل: وللملك أيضاً أسلم بيوسف وحسن إسلامه ، ومستعبر الرؤيا الساقى، والشاهد فيما يقال، فما كان أمر الجميع إلا إلى الخير.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ ﴿إِذْ﴾ فى موضع نصب على الظرف، أي اذكر لهم حين قال يوسف، وقراءة العامة بضم السين ، وقراءة طلحة بن معرف «يوسف» بالهمزة وكسر السين، وحكى أبو زيد «يوسف» بالهمزة وفتح السين. ولم ينصب لأنه أعجمى، وقيل : هو عربى وسئل أبو الحسن الأقطع - وكان حكيما - عن «يوسف» فقال: الأسف فى اللغة الحزن، والأسيف العبد وقد اجتمعا فى يوسف، فلذلك سمى «يوسف» . «لأبيه يا أبت» بكسر التاء قراءة أبى عمرو وعاصم ونافع وحمزة والكسائى ، وهى عند البصريين علامة التأنيث أدخلت على الأب فى النداء خاصة بدلاً من ياء الإضافة ، «يا أبت» بضم التاء ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ ليس بين النحويين اختلاف أنه يقال: جائنى أحد عشر، ورأيت ومررت بأحد عشر وكذلك ثلاثة عشر وتسعة عشر وما بينهما ، جعلوا الاسمين اسما واحدا وأعربوهما بأخف الحركات. قال السهيلى: أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مسنداً، رواه الحارق بن أبى أسامة قال: جاء بستانة - وهو رجل من أهل الكتاب - فسأل النبى ﷺ عن الأحد عشر كوكبا الذى رأى يوسف : فقال: الحرثان والطارق والذيال وقايس والمصبح والضروح وذو الكنفات وذو القرع والفليق ووثاب والعمودان ، رآها يوسف ... تسجد له، قال ابن عباس وقتادة الكواكب أخوته ، والشمس أمه، والقمر أبوه وقال قتادة أيضاً: الشمس خالته، لأن أمه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت أبيه «رأيتهم» توكيد، وقال: رأيتهم لى ساجدين «فجاء مذكرا، فالقول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنهما كما يخبر عمن يعقل. وقد تقدم هذا المعنى فى قوله : ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته، وإن كان خارجاً عن الأصل.

قوله تعالى :﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾[يوسف].

فيه إحدى عشر مسألة :

الأولى : قوله تعالى ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي : يحتالون فى هلاكك، لأن تأويلها ظاهر، فربما يحلهم الشيطان على قصدك بسوء حينئذ.

واللام فى «لك» تأكيد، كقوله: ﴿ .. إن كُنتُمْ للرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾[يوسف].

الثانية : الرؤيا حالة شريفة[1] ، ومنزلة رفيعة، قال ﷺ «لم يبق بعدى من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو ترى له» وقال :«أصدقكم رؤيا أصدقكم حديث وحكى ﷺ بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وروى من سبعين جزءاً من حديث ابن عباس رضى الله عنهما جزء من أربعين جزءاً من النبوة » ومن حديث ابن عمر «جزء من تسعة وأربعين جزءاً» ومن حديث العباس «جزء من خمسين جزءا من النبوة» ومن حديث أنس «من ستة وعشرين» وعن عبادة بن الصامت «من أربعة وأربعين من النبوة» والصحيح منها حديث الستة والأربعين، ويتلوه فى الصحة حديث السبعين، ولم يخرج مسلم فى صحيحه غير هذين الحديثين، وأما سائرها فمن أحاديث الشيوخ ، قاله ابن بطال. قال أبو عبدالله المازرى: والأكثر الأصح عند أهل الحديث (من ستة وأربعين) .
قال الطبرى: والصواب أن يقال إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول، فأما قوله : (إنها جزء من سبعين جزء من سبعين جزءاً من النبوة) فإن ذلك قول عام فى كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل مسلم رآها فى منامه على أى أحواله كان، وأما قوله: (إنها من أربعين – أو ستة وأربعين) فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التى ذكرت عن الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان بها فمن كان من أهل إسباغ الوضوء فى السيرات، والصبر فى الله على المكروهات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فرؤياه الصالحة، إن شاء الله، جزء من أربعين جزءاً من النبوة، ومن كانت حاله فى ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقة بين الجزئين ، ما بين الأربعين إلى الستين، لا تنقص عن سبعين، وتزيد على الأربعين، وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بن عبد البر فقال: اختلاف الآثار فى هذا الباب فى عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندى اختلاف تضاد وتدافع – والله أعلم – لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض ما يراها على حسب ما يكون فى صدق الحديث، وأداء الأمانة والدين المتين، وحسن اليقين، فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء

(١) قضية الرؤيا.

المختلفة العدد، فمن خلصت نيته فى عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوة أقرب، كما أن الأنبياء يتفاضلون، قال الله تعالى: ﴿ .. وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ﴿٥٥﴾ ﴾[الإسراء].

قيل : فهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث ، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض وطرحه، ذكر أبو سعيد الأسفاقسى عن بعض أهل العلم قال: معنى قوله : (جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) فإن الله تعالى أوحى إلى محمد ﷺ فى النبوة ثلاث وعشرين عاماً، فيما رواه عكرمة وعمرو بن دينار عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فإذا نسبنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين عاما وجدنا ذلك جزءاً من ستة وأربعين جزءاً، وإلى هذا القول أشار المزرى فى كتابه (المعلم) واختاره القونوى فى تفسيره من سورة (يس) عند قوله تعالى: «لهم البشرى» وهو فاسد من وجهين: أحدهما - ما رواه أبو سلمة عن ابن عباس وعائشة أن مدة الوحى كانت عشرين سنة، وأن النبى ﷺ بعث على رأس أربعين، فأقام بمكة عشر سنين وهو قول عروة والشعبى وابن شهاب والحسن وعطاء الخراسانى وسعيد بن المسيب على اختلاف عنه ، وهى رواية ربيعة وأبى غالب عن أنس، وإذا ثبت هذا الحديث بطل ذلك التأويل : الثانى - أن سائر الأحاديث فى الأجزاء المختلفة تبقى بغير معنى.

الثالثة : إنما كانت الرؤيا جزءاً من النبوة ، لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران وقلب الأعيان، والاطلاع على شىء من علم الغيب، كما قال ﷺ (إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصادقة فى النوم) الحديث، وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله، وأنها من النبوة ، قال ﷺ : الرؤيا من الله والحلم من الشيطان، وأن التصديق بها حق ، وفيها من بديع الله ولطفه ما يزيد المؤمن فى إيمانه، ولا خلاف فى هذا بين أهل الدين والحق من أهل الرأى والأثر، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشرذمة من المعتزلة.

الرابعة : إن قيل لك إذا كان الرؤيا الصادقة جزءاً من النبوة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخلط أهلا لها، وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة ، كمنام رؤيا الملك الذى رأى سبع بقرات، ومنام الفتيين فى السجن، ورؤيا بختنصر، الذى فسرها دانيال فى ذهاب ملكه، ورؤيا كسرى فى ظهور النبى ﷺ ، ومنام عاتكة، عمة رسول الله ﷺ فى أمره وهى كافرة، وقد ترجم البخارى (باب رؤيا أهل السجن)؟ فالجواب . إن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم فى بعض الأوقات لا تكون من الوحى ولا من النبوة ، إذ ليس كل من صدق فى حديث عن غيب

يكون خبرة ذلك نبوة، وقد تقدم فى (الأنعام) أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق، لكن ذلك على الندور والقلة، فكذلك رؤيا هؤلاء، قال المهلب: إنما ترجم البخارى بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءاً من النبوة.

الخامسة : الرؤيا المضافة إلى الله هى التى خلصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلها موافقاً لما فى اللوح المحفوظ والتى هى من خير الأضغاث هى الحلم، وهى المضافة إلى الشيطان وإنما سميت ضغثا ، لأن فيها أشياء متضادة ، قال معناه المهلب وقد قسم رسول الله ﷺ الرؤيا أقساماً تغنى عن قول كل قائل، روى عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: « الرؤيا ثلاثة منها أهاويل الشيطان ليحزن ابن آدم ومنها ما يهتم به فى يقظته فيراه فى منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » قال: قلت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم سمعته من رسول الله ﷺ .

السادسة : قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ . . ﴾ الآية.

الرؤيا مصدر رأى فى المنام رؤيا على وزن فعلى، وقد اختلف العلماء فى حقيقة الرؤيا، فقيل: هى إدراك فى أجزاء لم تحلها آفة، كالنوم وغيره، ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا فى آخر الليل لقلة غلبة النوم، فيخلق الله تعالى للرائى علما ناشئاً ، ويخلف له الذى يراه على ما يراه ليصح الإدراك، قال ابن العربى: ولا يرى فى المنام إلا كما يصح إدراكه فى اليقظة، ولذلك لا يرى فى المنام شخصاً قائماً قاعداً بحال، وإنما يرى الجائزات المعتادات. وقيل: إن لله ملكاً يعرض المرئيات على المحل المدرك من النائم، فيمثل له صوراً محسوسة، فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع فى الوجود وتارة تكون لمعانى معقولة غير محسوسة ، وفى الحالتين تكون مبشرة أو منذرة، قال ﷺ فى صحيح مسلم وغيره: « رأيت سوداء ثائرة الرأس تخرج من المدينة إلى مهيعة فأولتها الحمى، ورأيت سيفى قد انقطع صدره وبقراً ينحر فأولتها رجل من أهل بيتى يقتل والبقر نفر من أصحابى يقتلون، ورأيت أنى أدخل يدى فى ذرع حصينة فأولتها المدينة، ورأيت فى يدى سوارين فأولتهما كذابين يخرجان بعدى » إلى غير ذلك مما ضربت له الأمثال، ومنها ما يظهر معناه أولاً، ومنها ما لا يظهر إلا بعد الفكر، وقد رأى النائم فى زمن يوسف عليه السلام بقرا فأولها يوسف السنين، ورأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر فأولها بأخوته وأبويه.

السابعة : إن قيل: إن يوسف عليه السلام كان صغيراً وقت رؤياه والصغير لا حكم لفعله، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبواه : ﴿ .... لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ .... ﴿٥﴾ ﴾ فالجواب - أن الرؤيا إدراك حقيقة على ما قدمناه ، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقى فى اليقظة ، وإذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبرنا ما يرى فى المنام، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن رؤيا وأنها وجدت كما رأى فلا اعتراض ، روى أن يوسف عليه السلام كان ابن اثنتى عشرة سنة.

الثامنة : هذه الآية أصل فى ألا تقص الرؤيا على غير شقيق ولا ناصح ولا على من لا يحسن التأويل فيها، وروى أبو رزين العقيلى أن النبى ﷺ قال:« الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة والرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها، فإذا حدث بها وقعت فلا تحدثوا بها إلا عاقلاً أو محباً أو ناصحاً» [أخرجه الترمذى] وقال فيه : حديث حسن صحيح، وأبو رزين اسمه لقيط بن عامر . وقيل لمالك : أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأي خيراً أخبر به، وإن رأى مكروهاً فليقل خيراً أو ليصمت، قيل: فهل يعبرها على الخير وهى عنده على المكروه لقوله من قال إنها على ما تأولت عليه؟ فقال: لا . ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة.

التاسعة : وفى هذه الآية دليل على أنه مباحاً أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلاً فى معنى الغيبة ، لأن يعقوب عليه السلام قد حذر يوسف عليه السلام أن يقص رؤياه على أخوته فيكيدوا له كيدا ، وفيها أيضاً ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى عائلته حسدا وكيدا ، قال النبى ﷺ «استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود» وفيها أيضاً دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه فإن الرجل يرد أن يكون ولده خيرا منه، والأخ لا يعود ذلك لأخيه ويدل أيضاً على أن يعقوب عليه السلام كان أحس من بنيه حسد يوسف وبغضه ، فنهاه عن قص الرؤيا عليهم خوفا أن تغل بذلك صدورهم فيعملوا الحيلة فى هلاكه، ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدل على أنهم كانوا غير أنبياء فى ذلك الوقت ، ووقع فى كتاب الطبرى لابن زيد أنهم كانوا أنبياء وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوى، وعن تفوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك، والتآمر فى قتله ولا التفات لقول أنهم كانوا أنبياء ولا يستحيل فى العقل زلة نبى إلا أن هذه الزلة قد

جمعت أنواعاً من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا فى الصغائر على ما تقدم ويأتى.

العاشرة: روى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسو ل الله ﷺ يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا: وما المبشرات ؟ قال:« الرؤيا الصالحة» وهذا الحديث بظاهره يدل على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك، فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لا تسر رائيها وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقاً به ورحمة ، ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه، فإن أدرك تأولها بنفسه ، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك. وقد رأى الشافعى رضي الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حنبل تدل على محنته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك.

الحادية عشر: روى البخارى عن أبى سلمة قال: لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضنى حتى سمعت أبى قتادة يقول : وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضنى حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب ، وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها ثلاث مرات ، ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره» قال علماؤنا : فجعل الله الاستعاذة منها مما يرفع آذاها ، ألا ترى قول أبى قتادة: إنى كنت لأرى الرؤيا هى أثقل علىّ من جبل أحد، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئاً ، وزاد مسلم من رواية جابر عن رسول الله ﷺ قال: « وإذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً وليتعوذ بالله من الشيطان ثلاثا وليتحول عن جنبه الذى كان عليه» . وفى حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل» قال علماؤنا : وهذا كله ليس بمتعارض، وإنما هذا الأمر بالتحول، والصلاة زيادة، فعلى الرائد أنى فعل الجميع، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع، لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور، إذا قام إلى الصلاة تحول عن جنبه وإذا تمضمض تفل وبصق ، وإذا قام إلى الصلاة تعوذ ودعا وتضرع لله تعالى فى أن يكفيه شرها فى حال هى أقرب الأحوال إلى الإجابة وذلك السحر من الليل.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ من تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾(١).

(١) يجتبيك : يصطفيك لأمر عظام .. تأويل الأحاديث : تعبير الرؤيا وتفسيرها.

قوله تعالى : {وكذلك} أي كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك ، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا ، قال مقاتل: بالسجود لك، الحسن بالنبوة، والاجتباء اختيار معالى الأمور للمجتبى، وأصله من جبيت الشيء أي حصلته، ومنه جبيت الماء فى الحوض، قاله النحاس، وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف ﷺ وتعديد فيما عدده عليه من النعم التى أتاه الله تعالى ، من التمكين فى الأرض، وتعليم تأويل الأحاديث، وأجمعوا أن ذلك فى تأويل الرؤيا ، قال عبدالله بن شداد بن الهاد : كان تفسير رؤيا يوسف ﷺ بعد أربعين سنة، وذلك منتهى الرؤيا ، وعنى بالأحاديث ما يراه الناس فى المنام.

وهى معجزة له ، فإنه لم يلحقه فيها خطأ ، وكان يوسف ﷺ أعلم الناس بتأويلها ، وكان نبينا ﷺنحو ذلك، وكان الصديق رضي الله عنه من أعبر الناس لها ، وحصل لابن سيرين فيها التقدم العظيم، والطبع والإحسان ، ونحوه أو قريب منه كان سعيد بن المسيب فيما ذكروا ، وقد قيل فى تأويل قوله: ﴿ويُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أي أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد ، فهو إشارة إلى النبوة، وهو المقصود بقوله ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أيببالنبوة، وقيل: بإخراج اخوتك إليك، وقيل: بإنجائك من كل مكروه ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ ..﴾ بالخلة، وإنجائه من النار، «واسحاق» بالنبوة ، وقيل: من الذبح، قال عكرمة: وأعلمه الله تعالى بقوله : ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ أنه سيعطى بنى يعقوب كلهم بالنبوة ، قاله جماعة من المفسرين، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ..﴾ بما يعطيك ﴿حَكِيمٌ﴾ فى فعله بك.

قوله تعالى﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾﴾[1] .

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾﴾ يعنى من سأل عن حديثهم، وقرأ أهل مكة «آية» على التوحيد، واختار أبو عبيد «آيات» على الجمع ، قال: لأنها خير كثير، قال النحاس : و«آية» هنا قراءة حسنة ، أي لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسف آية فيما خبروا به، لأنهم سألوا النبى ﷺ وهو بمكة فقالوا: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر ، فبكى عليه حتى عمى؟ ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب، ولا من يعرف خبر الأنبياء، وإنما وجد اليهود من المدينة يسألونه عن هذا -

(١) اطرحوه أرضاً : ألقوه فى أرض بعيدة عن أبيه.

فأنزل الله تعالى سورة «يوسف» جملة واحدة، فيها كل ما فى التوراة من خبر وزيادة ، فكان ذلك آية للنبى ﷺ بمنزلة إحياء عيسى ابن مريم عليه السلام الميت، و«آيات» موعظة، وقيل: عجب ، تقول فلان آية فى العلم والحسن أى عجب، قال الثعلبى فى تفسيره : لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه، قال ابن زيد: كانوا أنبياء، وقالوا: ما يرضى أن يسجد له أخوته حتى يسجد له أبوه! فبغوه بالعداوة وقد تقدم رد هذا القول ، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ وأسماؤهم : روبيل وهو أكبرهم، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا، وزبالون، ويساخر، وأمهم ليا بنت ليان، وهى بنت خال يعقوب ووالد له من سريتين أربعة نفر، دان ، ونفتالى وجاد وآثار، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين ، فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلا، قال السهيلى: وأم يعقوب اسمها رفقا ، وراحيل ماتت فى نفاس بنيامين، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب، وقيل: فى اسم الأمتين ليا وتلتا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا، وكانتا قد وهبتاهما ليعقوب، وكان يعقوب قد جمع بينهما، ولم يحل لأحد بعده، لقول الله تعالى: ﴿.. وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ .. ﴿٢٣﴾﴾[النساء] وقد تقدم الرد على ما قاله ابن زيد، والحمد لله.

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى:﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ﴾ رفع بالابتداء ، واللام للتأكيد ، وهى التى يتلقى بها القسم، أي والله ليوسف ﴿وَأَخُوهُ﴾ عطف عليه، ﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾ خبره، ولا يثنى ولايجمع لأنه بمعنى الفعل، وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم فتآمروا فى كيده ، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي جماعة، وكانوا عشرة، والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة ، وقيل: إلى الخمسة عشر، وقيل: ما بين الأربعين إلى العشرة، ولا واحد لها من لفظها كالنفر والرهط ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ لم يريدوا ضلال الدين، إذا لو أرادوه لكانوا كفارا، بل أرادوا لفى ذهاب عن وجه التدبير، فى إيثار اثنين على عشرة مع استوائهم فى الانتساب إليه، وقيل: لفى خطأ بيّن بإيثاره يوسف وأخاه علينا.

قوله تعالى:﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فى الكلام حذف، أي قال قائل منهم : ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ ليكون أحسم لمادة الأمر، ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: فى أرض، فأسقط الخافض

وانتصب الأرض، وأنشد سيبويه فيما حذف منه «فى» لدن بهز الكف يعمل متنه، فيه كما عس الطريق الثعلب.

﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى : من بعد الذنب وقيل: من بعد يوسف ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ أي تائبين، أي تحدثوا توبة بعد ذلك فيقبلها الله منكم، وفى هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة، لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم. وقيل: «صالحين» أي يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل.

قوله تعالى﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝ ﴾[1].

فيه عدة أمور مهمة :

الأولى : قوله تعالى ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ القائل هو يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب، قاله ابن عباس ، وقيل: روبيل، وهو ابن خالته، وهو الذى قال: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ ﴾ وقيل: شمعون، ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة (فى غيابة الجب) وقرأ أهل المدينة (فى غيابات الجب) واختار أبو عبيد التوحيد، لأنه على موضع واحد ألقوه فيه، وأنكر الجمع لهذا قال النحاس: وهذا تضييق فى اللغة، (وغيابات) على الجمع جائز.

قال الهروى : والغيابة شبه لجف أو طاق فى البئر فويق الماء ، يغيب الشيء عن العين، وقال ابن عزيز: كل شيئاً غيب عنك شيئاً فهو غيابة، قلت: ومنه قيل للقبر غيابة، قال الشاعر:

فإن أنـــا يومـــاً غيبتنى غيابتى فسيروا بسيرى فى العشيرة والأهل

والجب الركية التى لم تطو ، فإذا طويت فهى بئر ، قال الأعشى:

لئن كنت فى جب ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم

وسميت جبا لأنها قطعت فى الأرض قطعاً، وجمع الجب جبية وجباب وأجباب، وجمع بنى الغيابة والجب لأنه أراد ألقوه فى موضع مظلم من الجب حتى لا يلحقه نظر الناظرين، قيل: هو بئر فى بيت المقدس، وقيل : هو بالأردن، قاله وهب بن منبه، وقال مقاتل: هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب.

---

(١) غيابة الجب : ما غاب وأظلم من قعر البئر - السيارة : المسافرين.

الثانية : قوله تعالى : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾[1]. جزم على جواب الأمر، وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة : (تلتقطه) بالتاء، وهذا محمول على المعنى، لأن بعض السيارة سيارة، والسيارة الجمع الذى يسيرون فى الطريق للسفر، وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاج إلى حمله إلى موضع بعيد، وكان هذا وجهاً فى التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم ، فربما لا يأذن لهم أبوهم، وربما يطلع على قصدهم.

الثالثة : وفى هذا ما يدل على أن أخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أولا ولا آخرا، لأن الأنبياء لا يدبرون فى قتل مسلم، بل كانوا مسلمين، فارتكبوا معصية ثم تابوا، وقيل: كانوا أنبياء ، ولا يستحيل فى العقل زلة نبى، فكانت هذه زلة منهم ، وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدمناه ، وقيل: ما كانوا فى ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم اللّه ، وهذا أشبه، والله أعلم.

الرابعة : قال ابن وهب قال مالك : طرح يوسف فى الجب وهو غـلام ، وكذلك روى ابن القاسم عنه، يعنى أنه كان صغيراً ، والدليل عليه قوله ﴿ .. لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. ۝١٠ ﴾ قال: ولا يلتقط إلا الصغير، وقوله: ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وذلك يختص بالصغار، وقولهم ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝١٢ ﴾[2].

الخامسة: الالتقاط وتناول الشيء من الطريق، ومنه اللقيط واللقطة، ونحن نذكر من أحكامه ما دلت عليه الآية والسنة، وما قاله فى ذلك أهل العلم واللغة، قال ابن عرفة : الالتقاط وجود الشيء على غير طلب، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ أي يجده من غير أن يحتسبه، وقد اختلف العلماء فى اللقيط، فقيل: أصله الحرية لغلبة الأحرار على العبيد، وروى عن الحسن بن على أنه قضى بأن اللقيط حر وتلا ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾.

قال ابن العربى: إنما كان أصل اللقيط الحرية لغلبة الأحرار على العبيد، فقضى بالغالب، كما حكم أنه مسلم أخذا بالغالب فإن كان فى قرية فيها نصارى ومسلمون قال ابن القاسم: يحكم بالأغلب، فإن وجد عليه زى اليهود فهو يهودى، وإن وجد عليه زى

---

(١) قضية اللقطة واللغيط (٤).

(٢) يرتع : تسع فى أكل ما لذ وطاب - يلعب : يسابق ويرمى بالسهام.

النصارى فهو نصرانى ، وإلا فهو مسلم، إلا أن يكون أكثر أهل القرية على غير الإسلام، وقال غيره: لو لم يكن فيها إلا مسلم واحد قضى للقيط بالإسلام تغلباً لحكم الإسلام الذى يعلو ولا يعلى عليه، وهو مقتضى قول أشهب، قال أشهب، هو مسلم أبداً، لأنى أجعله مسلماً على كل حال ، كما أجعله حراً على كل حال.

واختلف العلماء فى النفقة على الضوال، فقال مالك فيما ذكر عنه ابن القاسم : إن أنفق الملتقط على الدواب والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة، وسواء أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره. وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللقطة والإبل بغير أمر القاضى فهو متطوع وإن أنفق بأمر القاضى فذلك دين على صاحبها إذا جاء، وله أن يحبسها إذا حضر صاحبها والنفقة عليها ثلاثة أيام ونحوها ، حتى يأمر القاضى ببيع الشاة وما أشبهها ويقضى بالنفقة.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ قيل : للحسن: أيحسد المؤمن؟ قال : ما أنساك ببنى يعقوب ! ولهذا قيل: الأب جلاب والأخ سلام، فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بضرب من الاحتمال ، وقالوا ليعقوب: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ ، وقيل: لما تفاوضوا وافترقوا على رأى المتكلم الثانى عادوا إلى يعقوب عليه السلام وقالوا هذا القول رفيع دليل على أنهم سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتى ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ أى فى حفظه وغفلته حتى نرده إليك قال مقاتل: فى الكلام تقديم وتأخير، وذلك أن إخوة يوسف قالوا لأبيهم : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا ﴾ الآية، فيحنئذ قال أبوهم: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ .. ﴾ ، فقالـوا حينئذ جواباً لقولـه : ﴿ مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ .. ﴾ الآية، أرسله معنا غداً، إلى الصحراء، ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ ﴿ غَدًا ﴾ ، ظرف، والأصل عند سيبويه غدو، وقد نطق به على الأصل.

قال النضر بن شميل : ما بين الفجر وصلاة الصبح يقال له غدوة، وكذا بكرة، «نرتع ونلعب» بالنون وإسكان العين قراءة أهل البصرة والمعروف من قراءة أهل مكة «نرفع» بالنون وكسر العين. وقراءة أهل الكوفة «يرتع ويلعب» بالياء وإسكان العين المدينة بالياء وكسر العين و«يرتع» بكسر العين من رعى الغنم، أي ليتدرب بذلك ويترجل، فمرة يرتع، ومرة يلعب لصغره، وقال القتبى: «نرتع» نتحارس ونتحافظ، ويرعى بعضنا بعضاً، من

قولك: رعاك الله، أي حفظك «وتلعب» من اللعب، وقيل لأبى عمرو بن العلاء: كيف قالوا «ونلعب» وهم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء، وقيل: المراد باللعب المباح من الانبساط ، لا اللعب المحظور الذى هو ضد الحق، ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم «ونلعب» ومنه قوله ﷺ (فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك) وقرأ مجاهد وقتادة : «يرتع» على معنى يرتفع مطيته، فحذف المفعول «ويلعب» بالرفع على الاستئناف ، والمعنى : وهو ممن يلعب، ﴿وإنا له لناصحون﴾ من كل ما تخاف عليه.. ثم يحتمل أنهم كانوا يخرجون ركبانا ، ويحتمل أنهم كانوا رجالة، وقد نقل أنهم حملوا يوسف على أكتافهم ما دام يعقوب يراهم، ثم لما غابوا عن عينه طرحوه ليعدو معهم إضراراً به.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ فى موضع رفع ، أي ذهابكم به، أخبر عن حزنه لغيبته ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ وذلك أنه رأى فى منامه أن الذئب شد على يوسف؛ فلذلك خافه عليه، قاله الكلبى: وقيل: إنه رأى فى منامه كأنه على ذروة جبل ، وكأن يوسف فى بطن الوادى، فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته تريد أكله، فدرأ عنه واحد، ثم انشقت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام ، فكانت العشرة إخوته، لما تمالئوا على قتله، والذى دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا ، وتواريه فى الأرض هو مقامه فى الجب ثلاثة أيام، وقيل: إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه، وأنه أرادهم بالذئب ، فخوفه إنما كان من قتلهم له، فكنى عنهم بالذئب مساترة لهم، قال ابن عباس: فسماهم ذئابا، وقيل: ما خافهم عليه، ولو خافهم ما أرسله معهم، وإنما خاف الذئب لأنه أغلب ما يخاف فى الصحارى، والذئب مأخوذ من تذائبت الريح إذا جاءت من كل وجه، كذا قال أحمد بن يحيى، قال: والذئب مهموز لأنه يجىء من كل وجه، وروى ورش عن نافع «الذيب» بغير همز لما كانت الهمزة ساكنة وقبلها كسرة فخففها صارت ياء، ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ آي: مشغولون بالرعى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ .. ﴿١٤﴾﴾ أي جماعة ترى الذئب ثم لا نرده عنه ﴿إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ فى حفظنا أغنامنا أى إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا ، وقيل: ﴿لَّخَاسِرُونَ﴾ لجاهلون بحقه، وقيل لعاجزون.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٥ ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ ﴾ «أن» فى موضع نصب، أي على أن يجعلوه فى غيابة الجب، قيل فى القصة : إن يعقوب ﷺ لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً ليحفظنه ، وسلمه إلى روبيل وقال: يا روبيل أنه صغير، وتعلم يا بنى شفقتى عليه، فإن جاع فاطعمه ، وإن عطش فاسقه ، وإن أعيا فاحمله ثم عجل برده إليَّ. قال: فأخذوا يحملونه على أكتافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر، ويعقوب يشيعهم ميلا ثم رجع، فلما انقطع بصر أبيهم عنهم رماه الذى كان يحمله إلى الأرض حتى كاد ينكسر، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشد مما عند الآخر من الغيظ والعنف، فاستغاث بروبيل وقال: « أنت أكبر أخوتى، والخليفة من بعد والدى علىّ، وأقرب الإخوة إليَّ، فارحمنى وارحم ضعفى، فلطمه لطمة شديدة وقال: لا قرابة بينى وبينك، فادع الأحد عشر كوكباً فلتنجك منا ، فعلم أن حقدهم من أجل رؤياه، فتعلق بأخيه يهوذا وقال: يا أخى ارحم ضعفى وعجزى وحداثة سنى، وارحم قلب أبينا يعقوب، فلما أسرع ما تناسيتم وصيته ونقضتم عهده، فرق قلب يهوذا فقال: والله لا يصلون إليك أبداً ما دمت حياً، ثم قال: يا أخوتاه إن قتل النفس التى حرم الله من أعظم الخطايا ، فردوا هذا الصبى إلى أبيه، ونعاهده ألا يحدث والده بشىء مما جرى أبداً، فقال له إخوته: والله ما تريد إلا أن تكون لك المكانة عند يعقوب، والله لئن لم تدعه لنقتلك معه، قال: فإن أبيتم إلا ذلك فها هنا هذا الجب الموحش القفر، الذى هو مأوى الحيات والهوام فألقوه فيه، فإن أصيب بشىء من ذلك فهو المراد ، وقد استرحتم من دمه، وإن انفلت على أيدى سيارة يذهبون به إلى أرض فهو المراد ، فأجمعوا رأيهم على ذلك، فهو قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ وجواب «لما» محذوف ، أي فلما ذهبوا به وأجمعوا على طرحه فى الجب عظمت فتنتهم، وقيل: جواب «لما» قولهم: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ . وقيل التقدير: فلما ذهبوا به من عند أبيهم وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب جعلوه فيها . قال الله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ «أي فتحت» ، وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾[هود] أي فار.

---

(١) أجمعوا : عزموا وصمموا.

وفي قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ دليل على نبوته في ذلك الوقت. قال الحسن ومجاهد والضحاك وقتادة : أعطاه الله النبوة وهو في الجب على حجر مرتفع عن الماء. وقال الكلبي: ألقي في الجب وهو ابن ثماني عشر سنة، لما كان صغيرا ، ومن قال كان صغيرا فلا يبعد في العقل أن يتنبأ الصغير ويوحي إليه. وقيل: كان وحي إلهام كقوله: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ .. ﴿٦٨﴾ ﴾[النحل] ، وقيل: كان مناماً، والأول أظهر - والله أعلم - وأن جبريل جاءه بالوحي.

قوله تعالى: ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا ﴾[1] . فيه وجهان : أحدهما - أنه أوحي إليه أنه سيلقاهم ويوبخهم على ما صنعوا ، فعلى هذا يكون الوحي بعد إلقائه في الجب تقوية لقلبه، وتبشيراً له بالسلامة . الثاني : أنه أوحي إليه بالذي يصنعون به، فعلى هذا الوحي قبل إلقائه في الجب إنذاراً له ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ إنك يوسف ، وذلك أن الله تعالى أمره لما أفضى إليه الأمر بمصر ألا يخبر أباه وإخوته بمكانه، وقيل: بوحي الله تعالى بالنبوة ، قاله ابن عباس ومجاهد: وقيل: «الهام» ليعقوب، أوحي الله تعالى إليه مافعلوه بيوسف ، وأنه سيعرفهم بأمره، وهم لا يشعرون بما أوحي الله إليه، والله أعلم.. ومما ذكر من قصته إذ ألقي في الجب، ما ذكره السدي وغيره ، أن اخوته لما جعلوا يدلونه في البئر تعلق بشفير البشير، فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا اخوتاه : ردوا على قميصي أتوارى به في هذا الجب ، فإن مت كان كفني وإن عشت أواري به عورتي، فقالوا: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا فلتؤنسك وتكسيك، فقال: إني لم أر شيئاً ، فدلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها القوة إرادة أن يسقط فيموت، فكان في البئر ماء فسبط فيه، ثم آوى إلى صخرة فقام عليها ، وقيل: إن شمعون هو الذي قطع الحبل إرادة أن يتفتت على الصخرة، وكان جبريل تحت ساق العرش، فأوحي الله إليه أن أدرك عبدي، فقال جبريل: فأسرعت وهبطت حتى عارضته بين الرمي والوقوع فأقعدته على الصخرة سالماً، وكان ذلك الجب مأوى الهوام، فقام على الصخرة وجعل يبكي ، فنادوه ، فظن إنها رحمة عليه أدركته، فأجابهم ، فأرادوا أن يرضخوه فمنعهم يهوذا ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام، فلما وقع عريانا نزل جبريل إليه، وكان إبراهيم حين ألقي في النار عريانا أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فكان ذلك عند إبراهيم، ثم ورثه إسحاق، ثم ورثه يعقوب ، فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في تعويذة وجعله في عنقه، فكان لا يفارقه ، فلما ألقي في

(١) قضية فراسة المؤمن (٥).

الجب عريانا أخرج جبريل ذلك القميص فألبسه إياه ، قال وهب: فلما قام على الصخرة قال: يا إخوتاه إن لكل ميت وصية ، فاسمعوا وصيتى قالوا: وما هى؟ قال: إذا اجتمعتم كلكم فآنس بعضكم بعضا فاذكروا وحشتى، ، وإذا أكلتم فاذكروا جوعتى ، وإذا شربتم فاذكروا عطشى، وإذا رأيتم غريباً فاذكروا غربتى، وإذا رأيتم شاباً فاذكروا شبابى، فقال له جبريل: يا يوسف كف عن هذا ، واشتغل بالدعاء فإن الدعاء عند الله بمكان، ثم علمه فقال: قل اللهم يا مؤنس كل غريب، ويا صاحب كل وحيد، ويا ملجأ كل خائف، ويا كاشف كل كربة، ويا عالم كل نجوى، ويا منتهى كل شكوى، يا حاضر كل ملأ، ياحى يا قيوم أسألك أن تقذف رجاءك فى قلبى، حتى لا يكون لى هم ولا شغل غيرك، وأن تجعل لى من أمرى فرجا ومخرجاً، إنك على كل شيء قدير، فقالت الملائكة: إلهنا نسمع صوتاً ودعاء ، الصوت صوت صبى، والدعاء دعاء نبى، وقال الضحاك: نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو فى الجب فقال له : ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن عجل الله لك خروجك من هذا الجب؟ فقال: نعم فقال له : قل يا صانع كل مصنوع ويا جابر كل كسير، ويا شاهد كل نجوى، ويا حاضر كل ملأ، ويا مفرج كل كربة، ويا صاحب كل غريب، ويا مؤنس كل وحيد، آتنى بالفرج والرجاء، واقذف رجاءك فى قلبى حتى لا أرجو أحد سواك، فرددها يوسف فى ليلته مرارا، فأخرجه الله فى صبيحة يومه ذلك من الجب.

قوله تعالى: ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ فيه مسألتان.

الأولى : قوله تعالى ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً ﴾ أي ليلا، وهو ظرف يكون فى موضع الحال، وإنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار فى الظلمة ، ولذا قيل: لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحياء فى العينين، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج فى الاعتذار، فروى أن يعقوب عليه السلام لما سمع بكاءهم قال: ما بكم؟ أجرى فى الغنم شيء؟ قالوا: لا. قال: فأين يوسف؟ قالوا : ذهبنا نستبق فأكله الذئب، فبكى وصاح وقال: أين قميصه؟ على ما يأتى بيانه بعد قليل. وقال السدى وابن حبان: إنه لما قالوا أكله الذئب خر مغشيا عليه، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك ، ونادوه فلم يجب ، قال وهب: ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نفس يعقوب فلم يحس بنفس ، ولم يتحرك له عرق، فقال لهم يهوذا : ويل لنا من ديان يوم الدين، ضيعنا أخانا، وقتلنا أبانا، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السحر، فأفاق ورأسه فى حجر روبيل، فقال: يا روبيل ألم آمنك على ولدى؟ ألم أعهد إليك عهدا؟ فقال:

يا أبت كف عنى بكاءك أخبرك، فكف يعقوب بكاءه فقال: «يا أبت إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب».

الثانية : قال العلماء : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله، لاحتمال أن يكون تصنعاً ، فمن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر، وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى، كما قال الحكيم:

إذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى

قوله تعالى:﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

فى الآية الكريمة عدة مسائل مهمة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿نَسْتَبِقُ﴾[2]نفتعل، من المسابقة. قال القشيرى أبو نصر: نستبق : أي فى الرمى، أو على الفرس، أو على الأقدام، والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العدو، لأن الآلة فى قتال العدو، ودفع الذئب عن الأغنام، وقال السدى وابن حبان: «نستبق» نشتد جريا لنرى أينا أسبق قال ابن العربى: المسابقة شرعة فى الشريعة، وخصلة بديعة ، وعون على الحرب، وقد فعلها ﷺ بنفسه وبخيله. وسابق عائشة رضى الله عنها على قدميه فسبقته ، فلما سمنت سابقها فسبقها ، فقال لها : (هذه بتلك).

قلت: وسابق سلمة بن الأكوع رجلاً لما رجعوا من ذى قرد إلى المدينة فسبقه سلمة.

[أخرجه مسلم]

الثانية : وروى مالك عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التى قد أضمرت من الحفياء وكان أمدها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التى لم تضمر إلى الثنية إلى مسجد بنى زريق ، وأن عبدالله بن عمر كان ممن سابق بها ، وهذا الحديث مع صحته فى هذا الباب تضمن ثلاثة شروط، فلا تجوز المسابقة بدونها، وهى: أن المسافة لابد أن تكون معلومة. الثانى: أن تكون الخيل متساوية الأحوال. الثالث: ألا يسابق المضمر مع غير المضمر فى أمد واحد وغاية واحدة ، والخيل التى يجب أن تضمر ويسابق عليها، وتقام هذه السنة فيها هى الخيل المعدة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين فى الفتن.

(١) نستبق : ننتقل فى الرمى بالسهام.
(٢) قضية المسابقة واللعب فى الإسلام.

الثالثة : وأما المسابقة بالنصال والإبل ، فروى مسلم عن عبدالله بن عمرو قال: سافرنا مع رسول الله ﷺ فنزلنا منزلاً فمنا من لا يصلح خباءه ، ومنا من ينتصل، وذكر الحديث وخرج النسائى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا سبق إلا فى نصل أو خف أو حافر» ، وثبت ذكر النصل من حديث ابن أبى ذئب عن نافع عن ابن أبى نافع عن أبى هريرة، ذكره النسائى، وبه يقول فقهاء الحجاز والعراق.

وروى البخارى عن أنس : كان للنبى ﷺ ناقة تسمى العضباء لا تسبق، قال حميد: أو لا تكاد تسبق، فجاء أعرابى على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه، فقال: «حق على الله ألا يرتفع شىء من الدنيا إلا وضعه».

الرابعة : أجمع المسلمون على أن السبق لا يجوز على وجه البرهان إلا فى الخف أو الحافر والنصل، قال الشافعى: ما عدا هذه الثلاثة فالسبق فيها قمار. وقد زاد أبو البخترى القاضى فى حديث الخف والحافر والنصل «أو جناح» وهى لفظة وضعها للرشد، فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته ، فلا يكتب العلماء حديث بحال.. وقد روى عن مالك أنه قال: لا سبق إلا فى الخيل والرمى، لأنه قوة على أهل الحرب، قال: وسبق الخيل أحب إلينا من سبق الرمى. وظاهر الحديث يسوى بين السبق على النحب والسبق على الخيل. وقد منع بعض العلماء الرهان فى كل شىء إلا فى الخيل، لأنها التى كانت عادة العرب المراهنة عليها، وروى عن عطاء أن المراهنة فى كل شىء جائزة، وقد تؤول قوله، لأن حمله على العموم يؤدى إلى إجازة القمار، وهومحرم باتفاق.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ أي : عند ثيابنا وأقمشتنا حارساً لها، ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ وذلك أنهم لما سمعوا أباهم يقول: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ أخذوا ذلك من فيه فتحرموا به، لأنه كان أظهر المخاوف عليه ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾[1]. أي : بمصدق (ولو كنا) أي وإن كنا، قال المبرد بن إسحاق، (صادقين) فى قولنا، ولم يصدقهم يعقوب لما ظهر منهم من قوة التهمة، وكثرة الأدلة ، على خلاف ما قالوه، على ما يأتى بيانه، وقيل: (ولو كنا صادقين) أي ولو كنا عندك من أهل الصدق ما صدقتنا ، ولا تهمنا فى هذه القضية، لشدة محبتك فى يوسف، قال: معناه الطبرى والزجاج وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[2].

---

(١) قضية الإيمان والتصديق (٧).

(٢) سولت : زينت وسهلت - فصبر جميل : لا شكوى فيه لغير الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾.

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى: ﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ قال مجاهد : كان دم جدى ذبحوه . وقال قتادة : كان دم ظبية، أي جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه، فوصف الدم بالمصدر، فصار تقديره: بدم ذى كذب، مثل :﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ والفاعل والمفعول قد يسميان بالمصدر، يقال: هذا ضرب الأمير، أي مضروبة، وماء سكب أي مسكوب، وماء غور أي غائر، ورجل عدل أو عادل.

الثانية : قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها ، وهى سلامة القميص من التقطيع، إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق، ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خرقاً ولا أثراً استدل بذلك على كذبهم وقال لهم: متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص قاله ابن عباس وغيره روى إسرائيل عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان الدم دم سخلة ، وروى سفيان عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نظر إليه قال كذبتم، لو كان الذئب أكله لخرق القميص ، وحكى الماوردى أن فى القميص ثلاث آيات: حين جاءوا بدم كذب ، وحين قد قميصه من دبر، وحين ألقى على وجه أبيه فارتد بصيرا.

قلت: وهذا مردود ، فإن القميص الذى جاءوا عليه بالدم غير القميص الذى قُدَّ، وغير القميص الذى أتاه البشير به ، وقد قيل: إن القميص الذى قد هو الذى أتى به فارتد بصيرا، على ما يأتى بيانه آخر السورة إن شاء الله تعالى. وروى أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه ، فاختلف قولهم، فاتهمهم، فقال لهم يعقوب: تزعمون أن الذئب أكله ، ولو أكله لشق قميصه قبل أن يفضى إلى جلده، وما أرى بالقميص من شق، وتزعمون أن اللصوص قتلوه، لو كانوا قتلوه لأخذوا قميصه، هل يريدون إلا ثيابه ؟ فقالوا عند ذلك : ﴿ .. وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾ عن الحسن وغيره، أي لو كنا موصوفون بالصدق لاتهمتنا.

الثالثة : استدل الفقهاء بهذه الآية فى أعمال الإمارات فى مسائل من الفقه كالقسامة وغيرهم، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام استدل على كذبهم بصحة القميص ، وهكذا يجب

على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت ، فما ترجع منها قضى بجانب الترجيح وهى قوة التهمة ، ولا خلاف بالحكم بها ، قاله ابن العربى.

قال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى : روى أن يعقوب لما قالوا له : ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ قال لهم: ألم يترك الذئب له عضو فتأتونى به أستأنس به؟ ألم يترك لى ثوباً أشم فيه رائحته؟ قالوا : بلى هذا قميص ملطوخ بدمه، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه : أرونى قميصه، فأروه فشمه وقبله، ثم جعل يقلبه فلا يرى فيه شقا ولا تمزيقا ، فقال: والله الذى لا إله إلا هو ما رأيت كاليوم ذئباً أحكم منه، أكل ابنى واختلسه من قميصه ولم يمزقه عليه، وعلم أن الأمر ليس كما قالوا ، وأن الذئب لم يأكله، فأعرض عنهم كالمغضب باكيا حزينا ، وقال: يا معشر ولدى دلونى على ولدى فإن كان حيا رددته إلىَّ ، وإن كان ميتاً كفنته ودفنته فقيل قالوا حينئذ : ألم تروا إلى أبينا كيف يكذبنا فى مقالتنا تعالوا نخرجه من الجب ونقطعه عضوا عضوا ، ونأت أبانا بأحد أعضاءه فيصدقنا فى مقالتنا ويقطع يأسه ، فقال يهوذا : واللّه لئن فعلتم لأكونن لكم عدوا ما بقيت، ولأخبرن أباكم بسوء صنعيكم، قالوا: فإذا منعتنا من هذا فتعالوا نصطاد له ذئباً، قال: فاصطادوا ذئباً ولطخوه بالدم، وأوثقوه بالحبال، ثم جاءوا به يعقوب وقالوا: يا أبانا إن هذا الذئب الذى يحل بأغنامنا ويفترسها ، ولعله الذى أفجعنا بأخينا لا نشك فيه، وهذا دمه عليه، فقال يعقوب: أطلقوه، فأطلقوه، وتبصص له الذئب، فأقبل يدنو ويعقوب يقول له: أدن إدن ، حتى ألصق خده بخده فقال له يعقوب: أيها الذئب لم فجعتنى بولدى وأورثتنى حزناً طويلاً؟ ثم قال : اللهم أنطقه، فأنطقه الله تعالى فقال: والذى اصطفاك نبياً ما أكلت لحمه، ولا مزقت جلده، ولا أخذت شعره من شعراته، ووالله مالى بولدك عهد، وإنما أنا ذئب غريب أقبلت من نواحى مصر فى طلب أخ لى فقد ، فلا أدرى أحى هو أم ميت، فاصطادنى أولادك وأوثقونى ، وإن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش ، فأطلقه يعقوب وقال: والله لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم، هذا ذئب بهيم خرج يتبع ذمام أخيه، وأنتم ضيعتم أخاكم، وقد علمت أن الذئب برئ جئتم به ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أي زينت ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ غير ما تصنعون وتذكرون، ثم قال توطئة لنفسه : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾.

الثانية: قال الزجاج : أي فشأني والذى اعتقده صبر جميل وقال فطرب : أي فصبرى صبر جميل، وقيل: أي فصبر جميل أولى بى، فهو مبتدأ وخبره محذوف.

ويروى أن النبى ﷺ سئل عن الصبر الجميل فقال: (هو الذى لا شكوى معه) وسيأتى له مزيد بيان آخر السورة إن شاء الله.

قال تعالى : ﴿ جَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ[1] ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[2].

أعلم أنه تعالى بين كيف سهل السبيل فى خلاص يوسف من تلك المحنة ، فقال سبحانه ﴿ جَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ يعنى رفقة تسير للسفر.

قال ابن عباس : جاءت سيارة أي قوم يسيرون من مدين إلى مصر فأخطأوا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق، فهبطوا على أرض فيها جب يوسف عليه السلام ، وكان الجب فى قفرة بعيدة عن العمران لم يكن إلا للرعاة.

وقيل: كان ماؤه مالحاً فعذب حين ألقى فيه يوسف عليه السلام فأرسلوا رجلاً يقال له : مالك ابن ذعر الخزاعى ليطلب لهم الماء ، والوارد : الذى يرد الماء ليستقى للقوم ﴿ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ﴾.

ونقل الواحدى عن عامة أهل اللغة أنه يقال: أدلى دلوه[3] إذا أرسلها فى البئر، ودلاها إذا نزعها من البئر، يقال: أدلى يدلى إدلاء إذا أرسلها، ودلى يدلو دلوا إذا جذب وأخرج ، والدلو معروف، والجمع دلاء.

وجمع دلو فى أقل العدد آدْلُ فإذا كثرت قلت : دُلِىَ ودلىّ ؛ فقلت : الواو ياء، إلا أن الجمع بأنه التغيير ، وليفرق بين الواحد والجمع ، ودلاء أيضاً. فتعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر ، أحسن ما يكون من الغلمان.

قال ﷺ فى حديث الإسراء فى صحيح مسلم : «فإذا أنا بيوسف إذ هو قد أعطى شطر الحسن » ، وقال كعب الأحبار : كان يوسف حسن الوجه ، جعد الشعر، ضخم العينين،

---

(١) سيارة : رفقة مسافرون من مدين لمصر.
واردهم : من يتقدم الرفقة ليستقى لهم .. فأدلى دلوه : فأرسلها فى الجب ليملأها ماء.
أسروه : أخفاه الوارد ،أصحابه عن بقية الرفقة أو أخفى أخوته أمره.

(٢) شروه : باعه إخوته أو السيارة . بثمن بخس : ناقص عن القيمة نقصانا ظاهرا.

(٣) قضية الإبهام فى القرآن (٤).

مستوى الخلق، أبيض اللون ، غليظ الساعدين والعضدين ، خميص البطن، صغيرة السُرة، إذا ابتسم رأيت النور فى ضواحكه ، وإذا تكلم فى كلامه شعاع الشمس فى ثناياه ، لايستطيع أحد وصفه ، وكان حسن كضوء النهار عند الليل ، وكان بشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية . وقيل : إنه ورث ذلك من جدته سارة ، وكانت قد أعطيت سدس الحسن ، فلما رآه مالك بن دُعر قال : ﴿ يا بشرَىٰ هذا غلامٌ ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة.

﴿ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلامٌ ﴾ وههنا محذوف، والتقدير : فظهر يوسف.

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : قرأ عاصم وحمزة والكسائى ﴿ بُشْرَىٰ ﴾ بغير الألف وسكون الياء، وبالباقون ﴿ يَا بُشْرَى ﴾ بالألف وفتح الياء على الإضافة.

المسألة الثانية : فى قوله تعالى: ﴿ يَا بُشْرَى ﴾ قولان:

القول الأول : أنها كلمة تذكر عند البشارة ونظيره قولهم : يا عجبا من كذا، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ وعلى هذا القول ففى تفسير النداء.

الأول : قال الزجاج : معنى النداء فى هذه الأشياء التى لا تجيب تنبيه المخاطبين وتوكيد القصة، فإذا قلت: يا عجباه فكأنك قلت : اعجبوا .

الثانى : قال أبو على : كأنه يقول: يا أيتها البشرى هذا الوقت وقتك، ولو كنت ممن يخاطب لخوطبت الآن ولأمرت بالحضور.

وأعلم أن سبب البشارة هو أنهم وجدوا غلاماً فى غاية الحسن وقالوا : نبعه بثمن عظيم ويصير ذلك سبباً لحصول الغنى.

القول الثانى : وهو الذى ذكره السدى أن الذى نادى صاحبه وكان اسمه، فقال : يا بشرى كما تقول يا زيد ، وعن الأعمش أنه قال: دعا امرأة اسمها بشرى (يا بشرى) .

قال أبو على الفارسى : إن جعلنا البشرى اسما للبشارة : وهو الوجه جاز أن يكون فى محل الرفع كما قيل: يا رجل لاختصاصه بالنداء، وجاز أن يكون فى موضع النصب على

تقدير : أنه جعل ذلك النداء شائعاً فى جنس البشرى، ولم يخص كما تقـول يا رجلاً[1] ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾[يس].

وأما قوله تعالى ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى : الضمير فى « وأسروه » إلى من يعود ؟ فيه قولان:

الأول : أنه عائد إلى الوارد وأصحابه أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه فى الجب، وذلك لأنهم قالوا: إن قلنا للسيارة التقطناه شاركونا فيه، وإن قلنا اشتريناه، سألونا الشركة، فالأصوب أن نقول: إن أهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر.

الثانى : نقل عن ابن عباس أنه تعالى قال ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ يعنى أخوة يوسف أسروا شأنه، والمعنى : أنهم أخفوا كونه أخاً لهم، بل قالوا: إنه عبد لنا أبق منا وتابعهم على ذلك يوسف لأنهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية أن المراد أسروه حال ما حكموا بأنه بضاعة، وذلك إنما يليق بالوارد لا بأخوة يوسف.

المسألة الثانية : (البضاعة) القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت اللحم إذا قطعته. قال الزجاج: وبضاعة منصوبة على الحال كأنه قال: وأسروه حال ما جعلوه بضاعة.

ثم قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ والمراد منه أن يوسف عليه السلام لما رأى الكواكب والشمس والقمر فى النوم سجدت له ، وذكر ذلك حسده أخوته عليه، واحتالوا فى إبطال ذلك الأمر عليه فأوقعوه فى البلاء الشديد حتى لا يتيسر له ذلك المقصود ، وأنه تعالى جعل وقوعه فى ذلك البلاء سبباً إلى وصوله فى مصر ، ثم تمادت وقائعه وتتابع الأمر إلى أن صار ملك مصر وحصل ذلك الذى رآه فى النوم فكان العمل الذى عمله الأعداء فى دفعه عن ذلك المطلوب صيره اللّه تعالى سبباً لحصول ذلك المطلوب.

فلهذا المعنى قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ ؛ ثم قال تعالى ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ أما قوله تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ ففيه قولان:

القول الأول : المراد من الشراء هو البيع، وعلى هذا التقدير ففى ذلك البيع قولان:

---

(١) يقصد أن المنادى نكرة غير مقصودة.

الأول : قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن أخوة يوسف لما طرحوه فى الجب ورجعوا عادوا بعد ثلاث يتعرفون خبره، فلما لم يروه فى الجب ورأوا آثار السيارة طلبوهم فلما رأوا يوسف قالوا: هذا عبدنا أبق منا فقالوا لهم : فبيعوه منا فباعوه منهم.

والمراد من قوله تعالى ﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي باعوه يقال: شريت الشيء إذا بعته، وإنما وجب حمل هذا الشراء على البيع، لأن الضمير فى قوله تعالى ﴿وَشَرَوْهُ﴾ وفى قوله تعالى ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ عائد إلى شئ واحد لكن الضمير فى قوله تعالى ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ عائد إلى الأخوة فكذا فى قوله تعالى ﴿وَشَرَوْهُ﴾ يجب أن يكون عائدا إلى الأخوة، وإذا كان كذلك فهم باعوه فوجب حمل هذا الشراء على البيع.

الثانى: أن بائع يوسف هم الذين استخرجوه من البئر، وقال محمد بن إسحاق : ربك أعلم أأخوته باعوه أم السيارة؟

وههنا قول آخر وهو أنه يحتمل أن يقال: المراد من الشراء نفس الشراء[١] والمعنى أن القوم اشتروه وكانوا فيه من الزاهدين، لأنهم علموا بقرائن الحال أن أخوة يوسف كذابون فى قولهم أنه عبدنا وربما عرفوا أيضاً ولد يعقوب فكرهوا شراءه خوفاً من الله تعالى، ومن ظهر تلك الواقعة، إلا أنهم مع ذلك اشتروه بثمن قليل، مع أنهم أظهروا من أنفسهم كونهم فيه من الزاهدين ، وغرضهم أن يتوصلوا بذلك إلى تقليل الثمن، ويحتمل أيضاً أن يقال: إن الأخوة لما قالوا: إنه عبدنا أبق صار المشترى عديم الرغبة فيه. قال مجاهد: وكانوا يقولون استوثقوا منه لئلا يأبق.

ثم أعلم أنه تعالى وصف لك الثمن بصفات ثلاث :

الصفة الأولى: كونه بخساً ، قال ابن عباس : يريد حراماً لأن ثمن الحر حرام، وقال: كل بخس فى كتاب الله نقصان إلا هذا فإنه حرام، قال الواحدى سموا الحرام بخساً لأنه ناقص البركة، وقال قتادة ، بخس ظلم والظلم نقصان، يقال ظلمه أي نقصه ، وقال عكرمة والشعبى: قليل، وقيل: ناقص نقصاناً ظاهرا ، وقيل: كانت الدراهم زيوفا ناقصة العيار.

قال الواحدى رحمه الله تعالى: وعلى الأقوال كلها ، فالبخس مصدر وضع موضع الاسم، والمعنى بثمن مبخوس.

---

(١) وهو القول الثانى : فى معنى الشراء.

الصفة الثانية : قوله تعالى: ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ قيل: تعد عدا ولا توزن، لأنهم كانوا لا يزنون إلا إذا بلغ أوقية، وهى الأربعين ويعدون ما دونها فقيل للقليل معدود ، لأن الكثير يمتنع من عدها لكثرتها ، وعن ابن عباس كانت عشرين درهما ، وعن السدى اثنين وعشرين درهما ، قالوا : والأخوة كانوا أحد عشر فكل واحد منهم أخذ درهمين إلا يهوذا لم يأخذ شيئاً.

الصفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ ومعنى الزهد قلة الرغبة، يقال : « زهد فلان فى كذا » إذا لم يرغب فيه وأصله القلة، يقال: رجل زهيد ، إذا كان قليل الطمع.

وفيه وجوه :

أحدهما : ان إخوة يوسف باعوه ، لأنهم كانوا فيه من الزاهدين.

الثانى : أن السيارة التى باعوه كانوا فيه من الزاهدين ، لأنهم التقطوه والملتقط للشىء متهاون به لا يبالى بأي شىء يبيعه أو لأنهم خافوا أن يظهر المستحق فينزعه من يدهم فلا جرم باعوه بأوكس الأثمان.

الثالث : أن الذين اشتروه كانوا فيه من الزاهدين، وقد سبق هذه الأقوال فيما تقدم.

والضمير فى قوله تعالى: «فيه» يحتمل أن يكون عائداً إلى يوسف عليه السلام ويحتمل أن يكون عائداً إلى الثمن البخس - والله أعلم.

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) ﴾.

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : اعلم أنه ثبت فى الأخبار أن الذى اشتراه إما من الأخوة أو من الواردين على الماء ذهب به إلى مصر وباعه هناك.

قيل : إن الذى اشتراه قطفير أو اطفير وهو العزيز الذى كان يلى خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد ، رجل من العماليق ، وقد آمن بيوسف ومات فى حياة يوسف عليه السلام فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى، واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام فى منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد ، وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الملك والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة.

وقيل : كان الملك فى أيامه فرعون موسى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ .. (٣٤) ﴾[غافر].

وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف.

وقيل اشتراه العزيز بعشرين دينارا ، وقيل : أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا فى ثمنه حتى بلغ ثمنه ما يساويه فى الوزن من السمك والورق والحرير ، فابتاعه قطفير بذلك الثمن. وقالوا : اسم تلك المرأة زليخا ، وقيل : راعيل.

المسألة الثانية : قوله تعالى: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ أي منزله ومقامه عندك ، من قولك ثويت بالمكان إذا أقمت به ، ومصدره الثواء ، والمعنى : اجعلى منزله عندك كريما حسناً مرضياً بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾.

قال المحققون أمر العزيز امرأته بإكرام مثواه دون إكرام نفسه ، يدل على أنه كان ينظر إليه على سبيل الإجلال والتعظيم.

ولما أمرها بإكرام مثواه علل ذلك بأن قال: ﴿ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا ﴾ أي يقوم بإصلاح مهماتنا ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ لأنه كان لا يولد له ولد ، وكان حصورا .

ثم قال تعالى :﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ وقد تقدم تفسير ذلك.

واعلم أنا ذكرنا أنه عليه السلام لما ألقى فى الجب قال تعالى :﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ وذلك يدل ظاهرا على أنه تعالى أوحى إليه فى ذلك الوقت ، فلا يبعد أن يقال: إن ذلك الوحى إليه فى ذلك الوقت ما كان لأجل بعثته إلى الخلق ، بل لأجل تقوية قلبه وإزالة الحزن عن صدره ، ولأجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام على سبيل الإرهاص[١] .

ثم أنه تعالى قال ههنا : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ والمراد منه إرساله إلى الخلق بتبليغ التكاليف ، ودعوة الخلق إلى الدين الحق ، ويحتمل أيضاً أن يقال: أن ذلك الوحى الأول كان لأجل الرسالة ويحمل قوله تعالى: ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ على أنه تعالى أوحى إليه بزيادات ودرجات يصير بها كل يوم أعلى حالاً مما كان قبله.

وقال ابن مسعود : أشد الناس فراسة ثلاثة : العزيز حين تفرس فى يوسف فقال لامرأته: أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا ، والمرأة[٢] لما رأت موسى ، فقالت: ﴿ .. يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ .. (٢٦) ﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه حين استخلف عمر .

(١) الإرهاص : أمر خارق للعادة يظهر للأنبياء قبل منعهم.
(٢) ابنة شعيب عليه السلام.

ولما اشترى مالك بن دعر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتاباً : « هذا ما اشترى مالك بن دعر من بنى يعقوب، وهم : فلان وفلان مملوكاً لهم بعشرين درهما ، وقد شرطوا له أنه آبق، وأنه لا ينقلب به إلا مقيدا مسلسلا ، وأعطاهم على ذلك عهد الله ، قال: فودعهم يوسف عند ذلك، وجعل يقول: حفظكم الله وإن ضيعتمونى ، نصركم الله وإن خذلتمونى، ورحمكم الله وإن لم ترحمونى ، قالوا : فألقت الأغنام ما فى بطونها دماً عبيطاً لشدة هذا التوديع، وحملوه على قتيب بغير غطاء ولا وطأة، مقيداً مكبلاً مسلسلاً، فمر على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمه - وقد كان وكل به أسود يحرسه فغفل الأسود - فألقى يوسف نفسه على قبر أمه وجعل يتمرغ ويعتنق القبر.

ثم قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ وفيه وجهان:

الأول : غالب على أمر نفسه لأنه فعال لما يريد لا دافع لقضائه ولا مانع عن حكمه فى أرضه وسمائه.

الثانى : والله غالب على أمر يوسف ، يعنى أن انتظام أموره كان إليها، وما كان بسعيه ، واخوته أرادوا به كل سوء ومكروه والله أراد به الخير، فكان كما أراد الله تعالى ودبر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله.

وأعلم أن من تأمل فى أحوال الدنيا وعجائب أحوالها عرف وتيقن أن الأمر كله للّه ، وأن قضاء الله غالب.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[٢].

فى الآية مسائل :

المسألة الأولى : وجه النظم أن يقال : بين تعالى أن أخوته لما أساءوا إليه، ثم أنه صبر على تلك الشدائد والمحن مكنه اللّه تعالى فى الأرض، ثم لما بلغ أشده آتاه اللّه الحكم والعلم.

والمقصود بيان أن جميع ما فاز به من النعم كان كالجزاء على صبره على تلك المحن.

ومن الناس من قال: إن النبوة جزاء على الأعمال الحسنة، ومنهم من قال: إن من اجتهد وصبر على بلاء الله تعالى وشكر نعماء الله تعالى وجد منصب الرسالة، واحتجوا على صحة قولهم: بأنه تعالى لما ذكر صبر يوسف على تلك المحن ذكر أنه أعطاه النبوة والرسالة.

---

(٢) بلغ أشده : منتهى شدة جسمه وقوته.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[1] وهذا يدل على أن كل من أتى بالطاعات الحسنة التى أتى بها يوسف، فإن الله يعطيه تلك المناصب، وهذا يعيد لاتفاق العلماء على أن النبوة غير مكتسبة.

واعلم أن من قال: إن يوسف ما كان رسولا ولا نبيا البتة، وإنما كان عبدا أطاع الله تعالى فأحسن إليه ، وهذا القول باطل بالإجماع.

قال الحسن : إنه كان نبيا من الوقت الذى قال تعالى فى حقه: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ وما كان رسولا، ثم أنه صار رسولا من هذا الوقت أعنى قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ..﴿٢٢﴾﴾ ومنهم من قال : أنه كان رسولا من الوقت الذى ألقى فى غيابة الجب.

المسألة الثانية : قال أبو عبيدة : تقول العرب: بلغ فلان أشده إذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته قبل أن يأخذ فى النقصان ، وهذا اللفظ يستعمل فى الواحد والجمع يقال: بلغ أشده وبلغوا أشدهم.

وأما التفسير فروى ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ قال ثلاثا وثلاثين سنة.

وأقول: هذه الرواية شديدة الانطباق على القوانين الطبية، وذلك لأن الأطباء قالوا: إن الإنسان يحدث فى أول الأمر ويتزايد كل يوم شيئاً فشيئاً إلى أن ينتهى إلى غاية الكمال، ثم يأخذ فى التراجع والانتقاص إلى أن لايبقى منه شىء، فكانت حالته شبيهة بحال القمر؛ فإنه يظهر هلالاً ضعيفاً ثم لا يزال يزداد إلى أن يصير بدراً تاماً، ثم يتراجع إلى أن ينتهى إلى العدم والمحاق.

إذا عرفت هذا فنقول : مدة دورة القمر ثمانية وعشرون يوماً وكسر، فإذا جعلت هذه الدورة أربعة أقسام، كان كل قسم منها سبعة أيام، فلا جرم رتبوا أحوال الأبدان على الأسابيع، فالإنسان إذا ولد كان ضعيف الخلقة نحيف التركيب إلى أن يتم له سبع سنين.

ثم إذا دخل فى السبعة الثانية حصل فيه آثار الفهم والذكاء والقوة ، ثم لا يزال فى الترقى إلا أن يتم له أربع عشرة سنة.

(١) قضية الإحسان فى القرآن (٩).

فإذا دخل فى السنة الخامسة عشر دخل فى الأسبوع الثالث ، وهناك يكمل العقل ويبلغ إلى حد التكليف وتتحرك فيه الشهوة.

ثم لا يزال يرتقى على هذه الحالة إلى أن يتم السنة الحادية والعشرين.

وهناك يتم الأسبوع الثالث، ويدخل فى السنة الثانية والعشرين.

وهذا الأسبوع آخر أسابيع النشوء والنماء.

فإذا تمت السنة الثامنة والعشرون فقد تمت مدة النشوء والنماء.

المسألة الثالثة : فى تفسير الحكم والعلم، وفيه أقوال :

القول الأول : أن الحكم والحكمة أصلها حبس النفس عن هواها ومنعها مما يشينها ، فالمراد من الحكم الحكمة العملية ، والمراد من العلم الحكمة النظرية ، وإنما قدم الحكمة العملية هنا على النظرية لأن أصحاب الرياضيات يشتغلون بالحكمة العملية، ثم يترقون إلى الحكمة النظرية.

وأما أصحاب الأفكار العقلية والأنظار الروحانية فإنهم يصلون إلى الحكمة النظرية أولاً، ثم ينزلون منها إلى الحكمة العملية، وطبيعة يوسف عليه السلام هو الأول، لأنه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله عليه أبواب المكاشفات ، فلهـذا السبب قال : ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعلما . ﴿٢٢﴾ ﴾ ..

القول الثانى : الحكم هو النبوة، لأن النبى يكون حاكما على الخلق، والعلم علم الدين.

القول الثالث : يحتمل أن يكون المراد من الحكم صيرورة نفسه المطمئنة حاكمة على نفسه الأمارة بالسوء مستعلية عليها قاهرة لها ومتى صارت القوة الشهوانية والغضبية مقهورة ضعيفة فاضت الأنوار القدسية والأضواء الإلهية من عالم القدس على جوهر النفس.

وتحقيق القول فى هذا الباب أن جوهر النفس الناطقة خلقت قابلة للمعارف الكلية والأنوار العقلية.

إلا أنه قد ثبت عندنا بحسب البراهين وبحسب المكاشفات العلوية أن جواهر الأرواح البشرية مختلفة بالماهيات فمنها ذكية وبليدة ، ومنها حرة ونذلة، ومنها شريفة وخسيسة ، ومنها عظيمة الميل إلى عالم الروحانيات وعظيمة الرغبة فى الجسمانيات فهذه الأقسام كثيرة وكل واحد من هذه المقامات قابل للأشد والأضعف والأكمل والأنقص.

فقوله تعالى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ إشارة إلى اعتدال الآلات البدنية وقوله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ إشارة إلى استكمال النفس فى قوتها العملية والنظرية - والله أعلم.

قوله تعالى:﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١).

أعلم أن يوسف عليه السلام كان فى غاية الجمال والحسن ، فلما رأته المرأة طمعت فيه، ويقال أيضاً: ان زوجها كان عاجزا يقال: راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هى عن نفسه إذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع.

﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾ والسبب أن ذلك العمل لا يؤتى به إلا فى المواضع المستورة لاسيما إذا كان حراماً، ومع قيام الخوف الشديد.

وقوله تعالى: ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾ أى أغلقتها.

قال الواحدى : وأصل هذه من قولهم فى كل شىء تثبت فى شىء فلزمه قد غلق يقال: غلق فى الباطل وغلق فى غضبه ، ومنه غلق الرهن ثم يعدى بالألف فيقال : أغلق الباب إذا جعله بحيث يعسر فتحه.

قال المفسرون : وإنما جاء ﴿ غَلَّقَتِ ﴾ على التكثير لأنها غلقت سبعة أبواب، ثم دعته إلى نفسها: ثم قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾.

وفيه مسائل :

المسألة الأولى : قال الواحدى: هيت لك اسم للفعل نحو : رويدا ، وصه، ومه ، ومعناه هلم فى قول جميع أهل اللغة.

وقال الأخفش :﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ مفتوحة الهاء والتاء، ويجوز أيضاً كسر التاء ورفعها.

وقال الفراء : إنها لغة لأهل حوران سقطت إلى مكة فتكلموا بها.

قال ابن الأنبارى : وهذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران كما اتفقت لغة العرب والروم فى (القسطاس) ولغة العرب والفرس فى (السجيل) ولغة العرب والترك فى (الغساق) ولغة العرب والحبشة فى (ناشئة الليل).

(١) وراودته : أى عن نفسه طلبته لنفسها - هيت لك : أقبل ، أسرع - إرادتى لك - معاذ الله : أعوذ بالله معاذاً مما دعوتنى إليه.

المسألة الثانية : قرأ نافع وابن عمر فى رواية ابن ذكوان (هيت) بكسر الهاء وفتح التاء ، وقرأ ابن كثير (هيت لك) مثل حيث وقرأ هشام بن عمار عن أبى عامر (هئت لك) بكسر الهاء وهمز الياء وضم التاء مثل جئت من تهيأت لك، والباقون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء.

ثم أنه تعالى قال: إن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ، قال يوسف عليه السلام : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ فقوله تعالى: ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ أي أعوذ بالله معاذا.

والضمير فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ ﴾ للشأن والحديث ﴿ رَبِّي ﴾ أى ربى وسيدى ومالكى ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ حين قال لك ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ فلا يليق بالعقل أن أجازيه على ذلك الإحسان بهذه الخيانة القبيحة ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ الذين يجازون الإحسان بالإساءة ، وقيل: أراد الزنا لأنهم ظالمون أنفسهم أو لأن عملهم يقتضى وضع الشىء فى غير موضعه.

وههنا قضية مهمة :

السؤال الأول : أن يوسف عليه السلام كان حراً وما كان عبداً لأحد ، فقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ « يكون كذباً » ، وذلك ذنب وكبيرة.

الجواب : أنه عليه السلام أجرى هذا الكلام بحسب الظاهر ، وعلى وفق ما كانوا يعتقدون فيه من كونه عبداً ، وأيضاً أنه رباه وأنعم عليه بالوجوه الكثيرة فعنى بكونه ربا له كونه مربياً له ، وهذا من باب المعاريض الحسنة ، فإن أهل الظاهر يحملونه على كونه ربا له وهو كان يعنى بما أنه كان مربيا له ، ومهما عليه.

السؤال الثاني : هل يدل قول يوسف عليه السلام ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ على صحة مذهب أهل السنة فى القضاء والقدر؟

الجواب : أنه يدل عليه دلالة ظاهرة لأن قوله عليه السلام أعوذ بالله معاذا ، طلب من الله أن يعيذه من ذلك العمل ، وتلك الإعاذة ليست عبارة عن إعطاء القدرة والعقل والآلة ، وإزاحة الأعذار وإزالة الموانع وفعل الألطاف ، لأن كل ما كان فى مقدور الله تعالى من هذا الباب فقد فعله ، فيكون ذلك إما طلباً لتحصيل الحاصل ، أو طلباً لتحصيل الممتنع وأنه محال.

فعلمنا أن تلك الإعاذة التى طلبها يوسف من الله تعالى لا معنى لها، إلا أن يخلق فيه داعية جازمة فى جانب الطاعة وأن يزيل عن قلبه داعية المعصية ، وذلك هو المطلوب.

والدليل على أن المراد ما ذكرناه ما نقل أن النبى ﷺ لما وقع بصره على زينب قال : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » وكان المراد منه تقوية داعية الطاعة، وإزالة داعية المعصية ، فهكذا ههنا.

وكذا قوله ﷺ: «قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن» فالمراد من الإصبعين داعية الفعل، وداعية الترك، وهاتان الداعيتان لا يحصلان إلا بخلق الله تعالى وإلا لافتقرت إلى داعية أخرى ولزم التسلسل.

قوله تعالى ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ أي أن الله ربى تولانى بلطفه، فلا أركب ما حرمه ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وفى الخبر أنها قالت له : يا يوسف : ما أحسن صورة وجهك: قال: فى الرحم صورنى ربى، قالت: يا يوسف ما أحسن شعرك، قال: هو أول ما يبلى منى فى قبرى، وقالت: يا يوسف : ما أحسن عينيك، قال: بها أنظر إلى ربى، قالت: يا يوسف ارفع بصرك فانظر إلى وجهى، قال: إنى أخاف العمى فى آخرتى، قالت: يا يوسف أدنو منك وتتباعد منى ؟ قال: أريد بذلك القرب من ربى.

فثبت أن قول يوسف عليه السلام ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ من أدل الدلائل على قولنا ، والله أعلم.

السؤال الثالث : ذكر يوسف عليه السلام فى الجوانب عن كلامها ثلاثة أشياء:

الأول : قوله تعالى ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ ، **الثانى**:قوله تعالى عنه: ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ ، **الثالث**: قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

فما وجه تعليق بعض هذه الجوانب ببعض؟

الجواب : هذا الترتيب فى غاية الحسن، وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء لكثرة إنعامه والطاقة فى حق العبد، فقوله تعالى:﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ إشارة إلى أن حق الله تعالى يمنح عن هذا العمل ، وأيضاً حقوق الخلق واجبة الرعاية، فلما كان هذا الرجل قد أنعم فى حقى يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالإساءة، وأيضاً صون النفس عن الضرر واجب، وهذه اللذة قليلة يتبعها خزى الدنيا ، وعذاب شديد فى الآخرة، واللذة القليلة إذا لزمها ضرر شديد فالعقل يقتضى تركها والاحتراز عنها.

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ إشارة إليه.

فثبت أن هذه الجوانب الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ (١).

أعلم أن الآية من المهمات التي يجب الاعتناء بالبحث عنها ، وفى هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى : فى أنه عليه السلام هل صدر عنه ذنب أم لا ؟ وفى هذه المسألة قولان:

القول الأول : أن يوسف عليه السلام هم بالفاحشة.

قال الواحدى فى كتاب البسيط : قال المفسرون الموثوق بعلمهم المرجوع إلى روايتهم: هم يوسف أيضاً بهذه المرأة هما صحيحاً وجلس منها مجلس الرجل من المرأة، فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة عنه.

وروى أن يوسف عليه السلام لما قال :﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ قال جبريل عليه السلام: ولا حين هممت يا يوسف؟ فقال يوسف عند ذلك: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ ثم قال : والذين أثبتوا هذا العمل ليوسف كانوا أعرف بحقوق الأنبياء عليهم السلام وارتفاع منازلهم عند الله تعالى من الذين نفوا الهم عنه.

القول الثانى : أن يوسف عليه السلام كان بريئاً من العمل الباطل والهم المحرم، وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين ، وبه نقول.

واعلم أن الدلائل الدالة على وجوب عصمة الأنبياء عليهم السلام كثيرة، ولقد استقصيناها فى سورة البقرة فى قصة آدم عليه السلام فلا نعيدها.

إلا أن ههنا وجوهاً:

القول الأول : إن الزنا من منكرات الكبائر، والخيانة فى معرض الأمانة أيضاً من منكرات الذنوب، وأيضاً مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد أيضاً من منكرات الذنوب، وأيضاً الصبى إذا تربى فى حجر إنسان وبقى مكفى المؤنة مصون العرض من أول صباه إلى زمان شبابه وكمال قوته فإقدام هذا الصبى على إيصال أقبح أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم المعظم من منكرات الأعمال.

---

(١) هم بها : هم الطباع البشرية مع العصمة - المخلصين : المختارين لطاعته أو لرسالته.

إذا ثبت هذا فنقول: إن هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام كانت موصوفة بجميع هذه الجهات الأربع، ومثل هذه المعصية لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منه، فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول عليه السلام المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة.

القول الثاني : أنه تعالى قال في غير هذه الواقعة: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾[1] ، وذلك يدل على أن ماهية السوء والفحشاء مصروفة عنه ، ولا شك أن المعصية التي نسبوها إليه أعظم أنواع المعاصي وأفحش أقسام الفحشاء فكيف يليق برب العالمين أن يشهد في عين هذه الواقعة بكونه بريئاً من السوء مع أنه كان قد أتى بأعظم أنواع السوء والفحشاء.

وأيضاً فالآية تدل على قولنا من وجه آخر ، وذلك لأننا نقول هب أن هذه الآية لا تدل على نفي هذه المعصية عنه؛ إلا أنه لا شك أنها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ ، فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكي عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة، ثم أنه يمدحه ويثني عليه بأعظم المدائح والأثنية عقيب أن حكى عنه ذلك الذنب العظيم فإن مثاله ما إذا حكى السلطان عن بعض عبيده أقبح الذنوب وأفحش الأعمال ثم أنه يذكره بالمدح العظيم والثناء البالغ عقيبة فإن ذلك يستنكر جداً، فكذا ههنا - والله أعلم.

القول الثالث : أن الأنبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة استعظموا ذلك وأتبعوها بإظهار الندامة والتوبة والتواضع، ولو كان يوسف عليه السلام أقدم ههنا على هذه الكبيرة المنكرة لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة والاستغفار ولو أتى بالتوبة لحكى الله تعالى عنه إتيانه بها كما في سائر المواضع وحيث لم يوجد شيء من ذلك علمنا أنه ما صدر عنه في هذه الواقعة ذنب ولا معصية.

القول الرابع : أن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية.

واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف عليه السلام وتلك المرأة وزوجها ، والنسوة والشهود ، ورب العالمين، شهد ببراءته عن الذنب، وإبليس أقر ببراءته أيضاً عن المعصية، وإذا كان الأمر كذلك، فحينئذ لم يبق للمسلم توقف في هذا الباب.

---

(١) قضية التوبة (١٠).

أما بيان أن يوسف عليه السلام ادعى البراءة عن الذنب فهو قوله عليه السلام : ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ وقوله عليه السلام : ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

وأما بيان أن المرأة اعترفت بذلك فإنها قالت للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾.

وأيضاً قالت : ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وأما بيان أن زوج المرأة أقر بذلك ، فهو قوله تعالى: ﴿ .. إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)﴾.

وأما الشهود فقوله تعالى : ﴿... شَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦)﴾.

وأما شهادة الله بذلك فقوله تعالى : ﴿ .. كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)﴾.

فقد شهد الله تعالى فى هذه الآية على طهارته أربع مرات:

أولهما : قوله تعالى : ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة.

ثانيها : قوله تعالى: ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء.

ثالثهما : قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ مع أنه تعالى قال: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣)﴾[الفرقان].

رابعهما : قوله تعالى: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ وفيه قراءتان : تارة باسم الفاعل[1] ، وأخرى باسم المفعول.

فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتياً بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص، ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته، وعلى كلا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهاً عنها أضافوه إليه.

وأما بيان أن إبليس اللعين أقر بطهارته ، فلأنه قال : ﴿ ... فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾[ص] ، فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين

(١) أي (المخلصين) من الفعل أخلص أما اسم المفعول فهو (المخلصين).

ويوسف عليه السلام من المخلصين لقوله تعالى :﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ فكان هذا إقرارا من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريق الهدى.

وعند هذه نقول : هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة إن كانوا من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته، وإن كانوا من أتباع إبليس اللعين وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته، ولعلهم يقولون : كنا فى أول الأمر تلامذة إبليس إلى أن تخرجنا عليه فزدنا عليه من السفاهة كما قال الخوارزمى:

وكنت امرءا من جند إبليس فارتقى ... بى الدهر حتى صار إبليس من جندى

فلو مات قبلى كنت أحسن بعده ... طرائق فسق ليس يحسنها بعدى

فثبت بهذه الدلالة أن يوسف عليه السلام برئ عما يقوله هؤلاء الجهال.

وبيانه من وجوه :

الوجه الأول : المراد أن يوسف عليه السلام هم بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك القبح لأن الهم هو القصد، فوجب أن يحمل فى حق كل أحد على القصد الذى يليق به، فاللائق بالمرأة القصد إلى تحصيل اللذة والتنعم والمتع، واللائق بالرسول المبعوث إلى الخلق القصد إلى زجر العاصى عن معصيته ، وإلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، يقال: همت بفلان أى بضربه ودفعه.

فإن قالوا : فعلى هذه التقدير لا يبقى لقوله تعالى: ﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ فائدة؟

قلنا : بل فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين :

الأول : أنه تعالى أعلم يوسف عليه السلام أنه لو هم بدفعها لقتلته أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله ، فأعلمنه الله تعالى أن الامتناع من ضربها أولى صوناً للنفس عن الهلاك..

الثانى : أنه عليه السلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه فربما تعلقت به، فكان يتمزق ثوبه من قدام، وكان فى علم الله تعالى أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن، ولو كان ثوبه ممزقاً من خلف لكانت المرأة هى الخائنة، فالله تعالى أعلمه بهذا المعنى، فلا جرم لم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هارباً عنها ، حتى صارت شهادة الشاهد حجة له على براءته من المعصية.

الوجه الثانى : أن يفسر الهم بالشهوة ، وهذا مستعمل فى اللغة الشائعة، يقول القائل: فيما لا يشتهيه : ما يهمنى هذا ، وفيما يشتهيه هذا أهم الأشياء إلى، فسمى الله تعالى شهوة يوسف عليه السلام هما ، فمعنى الآية : ولقد اشتهته واشتهاها لولا أن رأى برهان ربه لدخل ذلك العمل فى الوجود.

الوجه الثالث : أن يفسر الهم بحديث النفس، وذلك لأن المرأة الفائقة فى الحسن والجمال إذا تزينت وتهيأت للرجل الشاب القوى فلابد وأن هناك بين الحكمة والشهوة الطبيعية وبين النفس والعقل مجاذبات ومنازعات ، فتارة تقوى داعية الطبيعة والشهوة وتارة تقوى داعية العقل والحكمة، فالهم عبارة عن جواذب الطبيعة، ورؤية البرهان عبارة عن جواذب العبودية (وهذا ما نميل إليه).

ومثال ذلك أن الرجل الصالح الصائم فى الصيف الصائف ، إذا رأى الجلاب المبرد المثلج فإن طبيعته تحمله على شربه، إلا أن دينه وهداه يمنعه منه، فهذا لا يدل على حصول الذنب ، بل كلما كانت هذه الحالة أشد كانت القوة فى القيام بلوازم العبودية أكمل.

المسألة الثانية : فى أن المراد بذلك البرهان ما هو ؟

أما المحققون المثبتون للعصمة فقد فسروا رؤية البرهان بوجوه:

الأول : أنه حجة الله تعالى فى تحريم الزنا والعلم بما على الزانى من العقاب.

الثانى : أن الله تعالى طهر نفوس الأنبياء عليهم السلام من الأخلاق الدميمة، بل نقول : إنه تعالى طهر نفوس المتصلين به عنها كما قال تعالى: ﴿ .. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾[الأحزاب] فالمراد برؤية البرهان هو حصول تلك الأخلاق، وتذكير الأحوال الرادعة لهم عن الإقدام على المنكرات.

الثالث : أنه رأى مكتوباً فى سقف البيت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[الإسراء].

الرابع : أنه النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش ، والدليل عليه أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا لمنع الخلق عن القبائح والفضائح ، فلو أنهم منعوا الناس عنها، ثم أقدموا على أقبح أنواعها وأفحش أقسامها لدخلوا تحت قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾[الصف].

وأيضاً أن الله تعالى عير اليهود بقوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[البقرة] وما يكون عيباً فى حق اليهود كيف ينسب إلى الرسول المؤيد بالمعجزات.

وأما الذين نسبوا المعصية إلى يوسف عليه السلام فقد ذكروا فى تفسير ذلك البرهان أموراً:

الأول : قالوا إن المرأة قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت فى زاوية البيت فسترته بثوب فقال يوسف: لما فعلت ذلك ؟ قالت: استحى من إلهى هذا أن يرانى على معصية، فقال يوسف عليه السلام : أتستحين من صنم لا يعقل ولا يسمع ولا استحى من إلهى القائم على كل نفس بما كسبت! قالوا : فهذا هو البرهان.

الثانى : نقلوا عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه تمثل له يعقوب عليه السلام فرآه عاضاً على أصابعه ويقول له : أتعمل عمل الفجار وأنت مكتوب فى زمرة الأنبياء؟ فاستحى منه، قال وهو قول عكرمة ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ومقاتل وابن سيرين . قال سعيد بن جبير : تمثل له يعقوب فضرب فى صدره فخرجت شهوته من أنامله.

الثالث: قالوا : إنه سمع فى الهواء قائلاً يقول: يا ابن يعقوب لا تكن كالطير يكون له ريش فإذا زنا ذهب ريشه.

الرابع : نقلوا عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يوسف عليه السلام لم ينزجر برؤية صورة يعقوب حتى ركضه جبريل عليه السلام فلم يبق فيه شىء من الشهوة إلا خرج.

المسألة الثالثة : فى الفرق بين السوء والفحشاء وفيه وجهان :

الأول : إن السوء جناية اليد والفحشاء هو الزنا.

الثانى : السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة ، والفحشاء هو الزنا .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي الذين أخلصوا دينهم للّه تعالى، ومن فتح اللام أراد الذين خلصهم الله من الأسواء ، ويحتمل أن يكون المراد أنه من ذرية إبراهيم عليه السلام الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ .. ﴿٤٦﴾ ﴾[ص].

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾[1] قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي

(١) استبقا الباب : تسابقا إليه يريد الخروج وهى تمنعه – قدت قميصه : قطعته وشقته – ألفيا سيدها : وجدا زوجها .

وشهد شاهدٌ مِنْ أَهْلِهَا إن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ من قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾[1] وإن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ من دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ من دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ من كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

أعلم أنه تعالى لما حكى عنها أنها ﴿ هَمَّتْ ﴾ اتبعه بكيفية طلبها وهربه فقال تعالى: ﴿ واستبقا الْبَابَ ﴾ والمراد أنه هرب منها وحاول الخروج من الباب وعدت المرأة خلفه لتجذبه إلى نفسها.

والاستباق طلب السبق إلى الشيء، ومعناه تبادر إلى الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه ، فإن سبق يوسف فتح الباب وخرج، وإن سبقت المرأة أمسكت الباب لئلا يخرج.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أي استبقا إلى الباب كقولـه تعالى: ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً .. ﴿١٥٥﴾ ﴾[الأعراف].

وأعلم أن يوسف عليه السلام سبقها إلى الباب وأراد الخروج والمرأة تعدو خلفه فلم تصل إلا إلى دبر القميص فقدته ، أي قطعته طولاً وفي ذلك الوقت حضر زوجها وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ أي صادفا بعلها أى زوجها، تقول المرأة لبعلها سيدى وإنما لم يقل سيدهما لأن يوسف عليه السلام ما كان مملوكاً لذلك الرجل فى الحقيقة ، فعند ذلك خافت المرأة من التهمة فبادرت إلى أن رمت يوسف عليه السلام بالفعل القبيح ، وقال: ﴿ .. مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والمعنى ظاهر.

فى الآية لطائف:

أحدها : أن (ما) يحتمل أن تكون نافية ، أى ليس جزاؤه إلا السجن ، ويجوز أيضاً أن تكون استفهامية يعنى أى شىء جزاؤه إلا أن يسجن كما تقول : من فى الدار إلا زيد.

ثانيها : إن حبها الشديد ليوسف عليه السلام حملها على أن بدأت بذكر السجن، وأخرت ذكر العذاب، لأن المحب لا يسعى فى إيلام المحبوب ، وأيضاً أنها لم تذكر أن يوسف يجب

---

(١) شهد شاهد : صبى فى المهد انطقه الله ببراءته.

أن يعامل بأحد هذين الأمرين، بل ذكرت ذلك ذكراً كلياً صوناً للمحبوب عن الذكر بالسوء والألم، وأيضاً قالت: ﴿ إلاَّ أن يُسْجَنَ ﴾.

والمراد أن يسجن يوماً أو أقل على سبيل التخفيف، فأما الحبس الدائم فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة، بل يقال: يجب أن يجعل من المسجونين.

ألا ترى أن فرعون هكذا قال حين تهدد موسى عليه السلام في قوله تعالى﴿ .. لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) ﴾[الشعراء].

ثالثهما: أنها لما شاهدت من يوسف عليه السلام أنه استعصم منها مع أنه كان في عنفوان العمر وكمال القوة ونهاية الشهوة، عظم اعتقادها في طهارته ونزاهته فاستحيت أن تقول إن يوسف عليه السلام قصدني بالسوء، وما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب على سبيل التصريح بل اكتفت بهذا التعريض.

فانظر إلى تلك المرأة ما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب وأن هؤلاء الحشوية يرمونه بعد قريب من أربعة آلاف سنة بهذا الذنب القبيح.

رابعهما: أن يوسف عليه السلام أراد أن يضربها ويدفعها عن نفسه، وكان ذلك بالنسبة إليه جارياً مجرى السوء، فقولها: ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ جار مجرور التعريض فلعلها بقلبها كانت تريد إقدامه على دفعها ومنعها، وفي ظاهر الأمر كانت توهم أنه قصدني بما لا ينبغي.

واعلم أن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ولطخت عرض يوسف عليه السلام احتاج يوسف إلى إزالة هذه التهمة فقال: ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ وأن يوسف عليه السلام ما هتك سترها في أول الأمر إلا أنه لما خاف على النفس وعلى العرض أظهر الأمر.

واعلم أن العلامات الكثيرة كانت دالة على أن يوسف عليه السلام هو الصادق.

فالأول: أن يوسف عليه السلام في ظاهر الأمر كان عبدا لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه إلى هذا الحد.

والثاني: أنهم شاهدوا أن يوسف عليه السلام كان يعدو عدواً شديداً ليخرج والرجل الطالب للمرأة لا يخرج من الدار على هذا الوجه.

الثالث: أنهم رأوا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه، وأما يوسف عليه السلام فما كان عليه من أثر من تزيين النفس فكان إلحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى.

الرابع : أنهم كانوا قد شاهدوا أحوال يوسف عليه السلام في المدة الطويلة فما رأوا عليه حالة تناسب إقدامه على مثل هذا الفعل المنكر ، وذلك أيضاً مما يقوى الظن.

الخامس : أن المرأة ما نسبته إلى طلب الفاحشة على سبيل التصريح بل ذكرت كلاماً مجملاً مبهماً ، وأما يوسف عليه السلام فإنه صرح بالأمر ولو أنه كان متهماً لما قدر على التصريح باللفظ الصريح فإن الخائن خائف.

السادس : قيل: إن زوج المرأة كان عاجزاً وآثار طلب الشهوة فى حق المرأة كانت متكاملة فإلحاق هذه الفتنة بها أولى، فلما حصلت هذه الأمارات الكثيرة الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة كان من المرأة استحيا الزوج وتوقف وسكت لعلمه بأن يوسف صادق والمرأة كاذبة.

ثم إنه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلاً آخر يقوى تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه برئ عن الذنب وأن المرأة هى المذنبة ، وهو قوله تعالى﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾.

وفى هذا الشأن ثلاثة أقوال :

القول الأول : أنه كان لها ابن عم وكان رجلاً حكيماً، واتفق فى ذلك أنه كان مع الملك يريد أن يدخل عليها فقال قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص إلا أننا لا ندرى أيكما قدام صاحبه، فإن كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة والرجل كاذب، وإن كان من خلفه فالرجل صادق وأنت كاذبة ، فلما نظروا إلى القميص ورأوا الشق من خلفه قال ابن عمها ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ أي من عملكن ، ثم قال ليوسف أعرض عن هذا واكتمه ، وقال لها استغفرى لذنبك.

وهذا قول طائفة عظيمة من المفسرين.

القول الثانى : وهو أيضاً منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير والضحاك: أن ذلك الشاهد كان صبياً أنطقه الله تعالى فى المهد، فقال ابن عباس: تكلم فى المهد أربعة صغار: شاهد يوسف، وابن ماشطة بنت فرعون، وعيسى ابن مريم، وصاحب جريج الراهب.

ثم أنه تعالى أخبر وقال:﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ ﴾ ذلك يحتمل السيد الذى هو زوجها ويحتمل الشاهد فلذلك اختلفوا فيه ، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ .. ﴾ أي أن قولك: ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ ﴿ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾.

فإن قيل : إنه تعالى لما خلق الإنسان ضعيفاً فكيف وصف كيد المرأة بالعظم، وأيضاً فكيد الرجال قد يزيد على كيد النساء؟

الجواب عن الأول : أن خلقة الإنسان بالنسبة إلى خلقة الملائكة والسماوات والكواكب خلقة ضعيفة وكيد النسوات بالنسبة إلى كيد البشر عظيم، ولا منافاة بين القولين وأيضاً فالنساء لهن في هذا الباب من المكر والحيل ما لا يكون للرجال ولأن كيدهن في هذا الباب يورث العار ما لا يورثه كيد الرجال.

وأعلم أنه لما ظهر للقوم براءة يوسف ﷺ عن ذلك الفعل المنكر حكى تعالى عنه أنه قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ فقيل: إن هذا من قول العزيز، وقيل : أنه من قول الشاهد، ومعناه: أعرض عن ذكر هذه الواقعة حتى لا ينتشر خبرها ولا يحصل العار العظيم بسببها.

وكما أمر يوسف بكتمان هذه الواقعة أمر المرأة بالاستغفار فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾[1] وظاهر ذلك طلب المغفرة، ويحتمل أن يكون المراد من الزوج ويكون معنى المغفرة والعفو والصفح.

وهذا التقدير فالأقرب أن قائل هذا القول هو الشاهد.

ويحتمل أن يكون المراد بالاستغفار من الله، لأن أولئك الأقوام كانوا يثبتون الصانع، إلا أنهم مع ذلك كانوا يعبدون الأوثان بدليل أن يوسف ﷺ قال: ﴿.. أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٣٩﴾[يوسف].

وهذا التقدير، فيجوز أن يكون القائل هو الزوج.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ نسبة لها إلى أنها كانت كثيرة الخطأ فيما تقدم، وهذا أحد ما يدل على أن الزوج عرف في أول الأمر أن الذنب للمرأة لا ليوسف، لأنه كان يعرف عنها إقدامها على ما لا ينبغي.

وقال أبو بكر الأصم : إن ذلك الزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار.

قال صاحب الكشاف : وإنما قال: ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ بلفظ التذكير تغليباً للذكور على الإناث، ويحتمل أن يقال: المراد أنك من نسل الخاطئين، فمن ذلك النسل سرى هذا العرق الخبيث فيك، والله أعلم.

---

(١) قضية الاستغفار (١١).

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ [1] فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[2].

فى الآية مسألتان :

المسألة الأولى : لم لم يقل (قالت نسوة) ؟

قلنا : لوجهين :

الأول : أن النسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقى فلذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث.

الثانى : قال الواحدى تقديم الفعل يدعو إلى إسقاط علامة التأنيث على قياس إسقاط علامة التثنية والجمع.

المسألة الثانية :

قال الكلبى: هن أربع ، امرأة ساقى العزيز ، وامرأة خبازه ، وامرأة صاحب سجنه، وامرأة صاحب دوابه ، وزاد مقاتل وامرأة الحاجب ، والمؤكد أن تلك الواقعة شاعت فى البلد واشتهرت وتحدث بها النساء، وامرأة العزيز هى هذه المعلومة ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ الفتى الحدث الشاب والفتاة الجارية الشابة ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ وفيه مسألتان.

المسألة الأولى : أن الشغاف فيه وجوه :

الأول : أن الشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب، يقال شغفت فلاناً إذا أصبت شغافه كما نقول كبدته أي أصبت كبده، فقول تعالى: ﴿ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أى دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب.

الثانى : أن حبه أحاط بقلبها مثل إحاطة الشغاف بالقلب ، ومعنى إحاطة ذلك الحب بقلبها هو أن اشتغالها بحبه صار حجاباً بينها وبين كل ما سوى هذه المحبة فلا تعقل سواه ولا يخطر ببالها إلا إياه.

---

(١) شغفها حباً : شقا حبه سويداء قلبها.

(٢) اعتدت لهن متكأ : هيأت لهن ما يتكئن عليه - قطعن أيديهن : خدشنها بالسكاكين لفرط ذهولهن ودهشتهن - حاش لله : تنزيها لله عن العجز عن خلق مثله!

الثالث : قال الزجاج : الشغاف حبة القلب وسويداء القلب والمعنى : أنه وصل حبه إلى سويداء قلبها ، وبالجملة فهذه كناية عن الحب الشديد والعشق العظيم.

المسألة الثانية :

قرأ جماعة من الصحابة والتابعين (شغفها) بالغين، قال ابن السكيت : يقال شغفه الهوى إذا بلغ إلى حد الاحتراق، وشغف الهناء بالبعير إذا بلغت منه الألم إلى حد الاحتراق.

وقال ابن الأنباري : الشغف رؤس الجبال، ومعنى شغف بفلان إذا ارتفع حبه إلى أعلى المواضع من قلبه.

المسألة الثالثة : قوله تعالى: ﴿حُبًّا﴾ نصب على التمييز، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي في ضلال عن طريق الرشد بسبب حبها إياه كقوله تعالى ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾.

ثم قال : ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾.

وفي الآية مسألتان :

المسألة الأولى : المراد من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أنها سمعت قولهن.

وإنما سمي قولهن مكرا لوجوه :

الأول : أن النسوة إنما ذكرت ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر إلى وجهه؛ لأنهن عرفن أنهن إذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن.

الثاني : أن امرأة العزيز أسرت إليهن حبها ليوسف وطلبت منهن كتمان هذا السر، فلما أظهرن السر كان ذلك غدراً ومكراً.

الثالث : أنهن وقعن في غيبتها ، والغيبة إنما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر.

المسألة الثانية : أنها لما سمعت أنهن يلمنها على تلك المحبة المفرطة أرادت إبداء عذرها فاتخذت مائدة ودعت جماعة من أكابرهن ، واعتدت لهن متكئاً.

وفي تفسيره وجوه :

الأول : المتكأ النمرق الذي يتكأ عليه.

الثانى: أن المتكأ هو الطعام ، قال العتبى: والأصل فيه أن دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسادة فسمى الطعام متكئاً على الاستعارة.

الثالث : متكأ : أترجا ، وهو قول وهب، وأنكر أبو عبيد ذلك ولكنه محمول على أنها وضعت عندهن أنواع الفاكهة فى ذلك المجلس.

الرابع : متكأ : طعاماً يحتاج إلى أن يقطع بالسكين ، لأن الطعام متى كان كذلك احتاج الإنسان إلى أن يتكأ عليه عند القطع .

ثم نقول : حاصل ذلك أنها دعت أولئك النسوة وأعدت لكل واحدة منهن مجلساً معيناً وآتت كل واحدة منهن سكيناً لأجل قطع اللحم ثم أنها أمرت يوسف عليه السلام بأن يخرج إليهن ويعبر عليهن وأنه عليه السلام ما قدر على مخالفتها خوفاً منها ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ .

وههنا مسائل :

المسألة الأولى : فى « أكبرنه » قولان :

الأول : أعظمنه.

الثانى : « أكبرن » بمعنى حضن.

قال الأزهرى والهاء للسكت، يقال أكبرت المرأة إذا حاضت، وحقيقته دخلت فى الكبر لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر.

وفيه وجه آخر: وهو أن المرأة إذا خافت وفزعت فربما أسقطت ولدها فحاضت، فإن صح تفسير الإكبار بالحيض فالسبب فيه ما ذكرناه.

قال تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ كناية عن دهشتهن وحيرتهن والسبب فى حسن هذه الكناية أنها لما دهشت فكانت تظن أنها تقطع الفاكهة وكانت تقطع يد نفسها ، أو يقال: إنها لما دهشت صابت بحيث لا تميز نابها من حديدها وكانت تأخذ الجانب الحاد من ذلك السكين بكفها فكان يحصل الجراحة فى كفها .

المسألة الثانية : اتفق الأكثرون على أنهن إنما أكبرنه بحب الجمال الفائق والحسن الكامل، قيل: كان فضل يوسف على الناس فى الفضل والحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وعن النبى ﷺ قال:« مررت بيوسف عليه السلام ليلة عرج بى إلى السماء فقلت

لجبريل عليه السلام من هذا ؟ فقال: هذا يوسف » فقيل: يا رسول الله كيف رأيته؟ قال: «كالقمر ليلة البدر».

وقيل: كان يوسف إذا سار فى أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها، وقيل : كان يشبه آدم يوم خلقه ربه، وهذا القول هو الذى اتفقوا عليه.

يحتمل وجه آخر وهو أنهن إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة، وآثار الخضوع والاحتشام ، وشاهدن منه مهابة النبوة وهيئة الملكية، وهى عدم الالتفاف إلى المطعوم والمنكوح، وعدم الاعتداد بهن ، وكان الجمال العظيم مقروناً بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وعظمنه ، ووقع الرعب والمهابة منه فى قلوبهن، وعندى أن حمل الآية على هذا الوجه أولى.

فإن قيل : فإذا كان الأمر كذلك فكيف ينطبق على هذا التأويل قولها : ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ وكيف تصير هذه الحالة عذرا لها فى قوة العشق وإفراط المحبة؟

قلنا : قد تقرر أن متبوع فكأنها قالت لهن مع هذا الخلق العجيب وهذه السيرة الملكية الطاهرة المطهرة فحسنه يوجب الحب الشديد وسيرته الملكية توجب اليأس عن الوصول إليه فلهذا السبب وقعت فى المحبة، والحسرة، والأرق، والقلق، وهذا الوجه فى تأويل الآية أحسن – والله أعلم.

المسألة الثالثة : قرأ أبو عمرو ﴿ وقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ بإثبات الألف بعد الشين وهى رواية الأصمعى عن نافع وهى الأصل؛ لأنها من المحاشاة وهى التنحية والتبعيد.

والباقون بحذف الألف للتخفيف وكثرة دورانها على الألسن اتباعاً للمصحف ، و{حاشا} كلمة تفيد معنى التنزيه.

والمعنى ههنا تنزيه الله تعالى من المعجز؛ حيث قدر على خلق جميل مثله.

وأما قوله تعالى ﴿ .. قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ .. (٥١) ﴾ فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله.

المسألة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ فيه وجهان :

الوجه الأول : وهو المشهور : أن المقصود منه إثبات الحسن العظيم له قالوا:

إن أقبح الأشياء هو الشيطان فكذا ههنا نقرر أن أحسن الأحياء هو الملك، فلما أرادت النسوة المبالغة في وصف يوسف عليه السلام بالحسن شبهنه بالملك.

الوجه الثاني : وهو الأقرب عندي : أن المشهور عند الجمهور أن الملائكة مطهرون عن بواعث الشهوة ، وجوانب الغضب ، ونوازع الهم والخيال، فطعامهم توحيد الله وشرابهم الثناء على الله تعالى.

ثم إن النسوة لما رأين يوسف عليه السلام لم يلتفت إليهن ألبته ورأين عليه هيبة النبوة وهيبة الرسالة وسيما الطهارة قلن : إن ما رأينا فيه أثرا من أثر الشهوة، ولا شيئاً من البشرية، ولا صفة من الإنسانية، فهذا قد تطهر من جميع الصفات المغروزة في البشر ، وقد ترقى إلى حد الإنسانية ، ودخل في الملكية.

قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾[١].

اعلم أن النسوة لما قلن في امرأة العزيز ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ عظم ذلك عليها فجمعتهن ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ فعند ذلك ذكرت أنهن باللوم أحق لأنهن بنظرة واحدة لحقهن أعظم مما نالها مع أنه طال مكثه عندها.

فإن قيل : فلم قالت « فذلكن » مع أن يوسف عليه السلام كان حاضراً؟

الجواب عنه من وجهين :

الأول : قال ابن الأنباري : أشارت بصيغة « ذلكن » إلى يوسف.

الثاني : وهو الذي ذكره صاحب الكشاف وهو أحسن ما قيل أن النسوة كن يقلن إنها عشقت عبدها الكنعاني ، فلما رأينه ووقعن في تلك الدهشة قالت: هذا الذي رأيتموه هو الذي العبد الكنعاني الذي لمتنني فيه، يعني أنكن لم تتصورنه ولو حصلت في خيالكن صورته لتركتن هذه الملامة.

واعلم أنها لما أظهرت عذرها عند النسوة في شدة محبتها له كشفت عن حقيقة الحال فقالت : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾.

---

(١) فاستعصم : فامتنع امتناعاً شديداً وأبى.

واعلم أن هذا التصريح بأنه عليه السلام كان بريئا عن تلك التهمة، وعن السدى أنه قال: ﴿ فاستعصم ﴾ بعد حل السراويل، وما الذى يحمله على إلحاق هذه الزيادة الفاسدة الباطلة بنص الكتاب؟

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾[1] ، والمراد أن يوسف عليه عليه السلام إن لم يوافقها على مرادها يوقع فى السجن وفى الصغار، ومعلوم أن التوعد بالصغار له تأثير عظيم فى حق من كان رفيع النفس عظيم الخطر مثل يوسف عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿ وَلَيَكُونًا ﴾ كان حمزة والكسائى يقفان على ﴿ وَلَيَكُونًا ﴾ بالألف ، وكذلك قوله تعالى ﴿ .. لَنَسْفَعًا .. (١٥) ﴾[العلق] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)[2] فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ﴾.

اعلم أن المرأة لما قالت : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ وسائر النسوة سمعن هذا التهديد فالظاهر أنهن اجتمعن على يوسف عليه السلام وقلن لا مصلحة لك فى مخالفة أمرها وإلا وقعت فى السجن وفى الصغار.

فعند ذلك اجتمع فى يوسف عليه السلام أنواع من الوسوسة :

إحداها : أن زليخا كانت فى غاية الحسن.

ثانيها : أنها كانت ذات مال وثروة، وكانت على عزم أن تبذل الكل ليوسف؛ على أن يساعدها على مطلوبها.

ثالثها : أن النسوة اجتمعن عليه وكل واحدة منهن كانت ترغبه وتخوفه بطريق آخر، ومكر النساء فى هذا الباب شديد.

رابعها : أنه عليه السلام كان خائفاً من شرها وإقدامها على قتله وإهلاكه، فاجتمع فى حق يوسف جميع جهات الترغيب على موافقتها ، وجميع جهات التخويف على مخالفتها؛ فخاف عليه السلام أن تؤثر هذه الأسباب القوية الكثيرة فيه.

---

(١) قضية الإكراه(١٢) .
(٢) أصب إليهن : أمل إلى إجابتهن.

واعلم أن القوة البشرية والطاقة الإنسانية لا تفى بحصول هذه العصمة القوية، فعند هذا التجأ إلى الله تعالى وقال: ﴿ ... رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾.

وقرئ (السجن) بالفتح على المصدر وفيه سؤالان:

السؤال الأول : السجن في غاية المكروهية ، وما دعونا إليه فى غاية المطلوبية، فكيف قال: المشقة أحب إليّ من اللذة؟

الجواب : إن تلك اللذة كانت تستعقب آلاماً عظيمة، وهى الذم فى الدنيا والعقاب فى الآخرة، وذلك المكروه وهو اختيار السجن، كان يستعقب سعادات عظيمة، وهى المدح فى الدنيا والثواب الدائم فى الآخرة.

فلهذا السبب قال :﴿ .. رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾.

السؤال الثانى : أن حبسهم له معصية كما أن الزنا معصية، فكيف يجوز أن يحب السجن مع أنه معصية؟

الجواب: تقدير الكلام أنه إذا كان لابد من التزام أحد الأمرين أعنى الزنا أو السجن، فهذا أولى، لأنه متى وجب التزام أحد شيئين كل واحد منهما شر فأخفهما أولاهما بالتحمل.

ثم قال تعالى:﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أصب إليهن : أمل إليهن ، يقال : صبا إلى اللهو يصبو صبوا إذا مال.

ويفهم من هذه الآية أن الإنسان لا ينصرف عن المعصية إلا إذا صرفه الله تعالى عنها ، قالوا: لأن هذه الآية تدل على أنه تعالى إن لم يصرفه عن ذلك القبح وقع فيه.

وتقريره : أن القدرة والدعى إلى الفعل والترك إن استويا امتنع الفعل، لأن الفعل رجحان لأحد الطرفين ومرجوحية للطرف الآخر وحصولها حال استواء الطرفين جمع بين النقيضين وهو محال، وأن حصل الرحجان فى أحد الطرفين فذلك الرجحان ليس من العبد، وإلا لذهبت المراتب إلى غير النهاية، بل هو من الله تعالى.

فاصرف عبارة عن جعله مرجوحاً لأنه متى صار مرجوحاً صار ممتنع الوقوع لأن الوقوع رجحان ، فلو وقع حال المرجوحية لحصل حال حصول المرجوحية، وهو يقتضى حصول الجمع بين النقيضين وهو محال.

فثبت بهذا أن انصراف العقد عن القبيح ليس إلا من الله تعالى.

وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ .. أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى : اعلم أن زوج المرأة لما ظهر له براءة يوسف عليه السلام فلا جرم لم يتعرض له ، فاحتالت المرأة بعد ذلك بجميع الحيل حتى تحمل يوسف عليه السلام على موافقتها على مرادها ، فلم يلتفت يوسف إليها ، فلما آيست منه احتالت في طريق آخر وقالت لزوجها : إن هذا العبد العبراني قضى في الناس يقول لهم : إني راودته عن نفسه، وأنا لا أقدر على إظهار عذري فإما أن تأذن لي فأخرج واعتذر ، وإما أن تحبسه كما حبستني.

فعند ذلك وقع في قلب العزيز أن الأصلح حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث، وحتى تقل الفضيحة.

فهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ لأن البدأ عبارة عن تغيير الرأي عما كان في الأول.

والمراد من الآيات براءته بقد القميص من دبر، وخمش الوجه وإلزام الحكم إياها بقوله تعالى ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وذكرنا أنه ظهرت هناك أنواع أخرى من الآيات بلغت مبلغ القطع ولكن القوم سكتوا عنها سعياً في إخفاء الفضيحة.

المسألة الثانية : قوله تعالى : ﴿ بَدَا لَهُم ﴾ فعل وفاعله في هذا الموضع قوله تعالى ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ وظاهر هذا الكلام يقتضي إسناد الفعل إلى فعل آخر، إلا أن النحويين اتفقوا على أن إسناد الفعل إلى الفعل لا يجوز، وتقدير الكلام ثم بدا لهم سجنه، إلا أنه أقيم هذا الفعل مقام ذلك الأمر.

المسألة الثالثة : قال أهل اللغة : الحين وقت من الزمان غير محدود يقع على القصير منه، وعلى الطويل، وقال ابن عباس يريد إلى انقطاع المقالة وما شاع في المدينة من الفاحشة.

---

(١) أعصر خمرا : عنباً يؤول لخمر أسقيه للملك.

ثم قيل: الحين ههنا خمس سنين ، وقيل: بل سبع سنين، وقال مقاتل بن سليمان: حبس يوسف اثنتى عشرة سنة.

والصحيح أن هذه المقادير غير معلومة، وإنما القدر المعلوم أنه بقى محبوساً مدة طويلة لقوله تعالى : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ فههنا محذوف والتقدير : لما أرادوا حبسه حبسوه، وحذف ذلك لدلالة قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ عليه، قيل: هما غلامان كانا للملك الأكبر بمصر أحدهما صاحب طعامه، والآخر صاحب شرابه، رفع إليه أن صاحب طعامه يريد أن يسمه وظن أن الآخر يساعده عليه فأمر بحبسهما.

بقى فى الآية عدة أسئلة :

السؤال الأول: كيف عرف الفتيان أن يوسف عليه السلام عالم بالتعبير ؟

الجواب : أنهما رأياه وقد أظهر معرفته بأمور منها تعبير الرؤية فعندما ذكرا له ذلك.

السؤال الثانى : كيف عرف أنهما كانا عبدين للملك؟

الجواب : لقوله تعالى : ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ أى مولاه ولقوله تعالى :﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾.

السؤال الثالث : كيف عرف أن صاحب شراب الملك ، والآخر صاحب طعامه؟

الجواب : رؤيا كل واحد منهما تناسب حرفته ؛ لأن أحدهما رأى أنه يعصر الخمر، والآخر كأنه يحمل فوق رأسه خبزا.

السؤال الرابع : كيف وقعت رؤية المنام ؟

الجواب : فيه قولان :

القول الأول : أن يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لإهله: إنى أعبر الأحلام فقال أحد الفتيين : فلنختبر هذا العبد العبرانى برؤيا نخترعها له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئاً. قال ابن مسعود : ما كان رأيا شيئاً وإنما تحالما ليختبرا علمه.

القول الثانى : قال مجاهد كانا قد رأيا حين دخلا السجن رؤيا فأتيا يوسف عليه السلام فسألاه عنها، فقال الساقى أيها العالم إنى رأيت كأنى فى بستان فإذا بأصل عنبة حسنة فيها ثلاثة عناقيد من عنب فجنبتها وكان كأس الملك بيدى فعصرته فيه، وسقيتها الملك فشربه.

فذلك قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾.

وقال صاحب الطعام إنى رأيت كأن فوق رأسى ثلاث سلال ، فيها خبز وألوان وأطعمة، وإذا سباع الطير تنهش منه.

فذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ﴾.

السؤال الخامس : كيف عرف يوسف ﷺ أن المراد من قوله تعالى ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ رؤيا المنام؟

الجواب لوجهين :

الأول : أنه لو لم يقصد النوم لكان ذكر قوله تعالى (أعصر) يغنيه عن ذكر قوله تعالى (أرانى).

الثانى : دل عليه قوله تعالى: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾.

السؤال السادس : كيف يعقل عصر الخمر؟

الجواب : فيه ثلاثة أقوال.

الأول : أن يكون المعنى أعصر العنب خمراً، أى العنب الذى يكون عصيره خمراً فحذف المضاف.

الثانى : أن العرب تسمى الشىء باسم ما يؤول إليه إذا انكشف المعنى، ولم يلتبس يقولان فلان يطبخ دبسا وهو يطبخ عصيرا.

الثالث: قال أبو صالح : أهل عمان يسمون العنب خمراً فوقعت هذه اللفظة إلى أهل مكة فنطقوا بها قال الضحاك : نزل القرآن بألسنة جميع العرب.

السؤال السابع : ما معنى التأويل فى قوله تعالى ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾.

الجواب : تأويل الشىء ما يرجع إليه وهو الذى يؤول إليه آخر ذلك الأمر.

السؤال الثامن : ما المراد من قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ؟

الجواب من وجوه :

الأول : معناه إنا نراك تؤثر الإحسان ، وتأتى بمكارم الأخلاق وجميع الأفعال الحميدة.

قيل :إنه كان يعود مرضاهم ويؤنس حزينهم ، فقالوا: إنك من المحسنين، أي فى حق الشركاء والأصحاب.

قيل: إنه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فقالوا: إنك من المحسنين فى أمر الدين ، ومن كان كذلك فإنه يوثق بما يقوله فى تعبير الرؤيا ، وفى سائر الأمور.

وقيل: المراد ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فى علم التعبير وذلك لأنه متى عبر لم يخطىء كما قال تعالى ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾.

روى عن النبى ﷺ أنه قال:« الرؤيا ثلاثة : رؤيا ما يحدث به الرجل نفسه، ورؤيا تحدث من الشيطان ، ورؤيا التى هى الرؤيا الصادقة حقه » وهذا تقسيم صحيح فى العلوم العقلية.

وقال ﷺ :« رؤيا الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ».

قوله تعالى: ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا[1] مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨)﴾[يوسف].

وفى الآية مسائل :

المسألة الأولى : اعلم أن المذكور فى هذه الآية ليس بجواب لما سألا عنه فلابد ههنا من بيان الوجه الذى لأجله عدل عن ذكر الجواب إلى هذا الكلام.

والعلماء ذكروا فيه وجوهاً.

الأول : أنه لما كان جواب أحد السائلين أنه يطلب، ولا شك أنه متى سمع ذلك عظم حزنه وتشتد نفرته عن سماع هذا الكلام، فرأى أن الصلاح أن يقدم قبل ذلك ما يؤثر معه بعلمه وكلامه، حتى إذا جاء بها من بعد ذلك خرج جوابه عن أن يكون بسبب تهمة وعداوة.

الثانى : لعله عليه السلام أراد أن يبين أن درجته فى العلم أعلى وأعظم مما اعتقدوا فيه، وذلك لأنهم طلبوا منه علم التعبير، ولا شك أن العلم مبنى على الظن والتخمين، فبين لهما أنه لا يمكنه الإخبار عن الغيوب على سبيل القطع واليقين مع عجز كل الخلق عنه.

وإذا كان الأمر كذلك فبأن يكون فائقاً على كل الناس فى علم التعبير كان أولى.

---

(١) ذلكما : التأويل والإخبار بما يأتى.

فكان المقصود من ذكر تلك المقدمة تقرير كونه فائقاً فى علم التعبير وأصلا فيه إلى ما لم يصل غيره.

الثالث : قال السدى : ﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ فى النوم بين بذلك أن علمه بتأويل الرؤيا ليس بمقصور على شىء دون غيره، ولذلك قال : ﴿ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾.

الرابع : لعله عليه السلام لما علم أنهما اعتقدوا فيه وقبلا قوله ، فأورد عليهما ما دل على كونه رسولا من عند الله تعالى، فإن الاشتغال بإصلاح مهمات الدين أولى من الاشتغال بمهمات الدنيا.

الخامس : لعله ﷺ لما علم أن ذلك الرجل سيصلب اجتهد فى أن يدخله فى الإسلام حتى لا يموت على الكفر، ولا يستوجب العقاب الشديد ﴿ .. لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾[الأنفال].

السادس : قوله تعالى:﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ محمول على اليقظة.

والمعنى : أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا أخبرتكما أي طعام هو، وأى لون هو ، وكم هو، وكيف يكون عاقبته، أي إذا أكله الإنسان فهو يفيد الصحة أو السقم.

وفيه وجه آخر : قيل : كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً فأرسله إليه، فقال يوسف ﷺ لا يأتيكما طعام إلا أخبرتكما أن فيه سما أو لا.

هذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾.

وحاصل راجع إلى أنه ادعى الإخبار عن الغيب، وهو يجرى مجرى قول عيسى ﷺ كما حكى القرآن الكريم ﴿ .. وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

فالوجوه الثلاثة الأول لتقرير كونه فائقاً فى علم التعبير، والوجوه الثلاثة الأخرى لتقرير كونه نبياً صادقاً من عند الله تعالى.

فإن قيل : كيف يجوز حمل الآية على إدعاء المعجزة مع أنه لم يتقدم إدعاء للنبوة؟

قلنا : إنه وإن لم يذكر ذلك لكن يعلم أنه لابد وأن يقال: إنه كان قد ذكره، وأيضا ففى قوله تعالى:﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ وفى قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ﴾ ما يدل على ذلك.

ثم قال تعالى :﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ أي لست أخبركما على جهة الكهانة والنجوم، وإنما أخبركما بوحى من الله وعلم حصل بتعليم الله.

ثم قال تعالى:﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾.

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : فى قولـــه تعالى: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ توهـم أنـــه عليه السلام كان فى هذه الملة.

فنقول جوابه من وجهين :

الأول : أن الترك عبارة عن عدم التعرض للشىء وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضاً فيه.

الثانى : وهو الأصح : أن يقال : إنه عليه السلام كان عبداً لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد، ولعله قيل ذلك كان لا يظهر التوحيد والإيمان خوفاً منهم على سبيل التقية ثم أنه أظهره فى هذا الوقت، فكان هذا جارياً مجرى ترك ملة أولئك الكفرة بحسب الظاهر.

المسألة الثانية : تكرير لفظ «هم» فى قوله تعالى: ﴿ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ لبيان اختصاصهم بالكفر، ولعل إنكارهم للمعاد أشد من إنكارهم للمبدأ فلأجل مبالغتهم فى إنكار المعاد كرر هذا اللفظ للتأكيد.

وأعلم أن قوله تعالى: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ إشارة إلى علم المبدأ وقوله تعالى :﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ إشارة إلى علم المعاد، ومن تأمل فى القرآن المجيد وتفكر فى كيفية دعوة الأنبياء عليهم السلام علم أن المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب صرف الخلق إلى الإقرار بالتوحيد وبالمبدأ والمعاد، وأن ما وراء ذلك عبث.

ثم قال تعالى:﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ وفيه عدة أسئلة:

السؤال الأول : ما الفائدة فى ذكر هذا الكلام؟

الجواب : أنه عليه السلام لما ادعى النبوة وتحدى بالمعجزة وهو علم الغيب ، قرن به كونه من أهل بيت النبوة، وأن أباه وجده وجد أبيه كانوا أنبياء الله ورسله، فإن الإنسان متى ادعى حرفة أبيه وجده لم يستبعد ذلك منه.

وأيضاً فكما أن نبوة إبراهيم عليه السلام وإسحاق ويعقوب كان أمراً مشهوراً في الدنيا ، فإذا ظهر أنه ولدهم عظموه ونظروا إليه بعين الإجلال ، فكان انقيادهم له أعم وتأثر قلوبهم بكلامه أكمل.

السؤال الثاني : لما كان نبياً فكيف قال: إني اتبعت ملة آبائي ، والنبي لا بد وأن يكون مختصاً بشريعة نفسه؟

قلنا : لعل مراده التوحيد الذي لم يتغير ، وأيضاً لعله كان رسولا من عند الله، إلا أنه كان على شريعة إبراهيم عليه السلام .

السؤال الثالث : لم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ وحال كل المكلفين كذلك؟

الجواب : ليس المراد بقوله تعالى ﴿مَا كَانَ لَنَا﴾ أنه حرم ذلك عليهم، بل المراد أنه تعالى ظهر آباءه عن الكفر، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾[مريم].

السؤال الرابع : ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿مِن شَيْءٍ﴾؟

الجواب : إن أصناف الشرك كثيرة، فمنهم من يعبد الأصنام ومنهم من يعبد النار، ومنهم من يعبد الكواكب، ومنهم من يعبد العجل والنفس والطبيعة، فقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ رد على كل هؤلاء الطوائف والفرق، وإرشاد إلى الدين الحق، وهو أنه لا موجد إلا الله ولا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ وفيه مسألة ، وهي أنه تعالى قال: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ فقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من عدم الإشراك. ثم بين أن أكثر الناس لا يشكرون ، ويجب أن يكون المراد أنهم لا يشكرون الله على نعمة الإيمان.

حكى أن واحداً من أهل السنة دخل على بشر بن المعتمر، وقال: هل تشكر الله على الإيمان أم لا؟[1] فإن قلت لا ، فقد خالفت الإجماع، وإن شكرته فكيف تشكره على ما ليس فعلاً له، فقال له بشر: إنما نشكره على أنه تعالى أعطانا القدرة والعقل والآلة، فيجب علينا أن نشكره على إعطاء القدرة والآلة ، فأما أن نشكره على الإيمان مع أن الإيمان ليس

(١) قضية الشكر (١٣).

فعلا له، فذلك باطل ، وصعب الكلام على بشر فدخل عليه ثمامة بن الأشرس، وقال: إنا لا نشكر الله على الإيمان، بل الله يشكرنا عليه كما قال ﴿ .. فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾[الإسراء] ، فقال بشر: لما صعب الكلام سهل.

وبين تعالى عدم الإشراك من فضل الله، ثم بين أن أكثر الناس لا يشكرون هذه النعمة، وإنما ذكره على سبيل الذم فدل هذا على أنه يجب على كل مؤمن أن يشكر الله تعالى على نعمة الإيمان وحينئذ تقوى الحجة وتكمل الدلالة.

قوله تعالى : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾(١).

في الآية مسألتان :

المسألة الأولى : قوله تعالى :﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾ يريد صاحبي في السجن، ويحتمل أيضاً أنه لما حصلت مرافقتهما في السجن مدة قليلة أضيفا إليه وإذا كانت المرافقة القليلة كافية في كونه صاحبا فمن عرف الله وأحبه طول عمره أولى بأن يبقى عليه اسم المؤمن العارف المحب.

المسألة الثانية : أعلم أنه عليه السلام لما ادعى النبوة في الآية الأولى، وكان إثبات النبوة مبيناً على إثبات الإلهيات لا جرم شرع في هذه الآية في تقرير الإلهيات.

ولما كان أكثر الخلق مقرين بوجود الإله العالم القادر، وإنما الشأن في أنهم يتخذون أصناماً على صورة الأرواح الفلكية ويعبدونها ويتوقعون حصول النفع والضر منها لا جرم كان سعي أكثر الأنبياء في المنع من عبادة الأوثان، فكان الأمر على هذا القانون في زمان يوسف عليه السلام .

فلهذا السبب شرع ههنا في ذكر ما يدل على فساد القول بعبادة الأصنام.

وذكر أنواعاً من الدلائل والحجج :

الحجة الأولى : قوله تعالى :﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ وتقرير هذه الحجة أن نقول: أن الله تعالى بين أن كثرة الآلهة توجب الخلل والفساد في هذا العالم وهو

(١) الدين القيم : المستقيم أو الثابت بالبراهين.

قوله تعالى﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. ﴿٢٢﴾ ﴾[الأنبياء] فكثرة الآلهة توجب الفساد والخلل، وكون الإله واحداً يقتضى حصول النظام وحسن الترتيب.

فلما قرر هذا المعنى فى سائر الآيات، قال ههنا: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ والمراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار.

الحجة الثانية : أن هذه الأصنام معمولة لا عاملة ومقهورة لا قاهرة فإن الإنسان إذا أراد كسرها وإبطالها قدر عليها فهى مقهورة لا تأثير لها، ولا يتوقع حصول منفعة، ولا مضرة من جهتها ، وإله العالم فعال قهار قادر يقدر على إيصال الخيرات ودفع الشرور والآفات، فكان المراد أن عبادة الآلهة المقهورة الذليلة من عباد الله الواحد القهار.

فقوله تعالى: ﴿أَأَرْبَابٌ﴾ إشارة إلى الكثرة فجعل فى مقابلته كونه تعالى واحداً.

قوله تعالى : ﴿مُّتَفَرِّقُونَ﴾ إشارة إلى كونها مختلفة فى الكبر والصغر، واللون والشكل، وكل ذلك إنما حصل بسبب أن الناحت والصانع يجعله على تلك الصورة.

فقوله تعالى: ﴿مُّتَفَرِّقُونَ﴾ إشارة إلى كونها مقهورة عاجزة ، وجعل فى مقابلته كونه تعالى قهاراً.

فبهذا الطريق الذى شرحناه اشتملت هذه الآية على هذين النوعين الظاهرين.

الحجة الثالثة : أن يكون تعالى واحداً يوجب عبادته، لأن لو كان له ثان لم نعلم من الذى خلقنا ورزقنا ودفع الشرور والآفات عنا، فيقع الشك فى أنا نعبد هذا أم ذاك، وفيه إشارة إلى ما يدل على فساد القول بعبادة الأوثان.

الحجة الرابعة : أن بتقدير أن يساعد على أن هذه الأصنام تنفع وتضر على ما يقوله أصحاب الطلسمات ، إلا أنه لا نزاع فى أنها تنفع فى أوقات مخصوصة وبحسب آثار مخصوصة[1] ، والإله تعالى قادر على جميع المقدورات فهو قهار على الإطلاق نافذ المشيئة والقدرة فى كل الممكنات على الإطلاق فكان الاشتغال بعبادته أولى.

الحجة الخامسة : وهى شريفة عالية، وذلك لأن شرط القهار أن لا يقهره أحد سواه وأن يكون هو قهاراً لكل ما سواه، وهذا يقتضى أن يكون الإله واجب الوجود لذاته إذ لو كان ممكنا لكان مقهوراً لا قاهرا ويجب أن يكون واحدا؛ إذ لو حصل فى الوجود واجبان لما كان قاهراً لكل ما سواه، فالإله لا يكون قهارا إلا إذا كان واجباً لذاته وكان واحداً.

---

(١) هى لا تنفع ولا تضر إلا بقدر الله.

ثم قال تعالى : ﴿ما تعْبُدُونَ من دُونه إلاَّ أسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أنتُمْ وآبَاؤُكُم مَّا أنزَلَ اللَّهُ بهَا من سُلْطَانٍ﴾.

وفيه سؤال : وهو أنه قال فيما قال هذه الآية ﴿أأرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ وذلك يدل على وجود هذه المسميات.

ثم قال عقب تلك الآية ﴿ما تَعْبُدُونَ من دُونه إلاَّ أسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾ وهذا يدل على أن المسمى غير حاصل، وبينهما تناقض.

الجواب : أن الذات موجودة حاصلة إلا أن المسمى بالإله غير حاصل، وبيانه من وجهين:

الأول : إن ذوات الأصنام وإن كانت موجودة إلا أنها غير موصوفة بصفات الألهية، وإذا كان كذلك كان الشيء هو مسمى بالإله في الحقيقة غير موجود ولا حاصل.

الثاني : يروى أن عبدة الأوثان مشبهة فاعتقدوا أن الإله هو النور الأعظم وأن الملائكة أنوار صغيرة ووضعوا على صورة تلك الأنوار هذه الأوثان ومعبودهم في الحقيقة هو تلك الأنوار السماوية.

وهذا قول المشبه فإنهم تصوروا جسماً مستقراً على العرش ويعبدونه، وهذا المتخيل غير موجود ألبته فصح أنهم لا يعبدون إلا مجرد الأسماء.

وأعلم أن جماعة ممن يعبدون الأصنام قالوا نحن لا نقول: إن هذه الأصنام آلهة العالم بمعنى أنها هي التي خلقت العالم إلا إننا نطلق عليها اسم الآلهة ونعبدها ونعظمها لاعتقادنا أن الله أمرنا بذلك.

فأجاب الله تعالى عنه، فقال أما تسميتها بالآلهة فما أمر الله تعالى بذلك وما أنزل في حصول هذه التسمية حجة ولا برهاناً ولا دليلاً ولا سلطاناً ، وليس لغير الله حكم واجب القبول ولا أمر واجب الالتزام بل الحكم والأمر والتكليف ليس إلا له.

ثم أنه أمر أن لا تعبدوا إلا إياه، وذلك لأن العبادة نهاية التعظيم والإجلال فلا تليق إلا بمن حصل منه نهاية الإنعام وهو الإله تعالى لأنه منه الخلق والإحياء والعقل والرزق والهداية، ونعم الله كثيرة وجهات إحسانه في الخلق غير متناهية.

ثم إنه تعالى لما بين هذه الأشياء قال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ وتفسيره أن أكثر الخلق يسندون حدوث الحوادث الأرضية إلى الاتصالات الفلكية

والمناسبات الكوكبية لأجل أنه تقرر في العقول أن الحادث لابد له من سبب، فإذا رأوا أن تغير أحوال هذا العالم في الحر والبرد والفصول الأربعة، إنما يحصل عند تغير أحوال الشمس في أرباع الفلك وربطوا الفصول الأربعة بحركة الشمس.

ثم لما شاهدوا أن أحوال النبات والحيوان مختلفة بحسب اختلاف الفصول الأربعة ربطوا حدوث النبات وتغير أحوال الحيوان باختلاف الفصول الأربعة.

فبهذا الطريق غلب على طباع أكثر الخلق أن المدبر لحدوث الحوادث في هذا العالم هو الشمس والقمر وسائر الكواكب.

ثم أنه تعالى إذا وفق إنساناً حتى ترقى من هذه الدرجة وعرف أنها في ذواتها وصفاتها مفتقرة إلى موجود قاهر قادر عليم حكيم ، فذلك الشخص يكون في غاية الندرة؛ فلهذا قال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴾[يوسف].

أعلم أنه عليه السلام لما قرر أمر التوحيد والنبوة عاد إلى الجواب عن السؤال الذى ذكراه، والمعنى ظاهر.

وذلك لأن الساقى لما قص رؤياه على يوسف ، وقد ذكرنا كيف قص عليه قال له يوسف: ما أحسن ما رأيت، أما حسن العنبة فهو حسن حالك، وأما الأغصان الثلاثة فثلاثة أيام يوجه إليك الملك عند انقضائهن فيردك إلى عملك فتصير كما كنت بل أحسن.

وقال للخباز لما قص عليه : بئسما رأيت السلال الثلاثة ثلاثة أيام يوجه إليك الملك عند انقضائهن فيصلبك وتأكل الطير من رأسك.

ثم نقل فى التفسير أنهما قالا ما رأينا شيئاً فقال كما حكى الله تعالى: ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾.

واختلف فيما لأجله قالا ما رأينا شيئاً فقيل إنهما وضعا هذا الكلام ليختبرا علمه بالتعبير مع أنهما ما رأيا شيئا وقيل: إنهما لما كرها ذلك الجواب قالا ما رأينا شيئاً.

فإن قيل : هذا الجواب الذى ذكره يوسف عليه السلام ذكره بناء على الوحى من قبل الله تعالى أو بناء على علم التعبير، والأول باطل بأن ابن عباس رضى الله عنهما نقل إنما ذكره على سبيل التعبير، وأيضاً قال: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا (٤٢) ﴾.

ولو كان ذلك التعبير مبنياً على الوحى لكان الحاصل منه القطع واليقين لا الظن والتخمين، والثانى أيضاً باطل: لأن علم التعبير مبنى على الظن والحسبان.

الجواب : لا يبعد أن يقال: إنهما لما سألاه عن ذلك المنام صدقا فيه أو كذب، فإن الله تعالى أوحى إليه أن عاقبة كل واحد منهما تكون على الوجه المخصوص، فلما نزل الوحى بذلك الغيب عند ذلك السؤال وقع فى الظن أنه ذكره على سبيل التعبير.

ولا يبعد أيضاً أن يقال: إنه بنى ذلك الجواب على علم التعبير.

وقوله تعالى: ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ ما عنى به أن الذى ذكراه واقع لا محالة بل عنى به أنه حكمه فى تعبير ما سألاه عنه ذلك الذى ذكره.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾[يوسف].

فيه مسائل :

المسألة الأولى : اختلفوا فى أن الموصوف بالظن هو يوسف عليه السلام، أو الناجى.

فعلى الأول كان المعنى: وقال الرجل الذى ظن يوسف عليه السلام كونه ناجياً، وعلى هذا القول ففيه وجهان :

الوجه الأول : أن يحمل هذا الظن على العلم واليقين، وهذا إذا قلنا بأنه عليه السلام إنما ذكر ذلك التعبير بناء على الوحى قال هذا القائل وورود لفظ الظن بمعنى اليقين كثير فى القرآن ، قال تعالى﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ .. (٤٦) ﴾[البقرة] وقال تعالى: ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) ﴾[الحاقة].

الوجه الثانى : أن يحمل هذا الظن على حقيقة الظن، وهذا إذا قلنا أنه عليه السلام ذكر ذلك التعبير لا بناء على الوحى، بل على الأصول المذكورة فى ذلك العلم، وهى لا تفيد إلا الظن والحسبان.

المسألة الثانية : قال يوسف عليه السلام لذلك الرجل الذى حكم بأنه يخرج من الحبس ويرجع إلى خدمة الملك: (اذكرنى عند الملك) والمعنى : اذكر عنه أنه مظلوم من جهة إخوته لما أخرجوه وباعوه، ثم أنه مظلوم من جهة إخوته لما أخرجوه وباعوه ، ثم أنه مظلوم فى هذه الواقعة التى لأجلها حبس ، فهذا هو المراد من الذكر.

ثم قال تعالى ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ وفيه قولان :

القول الأول : إنه راجع إلى يوسف، والمعنى أن الشيطان أنسى يوسف أن يذكر ربه.

وعلى هذا القول ففيه وجهان :

الوجه الأول : أن تمسكه بغير الله كان مستدركاً عليه، وتقريره من وجوه.

الأول : أن مصلحته كانت فى أن لا يرجع فى تلك الواقعة إلى أحد من المخلوقين وأن لا يعرض حاجته على أحد سوى الله، وأن يقتدى بجده إبراهيم عليه السلام ، فإنه حين وضع فى المنجنيق ليرمى إلى النار جاء جبريل عليه السلام وقال: هل من حاجة؟

فقال أما إليك فلا، فلما رجع يوسف إلى المخلوق لا جرم وصف الله ذلك الشيطان أنساه ذلك التفويض، وذلك التوحيد، ودعاه إلى عرض الحاجة إلى المخلوقين.

ثم لما وصفه بذلك ذكر أنه بقى لذلك السبب فى السجن بضع سنين.

والمعنى أنه لما عدل الانقطاع إلى ربه إلى هذا المخلوق عوقب بأن لبث فى السجن بضع سنين.

وحاصل الأمر أن رجوع يوسف إلى المخلوق صار سبباً لأمرين:

أحدهما : أنه صار سبباً لاستيلاء الشيطان عليه حتى أنساه ذكر ربه.

ثانيهما : أنه صار سبباً لبقاء المحنة عليه مدة طويلة.

قوله تعالى: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي سيدك، وذلك معروف فى اللغة أن يقال للسيد رب ، قال الأعشى:

ربى كريم لا يكدر نعمة ... وإذا تنوشد فى المهارق أنشدا

أي ذكر ما رأيته، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملك، وأخبره أنى مظلوم محبوس بلاذنب ، وفى صحيح مسلم وغيره عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ : « لا يقل أحدكم اسق ربك اطعم ربك وضىء ربك ولا يقل أحدكم ربى وليقل سيدى مولاى ولا يقل أحدكم عبدى أمتى وليقل فتاتى غلامى » ، وفى القرآن : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ (إلى ربك) ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ أي صاحبة، يعنى العزيز، ويقال لكل من قام بإصلاح شىء وإتمامه قد ربه يربه ، فهو رب له.

الثانى : أن يوسف عليه السلام قال فى إبطال عبادة الأوثان: ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ثم أنه ههنا أثبت رباً غيره حيث قال: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ ومعاذ

الله أن يقال :إنه حكم عليه بكونه ربا بمعنى كونه إلهاً، بل حكم عليه بالربوبية، كما يقال : رب الدار ورب الثوب، على أن إطلاق لفظ الرب عليه بحسب الظاهر يناقض نفى الأرباب.

الثالث : أنه تعالى قال فى تلك الآية: ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ وذلك نفى المشرك على الإطلاق ، وتفويض الأمور بالكلية إلى الله تعالى، فههنا الرجوع إلى غير الله تعالى كالمناقض لذلك التوحيد.

واعلم أن الاستعانة بالناس فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهذا وإن كان جائزاً لعامة الخلق إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية، وأن لا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب.

الوجه الثانى: فى تأويل الآية أن يقال: هب أنه تمسك بغير الله وطلب من ذلك الساقى أن يشرح عند ذلك الملك، إلا أنه كان من الواجب عليه أن لا يخلى ذلك الكلام من ذكر الله مثل أن يقول إن شاء الله أو قدر الله، فلما أخلاه عن هذا الذكر وقع هذا الاستدراك.

القول الثانى : أن يقال إن قوله تعالى﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ راجع إلى الناجى.

والمعنى : إن الشيطان أنسى ذلك الفتى أن يذكر يوسف للملك حتى طال الأمر ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ بهذا السبب.

ومن الناس من قال القول الأول أولى لما روى عنه عليه الصلاة والسلام (أنه) قال: «رحم الله يوسف لو لم يقل - اذكرنى عند ربك - ما لبث فى السجن».

وعن قتادة أن يوسف عليه السلام عوقب بسبب رجوعه إلى غير الله.

وعن إبراهيم التيمى أنه لما انتهى إلى باب السجن قال له صاحبه : ما حاجتك؟.

قال : أن تذكرنى عند رب سوى الرب الذى قال يوسف.

قوله تعالى: ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ الضمير فى (فأنساه) فيه قولان : أحدهما : أنه عائد إلى يوسف عليه السلام، أي أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل؛ وذلك أنه لما قال يوسف لساقى الملك - حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك - ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ نسى فى ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق ، فعوقب باللبث، قال عبدالعزيز بن عمير الكندى: دخل جبريل على يوسف النبى عليه السلام فى السجن فعرفه يوسف، فقال: يا أخا المنذرين! مالى أراك بين الخاطئين؟! فقال جبريل عليه السلام: يا طاهر الطاهرين! يقرئك السلام رب العالمين ، ويقول: أما استحييت إذا استغثت بالآدميين ؟! وعزتى! لألبثنك فى السجن بضـــع سنين، فقــال :

يا جبريل! أهو عنى راض؟ قال: نعم! قال: لا أبالى الساعة، وروى أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى فى ذلك وطول سجنه، وقال له : يا يوسف ! من خلصك من القتل من أيدى إخوتك؟ قال : الله تعالى، قال: فمن أخرجك من الجب؟ قال: الله تعالى، قال: فمن عصمك من الفاحشة؟ قال: الله تعالى، قال: فمن صرف عنك كيد النساء؟ قال: الله تعالى، قال: فكيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله؟ قال: يارب كلمة زلت منى! أسألك بإله إبراهيم وإسحق والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمنى ، فقال له جبريل: فإن عقوبتك أن تلبث فى السجن بضع سنين.

المسألة الثالثة : الاستعانة بغير الله فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة لا إنكار عليه، إلا أنه لما كان مستدركاً من المحققين المتوغلين فى بحار العبودية لا جرم صار يوسف عليه السلام مؤاخذاً به.

وعند هذا نقول : الذى يصير مؤاخذاً بهذا القدر لأن يصير مؤاخذاً بالإقدام على طلب الزنا ومكافأة الإحسان بالإساءة كان أولى، فلما رأينا الله تعالى أخذه بهذا القدر ، ولم يؤاخذه فى تلك القضية ألبته، وما عابه بل ذكره بعظم وجوه المدح والثناء علمنا أنه عليه السلام كان مبرأ مما نسبه الجهال والحشوية إليه.

المسألة الرابعة : الشيطان يمكنه إلقاء الوسوسة ، وأما النسيان فلا ، لأنه عبارة عن إزالة العلم عن القلب، والشيطان لا قدرة له عليه ، وإلا لكان قد أزال معرفة الله تعالى عن قلوب بنى آدم.

جوابه : أنه يمكنه من حيث أنه بوسوسته يدعو إلى سائر الأعمال وإشغال الإنسان بسائر الأعمال يمنعه عن استحضار ذلك العلم وتلك المعرفة.

المسألة الخامسة : قوله تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ فيه بحثان.

البحث الأولى : بحسب اللغة : قال الزجاج : اشتقاقه من «بضعت» بمعنى قطعت، ومعناه القطعة من العدد، قال الفراء: ولا يذكر البضع إلا مع عشرة أو عشرين إلى التسعين، وذلك يقتضى أن يكون مخصوصاً بما بين الثلاثة إلى التسعة ، وقال هكذا رأيت العرب يقولون وما رأيتهم بضع ومائه.

وروى الشعبى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه :«كم البضع» قالوا الله ورسوله أعلم قال:« ما دون العشرة ».

البحث الثانى : اتفق الأكثرون على أن المراد ههنا ببضع سنين : سبع سنين، قالوا: عن يوسف عليه السلام حين قال لذلك الرجل: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ كان قد بقى فى السجن خمس سنين ، ثم بقى بعد ذلك سبع سنين.

قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما تضرع يوسف عليه السلام إلى ذلك الرجل كان قد اقترب وقت خروجه فلما ذكر ذلك لبث فى السجن بعده سبع سنين.

وروى أن الحسن روى قوله صلوات الله عليه وسلامه «رحم الله يوسف، لولا الكلمة التى قالها لما لبث فى السجن هذه المدة الطويلة» ثم بكى الحسن ، وقال : نحن إذا نزل بنا أمر تضرعنا إلى الناس.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ(1) ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾(2)﴾[يوسف].

أعلم أنه تعالى إذا أراد شيئاً هيأ له أسباباً، ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر فى النوم سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتعلت العجاف السمان، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعاً أخر يابسات، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها.

فجمع الكهنة وذكرها لهم، وهو المراد من قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ فقال القوم هذه الرؤيا مختلطة ولا نقدر على تأويلها وتعبيرها؛ فهذا ظاهر الكلام.

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : قال الليث : العجف ذهاب السمن، والفعل عجف يعجف والذكر أعجف والأنثى عجفاء والجمع عجاف فى الذكران والإناث، وليس فى كلام العرب أفعل وفعلاء جمعا على فعال غير أعجف وهى شاذة حملوها على لفظ سمان فقالوا: سمان وعجاف لأنهما نقيضان. ومن دأبهم حمل النظير على النظير، والنقيض على النقيض.

وبقى مجهولاً من وجه آخر عظم تشوف الناس إلى تكميل تلك المعرفة وقويت الرغبة فى إتمام الناقص، لاسيما إذا كان الإنسان عظيم الشأن واسع المملكة، وكان ذلك الشىء دالاً على الشر من بعض بتعبير هذه الرؤيا.

(1) عجاف مهازيل جداً . تعبرون : تعلمون تأويلها وتفسيرها.
(2) أضغاث أحلام : تخاليطها وأباطيلها.

ثم إنه تعالى أعجز المعبرين الذين حضروا عند ذلك الملك عن جواب هذه المسألة وعماه عليهم ليصير ذلك سبباً لخلاص يوسف من تلك المحنة.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ[1] أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

اعلم أن الملك لما سأل الملأ عن الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب قال الشرابى إن فى الحبس رجلاً فاضلاً صالحاً كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلها فصدق فى الكل وما أخطأ فى حرف، فإن أذنت مضيت إليه وجئتك بالجواب، فهذا هو قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ﴾.

وحاصل الكلام أنه ربما أن المراد وادكر بعد مضى الأوقات الكثيرة من الوقت الذى أوصاه يوسف عليه السلام بذكره عند الملك، والمراد وادكر بعد أن وجد النعمة عند ذلك الملك، أو المراد وادكر بعد النسيان.

فإن قيل : قوله تعالى: ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ يدل أن الناسى هو الشرابى، وأنتم تقولون الناسى هو يوسف عليه السلام.

قلنا : قال ابن الأنبارى : ادكر بمعنى ذكر وأخبر، وهذا لا يدل على سبق النسيان ، فلعل الساقى إنما لم يذكره للملك خوفاً من أن يكون إذكاراً لذنبه الذى من أجله حبسه فيزداد الشر.

ويحتمل أيضاً أن يقال: حصل النسيان ليوسف عليه السلام وحصل أيضاً لذلك الشرابى.

وأما قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ خطاب إما للملك والجمع أو للملك وحده على سبيل التعظيم.

أما قوله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ ففيه محذوف والتقدير : فأرسل وأتاه وقال أيها الصديق، والصديق هو البالغ فى الصدق وصفه بهذه الصفة لأنه لم يجرب عليه كذباً وقيل: لأنه صدق فى تعبير رؤياه وهذا يدل على أن من أراد أن يتعلم من رجل شيئاً فإنه يجب عليه أن يعظمه وأن يخاطبه بالألفاظ المشعرة بالإجلال.

---

(١) وادكر بعد أمة (تذكر بعد مدة طويلة).

ثم أنه أعاد السؤال بعين اللفظ الذى ذكره الملك ونعم ما فعل فإن تعبير الرؤيا قد يختلف بسبب اختلاف اللفظ، كما هو مذكور فى ذلك العلم.

أما قوله تعالى: ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فالمراد لعلى أرجع إلى الناس بفتواك لأنه رأى عجز سائر المعبرين قال لعلى ارجع إلى الناس بفتواك لأنه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة قال: ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ [1] ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ [2] ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [3].

أعلم أنه عليه السلام ذكر تعبير تلك الرؤيا فقال: تزرعون وهو خبر بمعنى الأمر، كقوله تعالى ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ .. ﴿٢٢٨﴾ ﴾[البقرة]، و ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ .. ﴿٢٣٣﴾ ﴾[البقرة]، وإنما يخرج الخبر بمعنى الأمر فى صورة الخبر، للمبالغة فى الإيجاب، فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه.

والدليل على كونه فى معنى الأمر قوله تعالى: ﴿ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ دَأَبًا ﴾،

قال أهل اللغة الدأب استمرار الشئ على حالة واحدة، وهو دائب بفعل كذا إذا استمر فى فعله، وقد دأب يدأب دأباً أى زراعة متوالية فى هذه السنين.

قال الزجاج : وانتصب دأباً على معنى تدأبون دأباً، وقيل: أنه مصدر وضع فى موضع الحال، وتقديره : تزرعون دائبين فما حصدتم فذوره فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون، كل ما أردتم أكله فخذوه ، ودعوا الباقى فى سنبله حتى لا يفسده السوس، فيه ، لأن إبقاء الحب فى سنبله يوجب بقاءه على الصلاح.

﴿ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ أي سبع سنين مجدبات والشداد الصعاب التى تشتد على الناس.

وقوله تعالى: ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ هذا مجاز، فإن السنة لا تأكل فيجعل أكل أهل تلك السنين مسنداً إلى السنين.

---

(١) دأبا : دائبين كعادتكم فى الزراعة.

(٢) تحصنون : تختبئونه من البذور للزراعة.

(٣) يغاث الناس : يمطرون فتخصب أراضيهم - يعصرون : ما شأنه أن يعصر كالزيتون. - قضية الاقتصاد (١٤).

قوله تعالى: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ إلا حصان الإحراز، وهو إلقاء الشئ فى الحصن، يقال أحصنه إحصاناً إذا جعله فى حرز والمراد إلا قليلاً مما تحرزون أى تدخرون، وكلها ألفاظ ابن عباس رضى الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ قال المفسرون السبعة الأولى المقدمة سنون الخصب وكثرة النعم، والسبعة الثانية سنون القحط والقلة، وهو معلوم من الرؤيا، وأما حال هذه السنة فما حصل فى ذلك المنام شئ يدل عليه بل حصل ذلك من الوحى، فكأنه عليه السلام ذكر أنه يحصل بعد السبعة المخصبة والسبعة المجدبة سنة مباركة كثيرة الخير والنعم، وعن قتادة زاده الله علم السنة.

فإن قيل: لما كانت العجاف سيعادل ذلك على أن السنين المجدبة لا تزيد على هذا العدد ومن المعلوم أن الحاصل بعد انقضاء القحط هو الخصب وكان هذا أيضاً من مدلولات المنام، فلم قلتم إنه حصل بالوحى والإلهام؟

قال ابن السكيت يقال غاث الله البلاد يغيثها إذا أنزل فيها الغيث، وقد غيثت الأرض تغاث.

وقوله تعالى: ﴿يُغَاثُ النَّاسُ﴾ معناه يمطرون، ويجوز أن يكون من قولهم: أغاثه الله إذا أنقذه من كرب أو غم، ومعناه ينقذ الناس فيه من كرب الجدب.

وقوله تعالى: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي يعصرون السمسم دهنا والعنب خمراً والزيتون زيتاً، وهذا يدل على ذهاب الجدب وحصول الخصب والخير، وقيل: يحلبون الضروع.

وقرئ ﴿يُعْصَرُونَ﴾ من عصره إذا نجاه، وقيل: معناه يمطرون من أعصرت السحابة إذا أعصرت بالمطر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤)﴾ [النبأ].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ [1] (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ [2] (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)﴾ [يوسف].

---

(١) ما بال النسوة ؟ : ما حالهن وما شأنهن ؟

(٢) ما خطبكن ؟ ما شأنكن وأمركن ؟ - حاش لله : تنزيها لله وتعجيبا ، حصحص الحق : ظهر وانكشف بعد خفاء.

اعلم أنه لما رجع الشرابى إلى الملك وعرض عليه التعبير الذى ذكره يوسف عليه السلام استحسنه الملك فقال: ائتونى به، وهذا يدل على فضيلة العلم، فإنه سبحانه جعل علمه سبباً لخلاصه من المحنة الدنيوية، فكيف لا يكون العلم سبباً للخلاص من المحن الأخروية.

فعاد الشرابى إلى يوسف عليه السلام قال أجب الملك ، فأبى يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن إلا بعد أن ينكشف أمره وتزول التهمة بالكلية عنه.

وعن النبى ﷺ قال: « عجبت من يوسف وكرمه وصبره، والله يغفر له، حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى اشترطت أن يخرجونى، ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن ما لبث لأسرعت بالإجابة وبادرتهم إلى الباب، ولما ابتغيت العذر، أنه كان حليما ذا أناة ».

واعلم أن الذى فعله يوسف من الصبر والتوقف إلى أن تفحص الملك عن حاله هو اللائق بالحزم والعقل، وبيانه من وجوه:

الأول : أنه لو خرج فى الحال فربما كان يبقى فى قلب الملك من تلك التهمة أثرها ، فلما التمس من الملك أن يتفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته من تلك التهمة، فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة، وأن يتوسل بها إلى الطعن فيه.

الثانى : أن الإنسان الذى بقى فى السجن اثنتى عشرة سنة إذا طلبه الملك وأمر بإخراجه الظاهر أن يبادر بالخروج، فحيث لم يخرج وعرف منه كونه فى نهاية العقل والصبر والثبات، ذلك يصير سبباً لأن يعتقد فيه البراءة عن جميع أنواع التهم ؛ ولأن يحكم بأن كل ما قيل فيه كان كذباً وبهتاناً.

الثالث : أن التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من تلك النسوة يدل أيضاً على شدة طهارته إذ لو كان ملوثاً بوجه ما ء لكان خائفاً أن يذكر ما سبق.

الرابع : أنه حين قال للشرابى: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ (1) فبقى بسبب هذه الكلمة فى السجن بضع سنين ، وههنا طلبه الملك فلم يلتفت إليه ولم يقم لطلبه وزنا ، واشتغل بإظهار براءته عن التهمة.

ولعله كان غرضه عليه السلام من ذلك أن لا يقى فى قلبه التفات إلى رد الملك وقبوله، وكان هذا العمل جارياً مجرى التلافى لما صدر من التوسل إليه فى قوله: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ ليظهر أيضاً هذا المعنى لذلك الشرابى، فإنه هو الذى كان واسطة فى الحالتين معاً.

(1) قضية النسيان (15).

ثم قال يوسف عليه السلام بعد ذلك : ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾.

وفى المراد من قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبِّي ﴾ وجهان :

الأول : أنه هو الله تعالى ولأنه تعالى هو العليم بخافيات الأمور.

الثانى : أن المراد الملك وجعله رباً لنفسه لكونه مربياً له وفيه إشارة إلى كون ذلك الملك عالما بكيدهن ومكرهن.

وأعلم أن كيدهن فى حقه يحتل وجوها :

أحدهما : أن كل واحدة منهن ربما طمعت فيه ، فلما لم تجد المطلوب أخذت تطعن فيه، وتسبه إلى القبح.

ثانيها : لعل كل واحدة منهن بالغت فى ترغيب يوسف عليه السلام فى موافقة سيدته على مرادها ، ويوسف علم أن مثل هذه الخيانة فى حق السيد المنعم لا تجوز ، فأشار بقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ إلى مبالغتهن فى الترغيب فى تلك الخيانة.

ثالثها : أنه استخرج منهن وجوهاً من المكر والحيل فى تقبيح صورة يوسف عليه السلام عند الملك فكان المراد من هذا اللفظ ذاك.

ثم أنه تعالى حكى عن يوسف عليه السلام أنه لما التمس ذلك أمر الملك بإحضارهن وقال لهن: ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ وفيه وجهان.

الوجه الأول : أن قوله تعالى: ﴿ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ وإن كانت صيغة الجمع، فالمراد منها الواحدة، كقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا .. (١٧٣) ﴾ [آل عمران] .

الوجه الثانى : أن المراد منه خطاب الجماعة.

ثم ههنا وجهان :

الأول : أن كل واحدة منهن راودت يوسف عن نفسه.

الثانى : أن كل واحدة منهن راودت يوسف لأجل إمرأة العزيز ، فاللفظ محتمل لكل هذه الوجوه.

وعند هذا السؤال : ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ وهذا كالتأكيد لما ذكرن فى أول الأمر فى حقه ، وهو قولهن: ﴿ .. مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾ [يوسف] .

واعلم أن امرأة العزيز كانت حاضرة، وكانت تعلم أن هذه المناظرات والنفحات إنما وقعت بسببها ولأجلها فكشفت عن الغطاء وصرحت بالقول الحق وقالت: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هذه شهادة جازمة من تلك المرأة بأن يوسف ﷺ كان مبرأ عن كل ذنب مطهراً عن جميع العيوب.

وههنا دقيقة: وهي أن يوسف ﷺ راعى جانب امرأة العزيز حيث قال: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة ألبتة فعرفت المرأة أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها وإخفاء للأمر عليها، فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن، فلا جرم أزالت الغطاء والوطاء واعترفت بأن الذنب كله كان من جانبها وأن يوسف ﷺ كان مبرأ عن الكل.

ورأيت فى بعض الكتب ان امرأة جاءت بزوجها إلى القاضى وادعت عليه المهر، فأمر القاضى أن تكشف عن وجهها حتى تتمكن الشهود من إقامة الشهادة، فقال الزوج: لاحاجة إلى ذلك، فإنى مقر بصدقها فى دعواها.

قالت المرأة: لما أكرمتنى إلى هذا الحد فاشهدوا أنى أبرأت ذمته من كل حق لى عليك.

المسألة الثانية: قال أهل اللغة: ﴿حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ معناه: وضح وانكشف وتمكن من القلوب والنفوس من قولهم: حصحص البعير فى بروكه، إذا تمكن واستقر فى الأرض.

قال الزجاج: اشتقاقه فى اللغة من الحصة، أي بانت حصة الحق من حصة الباطل.

المسألة الثالثة: اختلفوا فى أن قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ كلام من؟ وفيه قولان:

القول الأول: وهو قول الأكثرين: أنه قول يوسف ﷺ قال الفراء: ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة عليه، ومثال قوله تعالى ﴿.. إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً .. (٣٤)﴾[النمل] وهذا كلام بلقيس، ثم أنه تعالى قال: ﴿.. وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤)﴾[النمل]، وأيضاً قوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ .. (٩)﴾[آل عمران] كلام الداعى، ثم قال تعالى: ﴿.. إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)﴾[آل عمران].

بقى على هذا القول عدة أسئلة.

السؤال الأول : قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الغائب، والمراد ههنا : الإشارة إلى تلك الحادثة الحاضرة.

الجواب : أجبنا عنه فى قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ .. ﴿٢﴾ ﴾[البقرة] وقيل: ذلك إشارة إلى ما فعله من رد الرسول، كأنه يقول ذلك الذى فعلت من رد الرسول، إنما كان ليعلم الملك أنى لم أخنه بالغيب.

السؤال الثانى : متى قال يوسف عليه السلام هذا القول؟

الجواب : روى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ ﴾ وإنما ذكره على لفظ الغيبة تعظيماً للملك عن الخطاب، والأولى أنه عليه السلام إنما قال ذلك عند عود الرسول إليه، لأن ذكر هذا الكلام فى حضرة الملك سوء أدب.

السؤال الثالث : هذه الخيانة فى حق العزيز فكيف يقول: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ .

الجواب : قيل : المراد ليعلم الملك أنى لم أخن العزيز بالغيب، وقيل إنه إذا خان وزيره فقد خانه من بعض الوجوه، وقيل: إن الشرابى لما رجع إلى يوسف عليه السلام وهو فى السجن ، قال ذلك ليعلم العزيز أنى لم أخنه بالغيب.

ولعل المراد منه : أنى لو كنت خائناً لما خلصنى الله تعالى من هذه الورطة، وحيث خلصنى منها ظهر أنى كنت مبرأً عما نسبونى إليه.

القول الثانى : أنه قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ كلام امرأة العزيز والمعنى : أنى وإن أحلت الذنب عليه عند حضوره لكنى ما أحلت الذنب عليه عند غيبته ، أي لم أقل وهو فى السجن خلاف الحق.

ثم أنها بالغت فى تأكيد الحق بهذا القول، وقالت: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ يعنى أنى لما أقدمت على الكيد والمكر لاجرم افتضحت ، وإنه لما كان بريئا عن الذنب لا جرم طهره الله تعالى عنه.

قال صاحب هذا القول: والذى يدل على صحته أن يوسف عليه السلام ما كان حاضراً فى ذلك المجلس حتى يقول يوسف عليه السلام ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ بل يحتاج فيه إلى

أن يرجع الرسول من ذلك المجلس إلى السجن ويذكر له تلك الحكاية، ثم أن يوسف عليه السلام يقول ابتداء ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ ومثل هذا الوصل بين الكلامين الأجنبيين ما جاء ألبته فى نثر ولا نظم فعلمنا أن هذا من تمام كلام المرأة.

المسألة الرابعة : هذه الآية دالة على طهارة يوسف عليه السلام من الذنب من وجوه كثيرة:

الأول : أن الملك لما أرسل إلى يوسف عليه السلام وطلبه فلو كان يوسف متهما بفعل قبيح وكان قد صدر منه ذنب وفحش لاستحال بحسب العرف والعادة أن يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة ، لأن لو كان قد أقدم على الذنب ثم أنه يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة كان ذلك سعياً منه فى فضيحة نفسه وفى تجديد العيوب التى صارت مندسة مخفية والعاقل لا يفعل ذلك.

وهب أنه وقع الشك لبعضهم فى عصمته أو فى نبوته إلا أنه لا شك أنه كان عاقلا، والعاقل يمتنع أن يسعى فى فضيحة نفسه وفى حمل الأعداء على أن يبالغوا فى إظهار عيوبه.

الثانى : أن النسوة شهدن فى المرة الأولى بطهارته ونزاهته حيث قلن: ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[يوسف] .. وفى المرة الثانية حيث قلن: ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾.

الثالث: ان امرأة العزيز أقرت فى المرة الأولى بطهارته حيث قالت : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ وفى المرة الثانية فى هذه الآية.

واعلم أن هذه الآية دالة على طهارته من وجوه:

أولها : قول المرأة: ﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ ﴾.

ثانيها : قولها: ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهو إشارة إلى أنه صادق فى قوله: ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾.

ثالثها : قول يوسف عليه السلام ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾.

رابعها : قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ يعنى أن صاحب الخيانة لابد وأن يفتضح ، فلو كنت خائناً لوجب أن افتضح وحيث لم افتضح وخلصنى الله تعالى من هذه الورطة، فكل ذلك يدل على أنى ما كنت من الخائنين.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[يوسف].

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى : أعلم أن تفسير هذه الآية يختلف بحسب اختلاف ما قبلها ، فإذا قلنا إن قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ كلام يوسف عليه السلام كان هذا أيضاً من كلام يوسف، وإن قلنا إن ذلك من تمام كلام المرأة هذا أيضاً كذلك، ونحن نفسر هذه الآية على كلا التقديرين:

أما إذا قلنا أن هذا كلام يوسف عليه السلام فإن بعض المفسرين تمسكوا به وقالوا: أنه عليه السلام لما قال : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ قال جبريل عليه السلام ولا حين هممت بفك سراويلك؟ فعند ذلك قال يوسف عليه السلام ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ أي الزنا.

﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ أي عصم ربى ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ ﴾ للهم الذى هممت به ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ أي لو فعلته لتاب على.

وأعلم أن هذا الكلام ضعيف فإنا بينا أن الآية المتقدمة برهان قاطع على براءته من الذنب.

بقى أن نسأل : فما جوابكم عن هذه الآية ؟

فنقول فيها وجهان :

الوجه الأول : أنه عليه السلام لما قال :﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ كان ذلك جارياً مجرى مدح النفس وتزكيتها ، وقال تعالى : ﴿ ..فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ .. ﴿٣٢﴾ ﴾[النجم] ، فاستدرك ذلك على نفسه بقوله تعالى:﴿ وما أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ والمعنى: وما أزكى نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء ميالة إلى القبائح راغبة فى المعصية.

الوجه الثانى : أن الآية لا تدل البتة على شيء مما ذكروه وذلك لأن يوسف عليه السلام لما قال:﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ بين أن ترك الخيانة ما كان لعدم الرغبة ولعدم ميل النفس والطبيعة لأن النفس أمارة بالسوء والطبيعة تواقة إلى اللذات، فبين بهذا الكلام أن الترك ما كان لعدم الرغبة، بل لقيام الخوف من الله تعالى.

أما إذا قلنا : إن هذا الكلام من بقية كلام المرأة ففيه وجهان :

الأول : وما أبرئ نفسى عن مراودته ، ومقصودها تصديق يوسف عليه السلام فى قوله : ﴿ .. هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي .. (٢٦) ﴾[يوسف].

الثانى : أنها لما قالت: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ قالت: وما ابرئ نفسى عن الخيانة مطلقاً، فإنى قد خنته حين قد أحلت الذنب عليه وقلت ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وأودعته السجن، كأنها أرادت الاعتذار مما كان.

المسألة الثانية : قالوا :(ما) فى قوله تعالى ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ بمعنى (من) والتقدير: إلا من رحم ربى، و(ما) و (من) كل واحد منهما يقوم مقام الآخر كقوله تعالى: ﴿ ..فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ .. (٣) ﴾[النساء] وقال تعالى:﴿ .. وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ .. (٤٥) ﴾[النور].

المسألة الثالثة : اختلف الحكماء فى أن النفس الأمارة بالسوء ما هى؟ والمحققون قالوا: إن النفس الإنسانية شىء واحد، ولها صفات كثيرة ، فإذا مالت إلى العالم الإلهى كانت نفساً مطمئنة وإذا مالت إلى الشهوة والغضب كانت أمارة بالسوء، وكونها أمارة بالسوء يفيد المبالغة.

والسبب فيه أن النفس من أول حدوثها قد ألفت المحسوسات، والتذت بها، وعشقتها.

المسألة الرابعة : قال المفسرون: إن الطاعة والإيمان لا يحصلان إلا من الله بقوله تعالى ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ قالوا دلت الآية على ان انصراف النفس من الشر لا يكون إلا برحمته ، ولفظ الآية مشعر بأنه متى حصلت تلك الرحمة حصل ذلك الانصراف.

قوله تعالى:﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ [1] (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾[يوسف].

فى الآية مسألتان :

المسألة الأولى : اختلفوا فى هذا الملك فمنهم من قال: هو العزيز ، ومنهم من قال: بل هو الريان الذى هو الملك الأكبر.

---

(١) مكين : ذو مكانة رفيعة ونفوذ آمر.

وهذا هو الأظهر لوجهين :

الأول : أن قول يوسف عليه السلام ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ ﴾ يدل عليه.

الثاني : أن قوله تعالى: ﴿ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصا له، وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصاً للعزيز ، فدل هذا على أن هذا الملك هو الملك الأكبر.

المسألة الثانية : وذكروا أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام وهو فى الحبس وقال قل: « اللهم اجعل لى من عندك فرجاً ومخرجاً وارزقنى من حيث لا أحتسب » فقبل الله دعاءه وأظهر هذا السبب فى تخليصه من السجن.

وتقرير الكلام : أن الملك عظم اعتقاده فى يوسف لوجوه:

أحدها : أنه عظم اعتقاده فى علمه، وذلك لأنه لما عجز القوم عن الجواب وقدر هو على الجواب الموافق الذى يشهد العقل بصحته مال الطبع إليه.

ثانيها : أنه عظم اعتقاده فى صبره وثباته ، وذلك لأنه بعد أن بقى فى السجن بضع سنين لما أذن له فى الخروج ما أسرع إلى الخروج، بل صبر وتوقف وطلب أولاً ما يدل على براءة حاله عن جميع التهم.

ثالثها : أنه عظم اعتقاده فى حسن أدبه ، وذلك لأنه اقتصر على قوله ﴿ .. مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ وإن كان غرضه ذكر امرأة العزيز فستر ذكرها، وتعرض لأمر سائر النسوة مع أنه وصل إليه من جهتها أنواع عظيمة من البلاء وهذا من الأدب العجيب.

رابعها : براءة حاله عن جميع أنواع التهم فإن الخصم أقر له بالطهارة والنزاهة والبراءة عن الجرم.

خامسها : أن الشرابى وصف له جده فى الطاعات، واجتهاده فى الإحسان إلى الذين كانوا فى السجن.

سادسها : أنه بقى فى السجن بضع سنين.

وهذه الأمور كل واحد منها يوجب حسن الاعتقاد فى الإنسان فكيف مجموعها فلهذا السبب حسن اعتقاد الملك فيه ، وإذا أراد الله شيئاً جمع أسبابه وقواها.

إذا عرفت هذا فتقول : لما ظهر للملك هذه الأحوال من يوسف عليه السلام رغب أن يتخذه لنفسه فقال :﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾.

روى أن الرسول قال ليوسف عليه السلام : قم إلى الملك متنظفاً من درن السجن بالثياب النظيفة والهيئة الحسنة فكتب على باب السجن : هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء.

ولما دخل عليه قال: اللهم إنى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره، ثم دخل عليه وسلم ودعا له بالعبرانية، والاستخلاص طلب خلوص الشىء من شوائب الاشتراك ، وهذا الملك طلب أن يكون يوسف له وحده، وأن لا يشاركه فيه غيره، لأن عادة الملوك أن ينفردوا بالأشياء النفيسة الرفيعة، فلما علم الملك أنه وحيد زمانه وفريد أقرانه أراد أن ينفرد به.

وروى أن الملك قال ليوسف عليه السلام : ما من شىء إلا واجب أن تشركنى فيه إلا فى أهلى وفى أن لا تأكل معى، فقال يوسف عليه السلام : أما ترى أن آكل معك، وأنا يوسف بن يعقوب بن اسحاق الذبيح بن إبراهيم الخليل عليه السلام .

ثم قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ وفيه قولان:

أحدهما : أن المراد : فلما كلم الملك يوسف عليه السلام ، قالوا : لأن فى مجالس الملوك فإن الملك هو الذى يبدأ بالكلام ؛ دون غيره.

ثانيهما : أن المراد : فلما كلم يوسف الملك : قيل : لما صار يوسف إلى الملك وكان ذلك الوقت ابن ثلاثين سنة ، فلما رآه الملك حدثاً شاباً قال للشرابى: هذا هو علم تأويل رؤياى مع أن السحرة والكهنة ما علموها . قال: نعم، فأقبل على يوسف وقال: إنى أحب أن أسمع تأويل الرؤيا منك شفاها ، فأجاب بذلك الجواب شفاها ، وشهد قلبه بصحته.

فعند ذلك قال له :﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ يقال: فلان مكين عند فلان بين المكانة أى المنزلة، وهى حالة يتمكن بها صاحبها مما يريد.

وقوله تعالى: ﴿ أَمِينٌ﴾ أي قد عرفنا أمانتك وبرائتك مما نسبت إليه.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب، وذلك لأنه لابد فى كونه مكيناً من القدرة والعلم . أما القدرة فلأن بها يحصل المكنة.

وأما العلم فلأن كونه متمكناً من أفعال الخير لا يحصل إلا به، إذ لو لم يكن عالماً بما ينبغى وبما لا ينبغى لا يمكنه تخصيص ما ينبغى بالفعل، وتخصيص ما لا ينبغى بالترك، فثبت أن كونه مكيناً لا يحصل إلا بالقدرة والعلم.

أما كونه أميناً فهو عبارة عن كونه حكيما لا يفعل لداعى الشهوة بل إنما يفعله لداعى الحكمة ، فثبت أن كونه مكيناً أميناً يدل على كونه قادراً، وعلى كونه عالماً بمواقع الخير والشر والصلاح والفساد ، وعلى كونه بحيث يفعل لداعى الحكمة لا لداعية الشهوة، وكل من كان كذلك فإنه لا يصدر عنه فعل الشر والسفه.

فلهذا المعنى لما حاولت المعتزلة إثبات أنه تعالى لا يفعل القبيح ، قالوا أنه تعالى لا يفعل القبيح لأنه تعالى عالم بقبح القبيح عالم بكونه غنيا عنه وكل من كان كذلك لم يفعل القبح.

قالوا : وإنما كان غنياً عن القبح إذا كان قادراً، وإذا كان منزهاً عن داعية السفه، فثبت أن وصفه بكونه مكيناً أميناً نهاية ما يمكن ذكره فى هذا الباب.

ثم حكى تعالى أن يوسف عليه السلام قال فى هذا المقام ﴿ .. اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

فيه مسألتان :

المسألة الأولى : قال المفسرون : لما عبر يوسف عليه السلام رؤيا الملك بين يديه قال له الملك: فما ترى أيها الصديق ؟ قال: أرى أن تزرع فى هذه السنين المخصبة زرعاً كثيراً وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام، فإذا جاءت السنون المجدبة بعنا الغلات فيحصل بهذا الطريق مال عظيم، فقال الملك ومن لى بهذا الشغل؟

فقال يوسف عليه السلام : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ أي على خزائن أرض مصر.

روى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ فى هذه الآية أنه قال:« رحم الله يوسف، لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله فى ساعته، لكنه لما قال ذلك آخره عنه سنة ».

وأقول : هذا من العجائب لأنه لما تأبى عن الخروج من السجن سهل الله عليه ذلك على أحسن الوجوه ولما تسارع فى ذكر الالتماس أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على أن ترك التصرف والتفويض بالكلية إلى الله تعالى أولى.

المسألة الثانية : لقائل أن يقول : لم طلب يوسف عليه السلام الإمارة والنبى ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة :« لاتسأل الإمارة » وأيضاً فكيف طلب الإمارة من سلطان كافر؟

---

(١) قضية (طلب الإمارة) رقم (١٦).

وأيضاً لم يصبر مدة ولم أظهر الرغبة فى طلب الإمارة فى الحال؟

وأيضاً لما طلب أمر الخزائن فى أول الأمر، مع أن هذا يورث نوع التهمة؟

وأيضاً كيف جوز من نفسه بقوله تعالى: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾؟ مع أنه تعالى يقول: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾[النجم].

وأيضاً فما الفائدة فى قوله تعالى: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ؟

وأيضاً لما ترك الاستثناء فى هذا؟ فإن الأحسن أن يقول: إنى حفيظ عليم إن شاء الله بدليل قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤)﴾ [الكهف]

فهذه أسئلة سبعة لابد من جوابها.

فنقول: الأصل فى جواب هذه المسألة أن التصرف فى أمور الخلق كان واجباً عليه، فحار له أن يتوصل إليه بأى طريق كان.

إنما قلنا: إن ذلك التصرف كان واجباً عليه لوجوه:

الأول: أنه كان رسولا حقاً من الله تعالى إلى الخلق، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان.

الثانى: وهو أنه ﷺ علم بالوحى أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذى ربما أفضى إلى هلاك الخلق العظيم، فلعله تعالى أمره بأن يدبر فى ذلك ويأتى بطريق لأجله يقلل ضرر ذلك القحط فى حق الخلق.

الثالث: أن السعى فى إيصال النفع إلى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن فى العقول.

وإذا ثبت هذا فنقول: إنه ﷺ كان مكلفاً برعاية الخلق من هذه الوجوه، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق، وما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، فكان هذا الطريق واجباً عليه ولما كان واجباً سقطت الأسئلة بالكلية.

وأما ترك الاستثناء فقال الواحدى: كان ذلك خطيئة أوجبت عقوبة وهى أنه تعالى آخر عنه حصول ذلك المقصود سنة.

وأقول: لعل السبب فيه أنه لو ذكر هذا الاستثناء؛ لاعتقد المالك أنه لما ذكره لعلمه بأنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغى فلأجل هذا المعنى ترك الاستثناء.

وأما قوله لمَ مدح نفسه فجوابه : لا نسلم أنه مدح نفسه لكنه بين كونه موصوفاً بهاتين الصفتين النافعتين فى حصول هذا المطلوب وبين البابين فرق، وكأنه قد غلب على ظنه أن يحتاج إلى ذكر هذا الوصف لأن الملك وإن علم كماله فى علوم الدين لكنه ما كان عالماً بأنه يفى بهذا الأمر.

ثم نقول : هب أنه مدح نفسه إلا أن مدح النفس إنما يكون مذموماً؛ إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل إلى غير ما يحل.

فأنا على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم ، فقوله تعالى: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾[النجم]. المراد منه تزكية النفس حال ما يعلم كونها غير متزكية ، والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿.. هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾[النجم] أما إذا كان الإنسان عالماً أنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه والله أعلم.

قوله : ما الفائدة فى وصفه نفسه بأنه حفيظ عليم؟

قولنا : أنه جار مجرى أن يقول حفيظ بجميع الوجوه التى منها يمكن تحصيل الدخل والمال، عليم بالجهات التى تصلح لأن يصرف المال إليها.

ويقال: حفيظ بجميع مصالح الناس، عليم بجهات حاجاتهم أو يقال: حفيظ لوجوه أياديك وكرمك ، عليم بوجوب مقابلتها بالطاعة والخضوع.

وهنا عدة إشارات عظيمة نتوقف عندها فبعد أن تولى الصديق الإمارة بعد أن تأخرت عنه سنة دعاه الملك فتوجه ورداه بسيفه ، ووضع له سريراً من ذهب ، مكللاً بالدر والياقوت، وضرب عليه حلة من استبرق ، وكان طول السرير ثلاثين ذراعاً وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشاً وستون مرفقة، ثم أمره أن يخرج،فخرج متوجاً، لونه كالثلج ، ووجهه كالقمر، يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه، فجلس على السرير ودانت له الملوك، ودخل الملك بيته مع نسائه، وفوض إليه أمر مصر، وعزل قطفير عما كان عليه، وجعل يوسف مكانه، قال ابن زيد : كان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام، فسلم سلطانه كله إليه، وهلك قطفير تلك الليالى ، فزوج الملك يوسف راعيل امرأة العزيز، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟! فقالت: أيها الصديق لا تلمنى ، فإنى كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى، وكان صاحبى لا يأتى النساء، وكنت كما جعلك الله من الحسن فغلبتنى نفسى، فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له رجلين: إفرائيم بن يوسف، ومنشا بن يوسف. وقال وهب بن منبه : إنما كان تزويجه زليخا امرأة العزيز بين

دخلتى الإخوة، وذلك أن زليخا مات زوجها ويوسف فى السجن، وذهب مالها وعمى بصرها بكاء على يوسف، فصارت تتكفف الناس، فمنهم من يرحمها ومنهم من لا يرحمها، وكان يوسف يركب فى كل أسبوع مرة فى موكب زهاء مائة ألف من عظماء قومه، فقيل لها: لو تعرضت له لعله يسعفك بشىء، ثم قيل لها: لا تفعلى، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسىء إليك، فقالت : أنا أعلم بخلق حبيبى منكم، ثم تركته حتى إذا ركب فى موكبه، فنادت بأعلى صوتها: سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم ، فقال يوسف: ما هذه؟ فأتوا بها، فقالت: أنا التى كنت أخدمك على صدور قدمي، وأرجل جمتك بيدى، وتربيت فى بيتى ، وأكرمت مثواك، لكن فرط ما فرط من جهلى وعتوى فذقت وبال أمرى، فذهب مالى، وتضعضع ركنى، وطال ذلى، وعمى بصرى، وبعد ما كنت مغبوطة أهل مصر صرت مرحومتهم ، أتكفف الناس، فمنهم من يرحمنى ، ومنهم من لا يرحمنى ، وهذا جزاء المفسدين، فبكى يوسف بكاءاً شديداً ، ثم قال لها: هل بقيت تجدين مما كان فى نفسك من حبك لى شيئاً؟ فقالت: والله لنظرة إلى وجهك أحب إلى من الدنيا بحذافيرها ، ولكن ناولنى صدر سوطك، فناولها فوضعته على صدرها، فوجد للسوط فى يده اضطراباً وارتعاشاً من خفقان قلبها، فبكى ثم مضى إلى منزله فأرسل إليها رسولا: إن كنت أيما تزوجناك، وإن كنت ذات بعل أغنيناك ، فقالت للرسول: أعوذ بالله أن يستهزئ بى الملك! لم يردنى أيام شبابى وغناى ومالى وعزى أفيريدنى اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة؟! فأعلمه الرسول بمقالتها ، فلما ركب فى الأسبوع الثانى تعرضت له ،فقال لها: ألم يبلغك الرسول؟ فقالت: قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحب إلى من الدنيا وما فيها ، فأمر بها فأصلح من شأنها وهيئت ، ثم زفت إليه، فقام يوسف يصلى ويدعو الله، وقامت وراءه ، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها، فرد الله عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته، إكراماً ليوسف عليه السلام لما عف عن محارم الله، فأصابها فإذا هى عذراء، فسألها ، فقالت: يا نبى الله إن زوجى كان عنيناً لا يأتى النساء، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف، قال: فعاشا فى خفض عيش، كل يوم يجدد الله لهما خيراً، وولدت له ولدين إفرائيم ومنشا. وفيما روى أن الله ألقى فى قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان فى قلبها، فقال لها: ما شأنك لا تحبيننى كما كنت فى أول مرة؟ فقالت : لما ذقت محبة الله تعالى شغلنى ذلك عن كل شىء.

قولـــه تعالـــى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56)(1) وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (57) ﴾ [يوسف].

فيه مسألتان :

المسألة الأولى : أعلم أن يوسف عليه السلام لما التمس من الملك أن يجعله على خزائن الأرض لم يحك الله عن الملك أنه قال : قد فعلت ، بل الله سبحانه.

قال ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ فههنا المفسرون قالوا فى الكلام محذوف وتقديره : قال الملك قد فعلت، إلا أن تمكين الله له فى الأرض يدل على أن الملك قد أجابه ما سأل.

وأقول : ما قالوه حسن، إلا أن ههنا ما هو أحسن منه، وهو أن إجابة الملك له سبب فى عالم الظاهر، وأما المؤثر الحقيقى فليس إلا أنه تعالى مكنه فى الأرض، وذلك لأن ذلك الملك كان متمكناً من القبول ومن الرد ، فنسبة قدرته إلى القبول ، فلابد وأن يترجح القبول على الرد فى خاطر ذلك الملك، وذلك الترجح لا يكون إلا بمرجح يخلقه الله تعالى، وإذا خلق الله تعالى ذلك المرجح حصل القبول لا محالة.

فالتمكين ليوسف فى الأرض ليس إلا من خلق الله تعالى فى قلب ذلك الملك بمجموع القدرة والداعية الجازمة اللتين عند حصولهما يجب حصول الأثر.

فلهذا السبب ترك الله تعالى ذكر إجابة الملك واقتصر على ذكر التمكين الإلهى، لأن المؤثر الحقيقى ليس إلا هو.

المسألة الثانية : روى أن الملك توجه وأخرج خاتم الملك وجعله فى إصبعه وقلده سيفه، ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت، فقال يوسف عليه السلام : أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك، وأما التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى، وجلس على السرير ودانت له القوم ، وعزل الملك قطفير زوج المرأة المعلومة ومات بعد ذلك وزوجه الملك امرأته، فلما دخل عليها قال أليس هذا خير مما طلبت؟ فوجدها عذراء فولدت

(1) يتبوأ منها : يتخذ منها مباءة ومنزلا.

له ولدين افرايم وميشا، وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء، وأسلم على يده الملك وكثير من الناس.

وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام بالدراهم والدنانير فى السنة الأولى، ثم بالحلى والجوهر فى السنة الثانية، ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار، ثم برقابهم ، فقالوا: والله ما رأينا ملكاً أعظم شأنا من هذا الملك حتى صار كل الخلق عبيداً له فلما سمع ذلك قال : إنى أشهد الله إنى أعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددت عليهم أملاكهم، وكان لا يبيع لأحد ممن يطلب الطعام أكثر من حمل البعير لئلا يضيق الطعام على الباقين، هكذا رواه صاحب الكشاف - والله أعلم.

المسألة الثالثة : قوله تعالى: (وكذلك) الكاف منصوبة بالتمكين ، وذلك إشارة إلى ما تقدم يعنى به ومثل ذلك الإنعام الذى أنعمنا عليه فى تقريبنا إياه من قلب الملك، وإنجائنا إياه من غم الحبس.

قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ أي أقدرناه على ما يريد.

قوله تعالى: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ يتبوأ فى موضع نصب على الحال تقديره: مكناه متبوأ ، وقرأ ابن كثير (نشاء) بالنون مضافاً إلى الله تعالى والباقون بالياء مضافاً إلى يوسف.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ يدل على أنه صار فى الملك؛ بحيث لايدافعه أحد ولا ينازعه منازع بل صار مستقلاً بكل ما شاء وأراد.

ثم بين تعالى ما يؤكد أن ذلك من قبله فقال تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾.

واعلم أنه تعالى ذكر أولاً أن هذا التمكين كان من الله وليس من أحد سواه، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ ثم أكد ذلك ثانياً بقوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ وفيه فائدة:

الفائدة الأولى : إن هذا يدل على أن الكل من الله تعالى قال القاضى: تلك المملكة لم تتم إلا بأمور فعلها الله تعالى صارت كأنها حصلت من قبله تعالى.

جوابه : أنا ندعى أن النفس تلك المملكة إنما حصلت من قبل الله تعالى، لأن لفظ القرآن يدل على قولنا ، والبرهان القاطع الذى ذكرناه يقوى قولنا، فصرف هذا اللفظ إلى المجاز لا سبيل إليه.

الفائدة الثانية : أنه أتاه ذلك الملك بمحض المشيئة والإلهية والقدرة النافذة.

قال القاضي : هذه الآية تدل على أنه تعالى يجرى أمر نعمه على ما يقتضيه الصلاح.

قلنا : الآية تدل على أن الأمور معلقة بالمشيئة الإلهية والقدرة المحضة، فأما رعاية قيد الصلاح، فأمر اعتبرته أنت من نفسك مع أن اللفظ لا يدل عليه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وذلك لأن إضاعة الأجر إما أن يكون للعجز، أو للجهل، أو للبخل، ولكل ممتنع فى حق الله تعالى، فكانت الإضاعة ممتنعة.

واعلم أن هذه شهادة من الله تعالى على أن يوسف ﷺ كان من المحسنين.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾.

وفيه مسائل :

المسألة الأولى : فى تفسير هذه الآية قولان :

القول الأول : المراد منه أن يوسف ﷺ وإن كان وصل إلى المنازل العالية والدرجات الرفيعة فى الدنيا ، إلا أن الثواب الذى أعده الله فى الآخرة خير وأفضل وأكمل.

القول الثانى : أن لفظ الخير قد يستعمل لكون أحد الخيرين أفضل من الآخر كما يقال: الجلاب خير من الماء، وقد يستعمل لبيان كونه فى نفسه خيرا من غير أن يكون المراد منه بيان التفضيل كما يقال: الثريد خير من الله ، يعنى الثريد خير من الخيرات حصل بإحسان من الله.

المسألة الثانية : لا شك أن المراد من قوله تعالى ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ شرح حال يوسف ﷺ فوجب أن يصدق فى حقه أنه من الذين آمنوا وكانوا يتقون، وهذا تنصيص من الله عز وجل على أنه كان فى الزمان السابق من المتقين.

وليس ههنا زمانا سابق ليوسف ﷺ يحتاج إلى بيان أنه كان فيه من المتقين إلا ذلك الوقت الذى قال الله فيه : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا .. (٢٤) ﴾ [يوسف] فكان هذا شهادة من الله تعالى على أنه ﷺ كان فى ذلك الوقت من المتقين.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ شهادة من الله تعالى على أنه ﷺ كان من المحسنين.

وكان قوله: ﴿ ... إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[يوسف] شهادة من الله تعالى على أنه من المخلصين ، فثبت أن الله تعالى شهد بأن يوسف عليه السلام كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾(١) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾(٢) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾(٣) ﴾[يوسف].

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ ممتارين لما أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب مصر، وقد كان حل بأهل يعقوب عليه السلام ما حل بأهلها فدعا أبناءه ما عدا بنيامين فقال لهم: يا بنى إن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام فتجهزوا إليه واقصدوه تشتروا منه ما تحتاجون إليه فخرجوا حتى قدموا مصر ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ عليه السلام وكان فى مجلس ولايته ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ لقوة فهمه ، وعدم مباينة أحوالهم السابقة أحوالهم يوم المفارقة لمفارقته إياهم، وهم رجال وتشابه هيأتهم وزيهم فى الحالين، ولكون همته معقودة بهم وبمعرفة أحوالهم لاسيما فى زمن القحط، ولعله عليه السلام كان مترقباً مجيئهم إليه لما يعلم من تأويل رؤياه ، وروى أنهم انتسبوا فى الاستئذان عليه فعرفهم وأمر بإنزالهم ، لذلك قال الحسن: ما عرفهم حتى تعرفوا إليه.

﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أي والحال أنهم منكرون له لنسيانهم له بطول العهد وتباين ما بين حالية فى نفسه ومنزلته وزيه ولاعتقادهم أنه ملك، وقيل: إنما لم يعرفوه لأنه عليه السلام أوقفهم موقف ذى الحاجات بعيداً منه وكلمهم بالوساطة ، وقيل: إن ذلك لمحض أنه سبحانه

---

(١) جهزهم بجهازهم أعطاهم ما هم فى حاجة إليه.
(٢) بضاعتهم : ثمن ما اشتروه من الطعام - ورحالهم : أوعيتهم التى فيها الطعام وغيره.
(٣) متاعهم : طعامهم أو رحالهم - ما نبغى : ما نطلب من الإحسان بعد ذلك ؟ - نمير أهلنا : نجلب لهم الطعام من مصر.

لم يخلق العرفان فى قلوبهم تحقيقاً لما أخبر أنه سينبئهم بأمرهم وهم لا يشعرون فكان ذلك معجزة له ﷺ، وقابل المعرفة بالإنكار على ما هو الاستعمال الشائع، فعن الراغب المعرفة والعرفان معرفة الشيء بتفكر فى أثره فهو أخص من العلم، وأصله من عرفت أي أصبت عرفه أي رائحته، ويضاد المعرفة الإنكار، والعلم والجهل، وحيث كان إنكارهم له ﷺ أمراً مستمراً فى حالتى المحضر والمغيب أخبر عنه بالجملة الأسمية بخلاف عرفانه ﷺ إياهم.

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أصلحهم بعدتهم وأوقر ركائبهم بما جاءوا لأجله، ولعله ﷺ إنما باع كل واحد منهم حمل بعير لما روى أنه ﷺ كان لا يبيع أحد من الممتارين أكثر من ذلك وفيما يأتى إن شاء الله تعالى من قولهم ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ ما يؤيده، وأصل الجهاز ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع، وجهاز العروس ما تزف به إلى زوجها والميت ما يحتاج إليه فى دفنه، وقرئ بكسر الجيم ﴿ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾[1]، ولم يقل بأخيكم مبالغة فى إظهار عدم معرفته لهم كأنه لا يدرى من هو ولو أضافه اقتضى معرفته لإشعار الإضافة به، ومن هنا قالوا فى أرسل غلاما لك، الغلام غير معروف وفى أرسل غلامك معروف بينك وبين مخاطبك عهد فيه، ولعله عليه السلام إنما قال ذلك لما قيل: من أنهم سألوه حملاً زائداً على المعاد لبنيامين، فأعطاهم ذلك، وشرط عليهم أن يأتوا به مظهراً لهم أنه يريد أن يعلم صدقهم، وقيل: إنهم لم رأوه فكلموه بالعبر فقال لهم: من أنتم فإنى أنكركم، فقال: نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال: لعلكم جئتم تنظرون عورة بلادى، قالوا: معاذ الله نحن أخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق نبى من الأنبياء اسمه يعقوب، قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثنى عشر فهلك منا واحد، فقال: كم أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة. قال: فأين الحادى عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك، قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم عيوناً وأن ما تقولون حقاً؟ قالوا: نحن ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا. قال: فدعوا بعضكم عندى رهينة وائتونى بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم فاقترعوا فأصاب القرعة شمعون، وقيل: أنه ﷺ هو الذى اختاره لأنه كان أحسنهم رأياً فيه، والمشهور أن الأحسن يهوذا فخلفوه عنده، ومن هذا يعلم سبب هذا القول. وتعقب بأنه لا يساعده وروده الأمر بالإتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه فإيفاء الكيل ولا الإحسان فى الانزال ولا الاقتصار على منع الكيل من غير ذكر

(١) القضية (١٧) اصطناع الحيلة.

الرسالة على أن استبقاء شمعون لو وقع ذلك طامة ينسى عندها كل قيل، وقال بعضهم: إنه يضعف الخبر اشتماله على بهت إخوته بجعلهم جواسيس إلا أن يقال: إن ذلك كان عند وحى.

وقال ابن المنير : إن ذلك غير صحيح؛ لأنه إذا ظنهم جواسيس كيف يطلب منهم واحدا من إخواتهم وما فى النظم الكريمة يخالفه وأطال فى ذلك، وتعقب بأنه ليس بشىء لأنهم لما قالوا له: إنهم أولاد يعقوب ﷺ أخاهم وبه يتضح الحال. وأخرج ابن جرير وغيره من ابن عباس أنهم لما دخلوا عليه ﷺ فعرفهم، وهم له منكرون جاء بصواع الملك الذى كان يشرب فيه فوضعه على يده فجعل ينقره ويطن وينقره ويطن فقال: إن هذا الجام ليخبرنى خبراً هل كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف وكان أبوه يحبه دونكم وإنكم أطلقتم به فألقيتموه فى الجب، وأخبرتم أباكم بأن الذئب أكله وجئتم على قميصه بدم كذب؟ قال: فجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويعجبون أن الجام يخبر بذلك، وفيه مخالفة للخبر السابق، وفى الباب أخبار أخر وكلها مضطربة فليقصر على ما حكاه الله تعالى مما قالوا ليوسف ﷺ وقال: ﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أتمه لكم، وإيثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز لدلالة على أن ذلك عادة مستمرة ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ جملة حالية أي ألا ترون أنى أوف الكيل لكم إيفاء مستمراً والحال فى غاية الإحسان فى إنزالكم وضيافتكم وكان الأمر كذلك، ويفهم من كلام بعضهم التعميم فى الجملتين بحيث يندرج حينئذ فى ذلك المخاطبون، وتخصيص الرؤية بالإيفاء لوقوع الخطاب فى أثنائه ، وأما الإحسان فى الإنزال فقد كان مستمراً فيما سبق ولحق ولذلك أخبر عنه بالجملة الإسمية، ولم يقل ذلك ﷺ بطريق الامتنان بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به، والاقتصار فى الكيل على ذكر الإيفاء لأنه معاملته ﷺ معهم فى ذلك كمعاملته مع غيرهم فى مراعاة واجب العدل، وأما الضيافة فليس للناس فيها حق فخصهم فى ذلك بما يشاء قال شيخ الإسلام: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ إيعاذ لهم على عدم الإتيان به ، والمراد لا كيل لكم فى المرة الأخرى فضلاً عن إيفائه ﴿وَلا تَقْرَبُونِ﴾ أي لا تقربونى بدخول بلادى فضلاً عن الإحسان فى الإنزال والضيافة وهو إما نهى أو نفى معطوف على التقديرين على الجزاء، وقيل : هو على الأول استئناف لئلا يلزم عطف الإنشاء على الخير ، وأوجب بأن العطف مفتقر فيه لأن النهى يقع جزاء ، وفيه دليل على أنهم كانوا على نية الامتياز مرة أخرى وأن ذلك كان معلوماً له ﷺ ، والظاهر أن ما فعله معهم كان بوحى وإلا فالبر يقتضى أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه لكن الله سبحانه أراد تكميل أجر يعقوب فى محنته وهو الفعال لما يريد فى

خليفته ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أي سنخادعه ونستميله برفق ونجتهد فى ذلك، وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي إنا لقادرون على ذلك لا نتعايا به أو إنا لفاعلون ذلك لا محالة ولا نفرط فيه ولا نتوانى، والجملة على الأول تذييل يؤكد مضمون الجملة الأولى ويحقق حصول الموعود من إطلاق السبب، أعنى الفعل - على السبب - أعنى القدرة - وعلى الثانى هى تحقيق للوفاء بالوعد ، وليس فيه ما يدل على أن الموعود يحصل أولاً.

وقال يوسف عليه السلام : ﴿ لِفِتْيَانِهِ ﴾ لغلمانه الكيالين كما قال قتادة ، وغيره أو لأعوانه الموظفين لخدمته كما قيل ، وهو جمع فتى أو اسم له على قول وليس بشىء ، وقرأ أكثر السبعة (فتيتانه) وهو جمع قله له، ورجحت القراءة الأولى بأنها أوفق بقوله: ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ فإن الرحال فيه جمع كثرة ومقابلة الجمع بالجمع تقتضى انقسام الآحاد على الآحاد فنبغى أن يكون فى مقابلة صيغة جمع الكثرة، وعلى القراءة الأخرى يستعار أحد الجمعين للأخرى وروى أنه عليه السلام وكل بكل رحل رجل يعبى فيه بضاعتهم التى اشتروا بها الطعام وكانت نعالا وادما ، وأصل البضاعة قطعة وافرة من المال تقتنى للتجارة والمراد به هنا ثمن ما اشتروه.

والرحل ما على ظهر المركوب من متاع الراكب وغيره كما فى البحر ، وقال الراغب: هو ما يوضع على البعير للركوب ثم يعبر به تارة عن البعير وأخرى عما يجلس عليه فى المنزل ويجمع فى القلة على أرحله والظاهر أن هذا الأمر كان بعد تجهيزهم ، وقيل: قبله ففيه تقديم وتأخير ولا حاجة إليه، وإنما فعل عليه السلام ذلك تفضيلاً عليهم وخوفاً أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيهم كما يؤذن به قوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ أي يعرفون حق ردها والتكرم بذلك - فلعل على ظاهرها وفى الكلام مضاف مقدر ، ويحتمل أن يكون المعنى لكى يعرفوها فلا يحتاج إلى تقدير وهو ظاهر التعلق بقوله :﴿ إِذَا انقَلَبُوا ﴾ أى رجعوا إلى ﴿ أَهْلِهِمْ ﴾ فإن معرفتهم لها مقيدة بالرجوع وتفريغ الأوعية قطعا ، وأما معرفة حق التكرم فى ردها وإن كانت فى ذاتها غير مقيدة بذلك لكن ما كان ابتداؤها حينئذ قيدت به ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ حسبما طلبت منهم، فإن التفضل بإعطاء البدلين ولا سيما عند أعواز البضاعة من أقوى الدواعى إلى الرجوع، وقيل: إنما فعل عليه السلام لما أنه لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً، وهو الكريم، ابن الكريم وهو كلام حق فى نفسه، ولكن يأباه التعليل المذكور، ومثله فى هذا ما زعمه ابن عطية من وجوب صلتهم وجبرهم عليه عليه السلام فى تلك الشدة إذ هو ملك عادل وهم أهل

إيمان ونبوة، وأغرب منه ما قيل أنه ﷺ فعل ذلك توطئة لجعل السقاية فى رحل أخيه بعد ذلك؛ ليتبين أنه لم يسرق لمن يتأمل القصة، ووجه بعضهم عليه الجعل المذكور للرجوع بأن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لاحتمال أنه لم يقع ذلك قصداً أو قصداً للتجربة، فيرجعون - على هذا أما لازما وأما متعد، والمعنى يرجعونها أي يردونها، وفيه أن هيئة التعبية تنادى بأن ذلك بطريق التفضل فاحتمال غيره فى غاية البعد، ألا ترى أنه كيف جزموا بذلك حين رأوها وجعلوا ذلك دليلاً على التفضلات السابقة كما سنحيط به خبراً إن شاء الله تعالى؟

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ أي حكم بمنعه بعد اليوم إن لم نذهب بأخينا بنيامين حيث قال لنا الملك: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي ﴾ والتعبير لذلك عما ذكر مجاز والداعى لارتكابه أنه لم يقع منع ماض، وفيه دليل على كون الامتياز مرة بعد أخرى كان معهوداً بينهم وبينه ﷺ، وقيل: إن الفعل على حقيقته والمراد منع أن يكال لأخيهم الغائب حملاً ورد بعيره غير محمل بناء على رواية أنه ﷺ لم يعط له وسقاً ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا ﴾ بنيامين إلى مصر، وفيه إيذان بأن مدار المنع على عدم كونه معهم ﴿ نَكْتَلْ ﴾ أي من الطعام ما نحتاج إليه وهو جواب الطلب، قيل: والأصل يرفع المانع وتكتل فالجواب هو يرفع إلا أنه رفع ووضع موضعه يكتل لأنه لما علق المنع من الكيل بعدم إتيان أخيهم كان إرساله رفعاً لذلك المانع، ووضع موضعه ذلك لأن المقصود، وقيل: أنه جيء بآخر الجزأين ترتباً دلالة على أولهما مبالغة، وأصل هذا الفعل نكتل على وزن نفعييل قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ثم حذفت لالتقاء الساكنين.

ومن الغريب أنه نقل السجاوندى أنه سأل المازنى ابن السكيت عند الواثق عند وزن نكتل فقال: نفعل فقال المازنى: فإذا ماضيه كتل فخطأه على أبلغ مجازا لأنه سبب للاكتيال أو يكتل إخواناً فينضم اكتياله إلى اكتيالنا، وقوى أبو حيان بهذه القراءة القول ببقاء منع على حقيقته ومثله الإمام ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يصيبه مكروه، وهذا سد لباب الاعتذار، وقد بالغوا فى ذلك كما لا يخفى، وفى بعض الأخبار ولا يخفى حاله - أنهم لما دخلوا على أبيهم ﷺ سلموا عليه سلاماً ضعيفاً فقال لهم: يا بنى مالكم تسلمون على سلاما ضعيفاً ومالى لا أسمع فيكم صوت شمعون فقال: يا أبانا جئناك من عند أعظم الناس ملكاً ولم ير مثله علماً وحكما وخشوعاً وسكينة ووقارا، ولئن كان ذلك شبه فإنه يشبهك ولكنا أهل بيت خلقنا للبلاء إنه اتهمنا وزعم أنه لا يصدقنا حتى ترسل معنا بنيامين برسالة منك تخبره عن حزنك وما الذى أحزنك وعن سرعة الشيب إليك وذهاب

بصرك وقد منع منا الكيل في المستقبل إن لم نأته بأخينا فأرسله معنا نكتل وإنا له لحافظون حتى نأتيك به ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ استفهام إنكاري و﴿ آمَنُكُمْ ﴾ بالمد وفتح الميم ورفع النون مضارع من باب علم وأمنه وائتمنه بمعنى أي ما ائتمنكم عليه ﴿ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ ﴾ أي إلا ائتمانا مثل ائتماني إياكم ﴿ عَلَىٰ أَخِيهِ ﴾ يوسف ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ وقد قلتم أيضاً في حقه ما قلتم ثم فعلتم ما فعلتم فلا أثق بكم ولا بحفظكم وإنما أفوض أمري إلى الله تعالى: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمع على مصيبتين ، وهذا كما ترى ميل منه ﷺ إلى الإذعان والإرسال لما رأى فيه من المصلحة، وفيه أيضاً من التوكل على الله تعالى ما لا يخفى ، ولذا روى أن الله تعالى قال: وعزتي وجلالي لأردهما عليك إذا توكلت علي، ونصب (حافظاً) على التمييز نحو الله دره فارسا ، وجوز غير واحد أن يكون على الحالية، وتعقبه أبو حبان بأنه ليس بجيد لما فيه من تقييد الخيرية بهذه الحالة، ورد بأنها حال لازمة مؤكدة لا مبينة ومثلها كثير مع أنه قول بالمفهوم وهو غير معتبر ولو اعتبر ورد على التمييز وفيه نظر، وقرأ أكثر السبعة (حفظا) ونصب على ما قاله أو البقاء على التمييز لا غير، وقرأ الأعمش (خير حافظ) على الإضافة وإفراد (حافظ) وقرأ أبو هريـــرة (خير الحافظين) على الإضافة والجمع، ونقـــل ابن عطية عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ (فالله خير حافظ وهو خير الراحمين) قال أبو حبان: وينبغي أن تجعل جملة (وهو خير) الخ تفسيراً للجملة التي قبلها لأنها قرآن وقد مر تعليل ذلك ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ ﴾ قال الراغب : المتاع كل ما ينفع به على وجه، وهو في الآية الطعام، وقيل : الوفاء وكلاهما متاع وهما متلازمان فإن الطعام كان في الوعاء، والمعنى على أنهم لما فتحوا أوعية طعامهم {وجدوا بضاعتهم} التي كانوا أعطوها ثمناً للطعام ﴿ رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ أي تفضلا ، وقد علموا ذلك بما مر من دلالة الحال ، وقرأ علقمة ، ويحيى بن وثاب ، والأعمش (ردت) بكسر الراء، وذلك أنه نقلت حركة الدال المدغمة إلى الراء بعد توهم خلوها من الضمة وهي لغة لبني ضبة كما نقلت العرب في قيل وبيع ، وحكى قطرب النقل في الحرف الصحيح غير المدغم نحو ضرب زيد.

(قالوا) استئناف بياني كأنه قيل: ماذا قالوا حينئذ ؟ فقيل: لأبيهم ولعله كان حاضرا عند الفتح ﴿ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ إذا فسر البغي بمعنى الطلب كما ذهب إليه جماعة – فما يحتمل أن تكون استفهامية منصوبة المحل على أنها مفعول مقدم لنبغي فالمعنى ماذا نطلب وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا، وكرمه الداعي إلى امتثال أمره والمراجعة إليه في الحوائج وقد كانوا أخبروه بذلك على ما روى أنهم قالوا له ﷺ : إنا قدمنا على

خير رجل وأنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته، وقوله تعالى:﴿ هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا ﴾ جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الإنكار من بلوغ اللطف غايته كأنهم قالوا: كيف لا وهذه بضاعتنا ردها إلينا تفضلاً من حيث لا ندرى بعد ما من علينا بما يثقل الكواهل من المنن العظام وهل من مزيد على هذا فنطلبه، ومرادهم به أن ذلك كاف فى استيجاب الامتثال والالتجاء إليه فى استجلاب المزيد، ولم يريدوا أنه كاف مطلقاً فينبغى التقاعد عن طلب نظائره وهو ظاهر.

وجملة (ردت) فى موضع الحال من (بضاعتنا) بتقدير قد عند من يرى وجوبها فى أمثال ذلك والعامل معنى الإشارة وجعلها خبر (هذه) و (بضاعتنا) بيانا له ليس بشىء، وإيثار صيغة إلينا للمفعول قيل: للإيذان بكمال الإحسان الناشىء عن كمال الإخفاء المفهوم من كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله وقيل: للإيذان بتعين الفاعل وفيه من مدحه أيضاً ما فيه، وقوله تعالى: ﴿ ونَميرُ أَهلَنا ﴾ أي نجلب لهم الميرة، وهى بكسر الميم وسكون الياء طعاماً يمتاره الإنسان أي يجلبه من بلد إلى بلد، وحاصله نجلب لهم الطعام من عند المالك معطوف على مقدر ينسحب عليه رد البضاعة أي فنستظهر بها ونمير أهلنا ﴿ ونَحفَظُ أَخانا ﴾ من المكاره حسبما وعدنا، وتفرعه على ما تقدم باعتبار دلالته على إحسان الملك فإنه مما يعين على الحفظ ﴿ ونَزدادُ ﴾ أى بواسطته ولذلك وسط الإخبار به بين الأصل والمزيد ﴿ كَيلَ بَعيرٍ ﴾ أي نزيد كيلا بخلاف ما هو معتاد ، والبعير فى المشهور مقابل الناقة ، وقد يطلق عليها وتكسر فى لغة باؤه ويجمع على أبعرة وبعران وأباعر ، وعن مجاهد تفسيره هنا بالحمار وذكر أن بعض العرب يقول للحمار بعير وهو شاذ.

وقوله تعالى:﴿ ذَلكَ كَيلٌ ﴾ أي مكيل ﴿ يسيرٌ ﴾ أى قليل لا يقوم بأودنا يحتمل أن يكون إشارة إلى ما كيل لهم أولاً، والجملة استئناف جىء بها للجواب عما عسى أن يقال لهم : قد صدقتم فيما قلتم ولكن ما الحاجة إلى التزام ذلك وقد جئتم بالطعام، فكأنهم قالوا: إن ما جئنا به غير كاف لنا فلابد من الرجوع مرة أخرى وأخذ مثل ذلك مع زيادة ولا يكون ذلك بدون استصحاب أخينا ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى ما تحمله أباعرهم، والجملة استئناف وقع تعليلاً لما سبق من الازدياد كأنه قيل: أي حاجة إلى الازدياد ؟ فقيل: إن ما تحمله أباعرنا قليل لا يكفينا ، وقيل: المعنى إن ذلك الكيل الزائد قليل لا يضايقنا فيه الملك أو سهل عليه لا يتعاظمه ، وكأن الجملة على هذا استئناف جىء به لدفع ما يقال: لعل الملك لا يعطيكم فوق العشرة شيئاً ويرى ذلك كثيراً أو صعبا عليه وهو كما ترى وجوز

أن يكون ذلك إشارة إلى الكيل الذى تم بصدده وتضمنه كلامهم وهو المنضم إليه كيل البعير الحاصل بسبب أخيهم المتعهد بحفظه كأنهم لما ذكروا ما ذكروا صرحوا بما يفهم منه مبالغة فى استنزال أبيهم ، فقالوا : ذلك الذى نحن بصدده كيل سهل لا مشقة فيه ولا محنة تتبعه ، وقد يبقى الكيل على معناه المصدرى والكلام على هذا الطرز إلا يسيرا .

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ ﴾ بعد أن عاينت منكم ما أجرى المدامع ﴿ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ أي حتى تعطونى ما أتوثق به من جهته، فالموثق مصدر ميمى بمعنى المفعول، وأراد عليه السلام أن يحلفوا له بالله تعالى وإنما جعل الحلف به سبحانه موثقاً منه لأنه مما يؤكد العهود به وتشدد وقد أذن الله تعالى بذلك فهو إذن منه تعالى شأنه ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾ جواب قسم مضمر ، إذ المعنى حتى تحلفوا بالله وتقولوا ، والله لنأتينك به.

وفى مجمع البيان نقلاً عن ابن عباس أنه عليه السلام طلب منهم أن يحلفوا بمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وسيد المرسلين ، والظاهر عدم صحة الخبر ، وذكر العمادى أنه عليه السلام قال لهم: قولوا بالله رب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لنأتينك به ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أي إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا ذلك ، أو إلا أن تهلكوا جميعاً وكلاهما مروى عن مجاهد ، وأصله من إحاطة العدو واستعماله فى الهلاك لأن من أحاط به العدو فقد هلك غالباً ، والاستثناء قيل مفرغ من أعم الأحوال والتقدير لتأتينى به على حال إلا حال الإحاطة بكم.

ثم أنهم أجابوه عليه السلام إلى ما أراد ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ عهدهم من الله تعالى حسبما عليه السلام ﴿ قَالَ ﴾ عرضا لثقته بالله تعالى وحثاً لهم على مراعاة حلفهم به عز وجل ﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ ﴾ فى أثناء طلب الموثق وإيتائه من الجانبين، وإيثار صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة المؤدى إلى تثبتهم ومحافظتهم على تذكرة ومراقبته ﴿ وَكِيلٌ ﴾[1] أي مطلع رقيب، فإن الموكل بالأمر يراقبه ويحفظه ، قيل: والمراد أنه سبحانه مجاز على ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧ ﴾[2].

فيه سبع مسائل :

الأولى : لما عزموا على الخروج خشى عليهم العين ، فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد، وكانت مصر لها أربعة أبواب، وعندئذ خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلاً لرجل واحد، وكانوا أهل جمال وكمال وبساطة ، قاله ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم.

(١) موثقاً : عهداً مؤكداً باليمين يوثق به ، يحاط بكم : تغلبوا أو تهلكوا جميعاً ، وكيل : مطلع رقيب.
(٢) قضية الحسد (١٨).

الثانية : وإذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرز من العين، والعين حق، وقد قال رسول الله ﷺ :« إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر » ، وفى تعوذه عليه السلام بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ما يدل على ذلك، روى مالك عن محمد بن أبى أمامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبو سهل ابن حنيف فنزع جبة كانت عليه ، وعامر بن ربيعة ينظر، وقال: وكان سهل رجلاً أبيض حسن الجلد، فقال له عامر بن ربيعة : ما رأيت كاليوم ولا جلد عذراء! فوعك سهل مكانه واشتد وعكه ، فأتى رسول الله ﷺ فأخبر أن سهلا وعك، وأنه غير رائى معك يا رسول الله ، فأتاه رسول الله ﷺ فأخبره سهل بالذى كان من شأن عامر ، فقال رسول الله ﷺ «علام يقتل أحدكم أخاه ألا بركت إن العين حق توضأ له "فتوضأ له عامر، فراح سهل مع رسول الله ﷺ لا بأس به، فى رواية "اغتسل" فغسل له عامر وجهه بيديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره فى قدر ثم صب عليه، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس.

ومر سعد بن أبى وقاص يوماً فنظرت إليه امرأة فقالت: إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكشحين ، فرجع إلى منزله فسقط فبلغه ما قالت المرأة ، فأرسل إليها فغسلت له، ففى هذين الحديثين أن العين حق، وأنها تقتل كما قال ﷺ ، وهذا قول علماء الأمة، ومذهب أهل السنة، وقد أنكرته الطوائف من المبتدعة ، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأمة، وبما يشاهد من ذلك فى الوجود ، فكم من رجل أدخلته العين القبر، وكم من جمل ظهير أدخلته القدر، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال:﴿ .. وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴿١٠٢﴾ ﴾[البقرة] قال الأصمعى وسمعت أحد الحاسدين يقول : إذا رأيت الشىء يعجبنى وجدت حرارة تخرج من عينى.

الثالثة : واجب على كل مسلم أعجبه شىء أن يبارك، فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة، ألا ترى قوله عليه السلام لعامر :«ألا بركت» فدل على أن العين لا تضر ولا تعدوا إذا برك العائن، وأنها إنما تعدو إذا لم يبرك، والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين اللهم بارك فيه.

الرابعة : العائن إذا أصاب بعينه ولم يبرك فإنه يؤمر بالاغتسال ، ويجبر على ذلك إن أباه ، لأن الأمر على الوجوب، لا سيما هذا ، فإنه قد يخاف على المعين الهلاك، ولا ينبغى لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو، ولا سيما إذا كان بسببه وكان الجانى عليه.

الخامسة : من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعاً لضرره، وقد قال بعض العلماء: يأمره الإمام بلزوم بيته، وإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به، ويكف أذاه عن الناس. وقد قيل: إنه ينفى وحديث مالك الذى ذكرناه يرد هذه الأقوال، فإنه عليه السلام لم يأمر فى عامر بحبس ولا بنفى، بل قد يكون الرجل الصالح عائنا، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسق به، ومن قال يحبس ويؤمر بيته فذلك احتياط ودفع ضرر، والله أعلم.

السادسة : روى مالك عن حميد بن قيس المكى أنه قال: دخل على رسول الله - يا بنى جعفر بن أبى طالب فقال لحضانتهما : مالى أراهما ضارعين» فقالت حاضنتهما: يا رسول الله إنه تسرع إليهما العين، ولم يمنعنا أن نسترقى لهما إلا أنا لا ندرى ما يوافقك من ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ : «استرقوا لهما فإنه لو سبق شىء القدر لسبقته العين» وهذا الحديث منقطع ، ولكنه محفوظ لأسماء بنت عميس الخثعمية عن النبى - من وجوه ثابتة متصلة صحاح، وفيه أن الرقى مما يستدفع به البلاء، وأن العين تؤثر فى الإنسان وتضرعه، أي تضعفه وتنحله ، وذلك بقضاء الله تعالى وقدره. ويقال: إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار، والله أعلم.

السابعة : أمر ﷺ فى حديث أبى أمامة العائن بالاغتسال للمعين ، وأمر هنا بالاسترقاء ، قال العلماء، إنما يسترقى من العين إذا لم يعرف العائن، وأما إذا عرف الذى أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبى أمامة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي : من شىء أحذره عليكم، أى لا ينفع الحذر مع القدر، إن الحكم. أى : الأمر والقضاء ﴿ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى : اعتمدت ووثقت ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾.

قولـه تعالـى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ أى : من أبواب شتى ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ إن أراد إيقاع مكروه بهم . ﴿ إِلَّا حَاجَةً ﴾ استثناء ليس من الأول ﴿ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ أي : خاطر خطر بقلبه ، وهو وصيته أن يتفرقوا ، قال

مجاهد: خشية العين، وقد تقدم القول فيه، وقيل: لئلا يرى الملك عددهم وقوتهم فيبطش بهم حسداً أو حذرا ، قاله بعض المتأخرين، واختاره النحاس، وقال: ولا معنى للعين ها هنا ، ودلت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذر أخاه مما يخاف عليه، ويرشده إلى ما فيه طريق السلام والنجاة ، فإن الدين النصيحة ، والمسلم أخو المسلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعنى يعقوب ﴿ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أي : بأمر دينه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ما يعلم يعقوب عليه السلام من أمر دينه، وقيل ﴿ لَذُو عِلْمٍ ﴾ أى عمل، فإن العلم أول أسباب العمل، فسمى ما هو بسببه.

قوله تعالى:﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ قال قتادة : ضمه إليه، وأنزل معه ، وقيل: أمر أن ينزل كل اثنين فى منزل، فبقى أخوه منفرداً فضمه إليه ، وقال: أشفقت عليه من الوحدة، وقال له سرا من اخوته:﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ ﴾ أى لا تحزن ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

وقوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ لما عرف بنيامين أنه يوسف قال له : لا تردنى إليهم، فقال: قد علمت أغتمام يعقوب بى فيزداد غمه، فأبى بنيامين الخروج ، فقال يوسف: لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يجمل بك.

فقال: لا أبالى! فدس الصاع فى رحله، إما بنفسه من حيث لم يطلع عليه أحد، أو أمر بعض خواصه بذلك والتجهيز التسريح وتنجيز الأمر، ومنه جهز على الجريح أى قتله، ونجز أمره والسقاية والصواع شىء واحد ، إناء له رأسان فى وسطه مقبض ، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويكال الطعام بالرأس الآخر.

واختلف فى جنسه ، فروى شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان صواع الملك شىء من فضه يشبه المكوك من فضة مرصع بالجوهر، يجعل على الرأس، وسأله مالك بن الأزرق ما الصواع؟ قال: الإناء.

وقال عكرمة: كان من فضة، وقال عبدالرحمن بن زيد: كان من ذهب، وبه كان طعامهم مبالغة فى إكرامهم، وقيل: إنما كان يكال به لعزة الطعام، والصاع يذكر ويؤنث، فمن أنثه قال: أصوع مثل أدور ، ومن ذكره قال أصواع، مثل أثواب.

قوله تعالى:﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ أى : ناد منادى وأعلم، وأذن : للتكثير ، فكأنه نادى مراراً ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ ﴾ والعير ما امتير عليه من الحمير والإبل والبغال.

قال مجاهد : كان عيرهم حميرا ، قال أبو عبيدة: العير الإبل المرحولة المركوبة، والمعنى: يا أصحاب العير ، كقوله :﴿ واسأل القرية ﴾ ويا خيل الله اركبى: أي أصحاب خيل الله، وسيأتي.

وهنا اعتراضان : الأول – عن قيل: كيف رضى بنيامين بالقعود طوعا وفيه عقوق الأب بزيادة الحزن، ووافقه على ذلك يوسف؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم براء وهو – الثاني – فالجواب عن الأول : عن الحزن كان قد غلب على يعقوب بحيث لايؤثر فيه فقد بنيامين كل التأثير ، أو لا تراه لما فقد قال:﴿ يا أسفىٰ علىٰ يوسف ﴾ ولم يعرج على بنيامين ، ولعل يوسف إنما وافقه على القعود بوحي فلا اعتراض. وأما نسبة يوسف السرقة إلى إخوته فالجواب: ان القوم كانوا قد سرقوه من أبيه فألقوه في الجب، ثم باعوه، فاستحقوا هذا الاسم بذلك الفعل، فصدق إطلاق ذلك عليهم ، جواب آخر : وهو أنه أراد أيتها العير حاكم حال السراق، والمعنى: عن شيئاً لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه، جواب آخر: وهو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه، وفصله عنهم إليه، وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدس الصاع في رحله، ولا أخبره بنفسه.

وقد قيل: إن معنى الكلام الاستفهام ، أي أو أنكم لسارقون، كقوله : ﴿ وتلك نعمة . . (٢٢) ﴾[الشعراء].

أي أو تلك نعمة تمنها علي؟ والغرض ألا يعزى إلى يوسف الكذب.

قوله تعالى:﴿ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون (٧١) قالوا نفقد صواع الملك[1] ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم (٧٢) ﴾[يوسف].

فيه سبع مسائل :

الأولى : قوله تعالى:﴿ ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ﴾ البعير هنا الجمل في قول أكثر المفسرين ، وقيل: أنه الحمار، وهي لغة لبعض العرب ، قاله مجاهد واختاره، وقال مجاهد: الزعيم هو المؤذن الذي قال:﴿ أيتها العير ﴾ والزعيم والكفيل والحميل والضمين والقبيل سواء، والزعيم الرئيس.

---
(١) صواع الملك : صاعة مكياله وهو السقاية.

قال:

وإني زعيم عن رجعت مملكا يسير تسرى منه الفرانـــس أزورا

الثانية : أن قيل كيف ضمن حمل البعير وهو مجهول، وضمان المجهول لا يصح؟ قيل له : حمل البعير كان معينا معلوماً عندهم كالوسق، فصح ضمانه، غير أنه بدل مال للسارق، ولا يحل للسارق ذلك، فلعله كان يصح فى شرعهم، أو كان هذا جهالة ، وبذل مال لمن يفتش ويطلب.

الثالثة : قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليلان: أحدهما جواز الجعل وقد أجيز للضرورة ، فإنه يجوز فيه من الجهالة ما لم يجوز وفى غيره ، فإذا قال الرجل: من فعل كذا فله كذا صح.

وشأن الجعل أن يكون أحد الطرفين معلوماً والآخر مجهولاً للضرورة إليه، بخلاف الإجارة، فإنه يتقدر فيه العوض والمعوض من الجهتين ، وهو من العقود الجائزة التى يجوز لأحدهما فسخه، إلا أن المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع وبعده، إذا رضى بإسقاط حقه، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجعول له فى العمل. ولا يشترط فى عقد الجعل حضور المتعاقدين ، كسائر العقود لقوله ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ وبهذا كله قال الشافعى.

الرابعة : متى قال الإنسان : من جاء بعبدى الأبق فله دينار لزمه ما جعله فيه إذا جاء به، فلو جاء به من غير ضمن لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة، وذلك أن النبى ﷺ قال : معاملتهم له كما سمعت، ولم يذكر لهم ما آذوا به إياهم على ما قيل تعظيماً لقدره وتفخيماً فلشأنه أن يذكره مع نفسه مع أن ذلك من فروع ما ذكر ، وقيل: أنهم أدوا إليه كتاباً من ذبيح اللهابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد فأنا أهل بيت يوكل بنا البلاء، فجدى فشدت يداه ورجلاه ورمى به فى النار ليحرق فنجاه الله تعالى وجعلت النار عليه برداً وسلاماً.. وأما أبى فوضع على قفاه السكين ليقتل ففداه الله تعالى، وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب الأولاد إلى فذهب به إخوته إلى البرية ثم آتونى بقميصه ملطخاً بالدم، وقالوا: قد أكله الذئب فذهبت عيناى من بكائى عليه ثم كان لى ابن كان أخاه من أمه، وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سرق وأنك حبسته لذلك وأنا أهل بيت لانسرق ولا نلد سارقاً فإن رددته على وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك ، والسلام.

وأخرج لابن أبى حاتم عن أبى روق نحوه، فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ذلك، وروى أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب الجواب أصبر كما صبروا واظفر كما ظفروا وهذه، وما أشرنا إليه من كون المراد إثبات الجهل لهم حقيقة هو الظاهر ، وقيل: لم يرد نفى العلم عنهم لأنهم كانوا علماء ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم وترك مقتضى العلم من صنيع الجهال سماهم جاهلين ، وقيل: المراد جاهلون بما يؤول إليه الأمر، وعن ابن عباس والحسن "جاهلون" صبيان قبل أن تبلغوا أوان الحلم والرزانة وتعقب بأنه ليس بالوجه لأنه لا يطابق الوجود وينافى ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ فالظاهر عدم صحة الإسناد، وزعم فى التحرير أن قول الجمهور: أن الاستفهام للتقرير والتوبيخ ومراده عليه السلام تعظيم الواقعة أى ما أعظم ما ارتكبتم فى يوسف وأخيه كما يقال : هل تدرى من عصيت؟ ، وقيل: هل بمعنى قد كما فى ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ .. ۝ ﴾[الإنسان] والمقصود هو التوبيخ أيضاً وكلا القولين لا يعول عليه والصحيح ما تقدم ، ومن الغريب الذى لا يصح البته ما حكاه الثعلبى أنه ﷺ حين قالوا ما قالوا غضب عليهم فأمر بقتلهم فبكوا وجزعوا فرق لهم وقال :﴿ هَلْ عَلِمْتُم ﴾ ... الخ ﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ استفهام تقرير ولذلك أكد بأن واللام لأن التأكيد يقتضى التحقق المنافى للاستفهام الحقيقى، ولعلهم قالوه استغراباً وعجباً، وقرأ ابن كثير ، وقتادة، وابن محيصن (إنك) بغير همزة استفهام ، قال فى البحر : والظاهر أنها مرادة ويبعد حمله على الخبر المحض ، وقد قاله بعضهم لتعارض الاستفهام والخبر ان اتحد القائلون وهو الظاهر ، فإن قدر أن بعضا استفهم وبعضا أخبر ونسب كل إلى المجموعة أمكن وهو مع ذلك بعيد، و(أنت) فى القراءتين مبتدأ و(يوسف) خبره والجملة فى موضع الرفع خبر إن من ولا يجوز أن تكون أنت تأكيدا للضمير الذى هو اسم - ان - لحيلولة اللام.

"من جاء بأبق فله أربعون درهما" ولم يفصل بين ما جاء به من عقد ضمان أو غير عقد، قال ابن خويز منداد لهذا قال أصحابنا إن من فعل بالإنسان ما يجب عليه أن يفعله بنفسه من مصالحة لزمه ذلك، وكان له أجر مثله إن كان ممن يفعل ذلك بالأجر.

الخامسة : الدليل الثانى - جواز الكفالة على الرجل، لأن المؤذن الضامن هو غير يوسف عليه السلام، قال علماؤنا : إذا قال الرجل تحملت أو تكلفت أو ضمنت وأنا حميل لك أو زعيم أو كفيل أو ضامن أو قبيل، أو هو لك عندى أو على أو إلى أو قبلى فذلك كله حمالة لازمة .. وقد اختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه، هل يلزمه ضمان المال أم لا؟ فقال الكوفيون : من تكفل بالنفس أو بالوجه ، هل يلزمه ضمان المال أم لا؟ فقال

الكوفيون . من تكفل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذى على المطلوب إن مات، وهو أحد قولى الشافعى فى المشهور عنه. وقال مالك والليث والأوزاعى : إذا تكفل بنفسه وعليه مال فإنه إن لم يأت به غرم المال، ويرجع له على المطلوب، فإن اشترط ضمان نفسه أو وجهه وقال: لا أضمن المال فلا شىء عليه من المال، والحجة لمن أوجب غرم المال أن الكفيل قد علم أن المضمون وجهه لا يطلب بدم، وإنما يطلب بمال، فإذا ضمنه له ولم يأته به فكأنه فوته عليه، وعزه منه، فلذلك لزمه المال واحتج الطحاوى للكوفيين فقال: أما ضمان المال بموت المكفول فلا معنى له ، لأنه إنما تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمال، فمحال أن يلزمه ما لم يتكفل به.

السادسة : الزعامة لا تكون إلا فى الحقوق التى تجوز النيابة فيها ، مما يتعلق بالذمة من الأموال، وكان ثابتاً مستقراً ، فلا تصح الحمالة بالكتابة لأنها ليست بدين ثابت مستقر، لأن العبد إن عجز رق وانفسخت الكتابة، وإما كل حق لا يقوم به أحد عن أحد كالحدود فلا كفالة فيه، ويسجن المدعى عليه الحد ، حتى ينظر فى أمره وشذ أبو يوسف ومحمد فأجازا الكفالة فى الحدود والقصاص.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[يوسف].

قوله تعالى ﴿ .. تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ ﴾ يروى أنهم كانوا لا ينزلون على أحد ظلما، ولا يرعون زرع أحد، وأنهم جمعوا على أفواه إبلهم الأكمة لئلا تعبث فى زروع الناس، ثم قال: ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ يروى أنهم ردوا البضاعة التى كانت فى رحالهم، أى فمن رد ما وجد فكيف يكون سارقاً؟!

قوله تعالى:﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ المعنى: فما جزاء الفاعل إن بان كذبكم، فأجاب إخوة يوسف :﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ أى : يستعبد ويسترق. فجزاؤه مبتدأ ، و ﴿ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ ﴾خبره، والتقدير: جزاؤه استعباد من وجد فى رحله، فهو كناية عن الاستعباد وفى الجملة معنى التوكيد، كما تقول : جزاء من سرق القطع فهذا جزاؤه ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أى : كذلك نفعل فى الظالمين إذا سرقوا أن يسرقوا، وكان هذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه . وقولهم هذا قول من لم يتسرب بنفسه ، لأنهم التزموا استرقاق من وجد فى رحله ، وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفى ما أخذ، قاله الحسن والسدى وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾[1].

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ إنما بدأ يوسف برحالهم لنفى التهمة والريبة من قلوبهم ان بدأ بوعاء أخيه، والوعاء يقال بضم الواو وكسرها، لغتان، وهو ما يحفظ فيه المتاع ويصونه، ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ يعنى بنيامين أى استخرج السقاية أو الصواع عند من يؤنث، وقال: "ولمن جاء به" فذكر فلما رأى ذلك إخوته نكسوا رؤوسهم، وظنوا الظنون كلها، وأقبلوا عليه وقالوا: ويلك يا بنيامين إما رأينا كاليوم قط، ولدت أمك "راحيل" أخوين لصين قال لهم أخوهم: والله ما سرقته، ولا علم لى بمن وضعه فى متاعى، ويروى أنهم قالوا له: يا بنيامين أسرقت؟ قال: لا والله، قالوا: فمن جعل الصواع فى رحلك؟ قال: الذى جعل البضاعة فى رحالكم. ويقال: إن المفتش كان إذا فرغ من رحل رجل استغفر الله عز وجل تائباً من فعله ذلك، وظاهر كلام قتادة وغيره أن المستغفر كان يوسف، لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصواع حتى فرغ منهم، وانتهى إلى رحل بنيامين فقال: ما أظن هذا الفتى رضى بهذا ولا أخذ شيئاً، فقال له إخوته: والله لا تبرح حتى نفتشه، فهو أطيب لنفسك ونفوسنا، ففتش فأخرج السقاية، وهذا التفتيش من يوسف يقتضى أن المؤذن سرقهم برأيه، فيقال: إن جميع ذلك بأمر من الله تعالى، ويقوى ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: (كدنا) معناه صنعنا، عن ابن عباس، القتبى: دبرنا: ابن الأنبارى: أردنا، قال الشاعر:

كادت وكدت وتلك خير إرادة ... لو عاد من عهد الصبا ما قد مضى

وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل إذا لم تخالف شريعة ولا هدمت أصلا، خلافاً لأبى حنيفة الحيل وإن خالفت الأصول، وخرمت التحليل.

---

(١) كدنا ليوسف: دبرنا لتحصيل غرضه. دين الملك: شريعة ملك أو حكمه.

الثانية : أجمع العلماء على أن للرجل قبل حلول الحول التصرف فى ماله بالبيع والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة ، وأجمعوا على أنه إذا حال الحول وأظل الساعى أنه لا يحل له التحيل ولا النقصان ولا أن يفرق بين مجتمع ، ولا أن يجمع بين متفرق، وقال مالك: إذا فوت من ماله شيئاً ينوى به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه لزمته الزكاة عند الحول ، أخذا منه بقوله عليه السلام : "خشية الصدقة" وقال أبو حنيفة : إن نوى بتفريقه الفرار من الزكاة قبل الحول بيوم لا يضره، لأن الزكاة لا تلزم إلا بتمام الحول، ولا يتوجه إليه معنى قوله : "خشية الصدقة" إلا حينئذ . قال ابن العربى: سمعت أبا بكر محمد بن الوليد الفهرى وغيره يقول: كان شيخنا قاضى القضاة أبو عبدالله محمد بن على الدامغانى صاحب عشرات آلاف من المال، فكان إذا جاء رأس الحول دعا بنيه فقال لهم: كبرت سنى، وضعفت قوتى، وهذا مال لا أحتاجه فهو لكم، ثم يخرجه فيحمله الرجال على أعناقهم إلى دور بنيه ، فإذا جاء رأس الحول ودعا بنيه لأمر قالوا: يا أبانا إنما أملنا حياتك وأما المال فأى رغبة لنا فيه ما دمت حياً، أنت ومالك لنا، فخذه إليك، ويسير به حتى يضعوه بين يديه، فيرده إلى موضعه ، يريد بتبديل الملك إسقاط الزكاة على رأى أبى حنيفة فى التفريق بين المجتمع ، والجمع بين المتفرق، وهذا خطب عظيم، وقد صنف البخارى رضي الله عنه فى جامعه كتاباً مقصوداً فقال: "كتاب الحيل".

قلت : وترجم فيه أبواباً منها : باب الزكاة وألا يفرق بين مجتمع ولا يجمع بين متفرق خشية الصدقة ، وأدخل فيه حديث أنس بن مالك، وأن أبا بكر كتب له فريضة الصدقة، وحديث طلحة بن عبيد الله أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ : «يكون كنز أحدكم يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان ويقول أنا كنزك» الحديث قال المهلب : إنما قصد البخارى فى هذا الباب أن يعرفك أن كل حيلة يتحيل بها أحد إسقاط الزكاة فإن أثم ذلك عليه، لأن النبى ﷺ لما منع من جمع الغنم وتفريقها خشية الصدقة فهم منه هذا المعنى، وفهم من قوله: "أفلح إن صدق" أن من رام أن ينقص من فرائض الله بحيلة يحتالها أنه لا يفلح، ولا يقوم بذلك عذره عند الله ، وما أجازه الفقهاء من تصرف أحب المال قرب حلول الحول إنما هو ما لم يرد بذلك الهرب من الزكاة ، ومن نوى ذلك فالإثم عنه غير ساقط، والله حسيبه ، وهو كمن فر من صيام رمضان قبل رؤية الهلال بيوم، واستعمل سفراً لا يحتاج إليه، رغبة عن فرض الله كتبه الله على المؤمنين ، فالوعيد متوجه عليه، ألا ترى عقوبة من منع الزكاة يوم القيامة بأى وجه متعمداً كيف تطؤه الإبل، ويمثل له ماله شجاعاً أقرع؟ وهذا يدل على أن الفرار من الزكاة لا يحل، وهو مطالب بذلك من الآخرة.

الثالثة : قال ابن العربى : قال بعض علماء الشافعية فى قوله تعالى: ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ دليل على وجه الحيلة إلى المباح ، واستخراج الحقوق ، وهذا وهو عظيم، وقوله تعالى: ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ قيل فيه: كما مكنا ليوسف ملك نفسه عن إمرأة العزيز مكنا له ملك الأرض عن العزيز، أو مثله مما لا يشبه ما ذكره.

قوله تعالى :﴿ في دين الملك﴾ أى : سلطانه ، عن ابن عباس ، ابن عيسى : عادته، أى يظلم بلا حجة ، مجاهد: فى حكمة، وهو استرقاق السراق ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ أي : إلا بأن يشاء الله أن يجعل السقاية فى رحلة نعلة وعذراً له . وقال قتادة : بل كان حكم الملك الضرب والغرم ضعفين ، ولكن شاء الله أن يجرى على ألسنتهم حكم بنى إسرائيل، على ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ أي : بالعلم والإيمان ، وقرئ ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ بمعنى: نرفع من نشاء درجات ، وقد مضى فى (الأنعام) وقوله : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ روى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: يكون ذا أعلم من ذا ، وذا أعلم من ذا ، الله فوق كل عالم . وروى سفيان عن عبدالأعلى عن سعيد ابن جبير قال: كنا عند ابن عباس رحمه الله فتحدث بحديث فتعجب منه رجل فقال: سبحان الله! وفوق كل ذى علم عليم، فقال ابن عباس : بئس ما قلت، الله العليم وهو فوق كل عالم.

وقوله :﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون ﴿٧٧﴾ قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ﴿٧٨﴾ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون ﴿٧٩﴾ ﴾[1][يوسف].

قوله تعالى: ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ المعنى: أى اقتدى بأخيه، ولو أقتدى بنا ما سرق، وإنما قالوا ذلك ليبرؤا من فعله ، لأنه ليس من أمهم، وأنه إن سرق فقد جذبه عرق أخيه السارق ، لأن الاشتراك فى الأنساب يشاكل فى الأخلاق . وقد اختلفوا فى السرقة التى نسبوا إلى يوسف، فروى عن مجاهد وغيره أن عمة يوسف بنت أسحق

(١) قضية السرقة (١٩).

كانت أكبر من يعقوب ، وكانت صارت إليها بمنطقة أسحق لسنها، لأنهم كانوا يتوارثون بالسن ، وهذا مما نسخ حكمه بشرعنا، وكان من سرق استعبد، وكانت عمة يوسف حضنته وأحبته حباً شديداً ، فلما ترعرع وشب قال له يعقوب، سلمى يوسف إلى، فلست أقدر أن يغيب عنى ساعة ، فولعت به، وأشفقت من فراقه ، فقالت له : دعه عندى أياماً أنظر إليه. فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت: لقد فقدت منطقة اسحق ، فانظروا من أخذها ومن أصابها ، ثم قالت: اكشفوا أهل البيت فكشفوا ، فوجدت مع يوسف، فقالت: إنه والله لى سلم أصنع فيه ما شئت، ثم أتاها يعقوب فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذلك، أن كان فعل ذلك فهو سلم لك، فأمسكته حتى ماتت، فبذلك عيره إخوته فى قولهم : ﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ ومن ها هنا تعلم يوسف وضع السقاية فى رحل أخيه كما عملت معه عمته . وقال سعيد بن جبير : إنما أمرته أن يسرق صنماً كان لجده أبى أمه، فسرقه وكسره وألقاه على الطريق، وكان ذلك منهما تغييرا للمنكر، فرموه بالسرقة وعيروه بها ، وقال قتادة.

وفى كتاب الزجاج أنه كان صنم ذهب، وقال عطية العوفى أنه كان مع أخوته على طعام فنظر إلى عرق فخبأه فعيروه بذلك. وقيل: أنه كان يسرق من طعام المائدة للمساكين ، حكاه ابن عيسى، وقيل: إنهم كذبوا عليه فيما نسبوا إليه، قال الحسن.

قوله تعالى:﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ أى : أسر فى نفسه قولهم: ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ قال ابن شجرة، وقيل: أنه أسر فى نفسه قوله: ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ ثم جهر فقال: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أي الله أعلم أن ما قلتم كذب، وإن كانت له رضا. وقد قيل: إن أخوة يوسف فى ذلك الوقت ما كانوا أنبياء.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾[1] خاطبوه باسم العزيز إذ كان فى تلك اللحظة بعزل الأول أو موته، وقولهم : ﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ أي كبير القدر، ولم يريدوا كبر السن ، لأن ذلك معروف من حال الشيخ ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ أي عبدا بدله، وقيل: إن هذا مجاز، لأنهم يعلمون أنه لا يصلح أخذ حر يسترق بدل من قد أحكمت السنة عندهم رقه ، وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله: اقتلنى ولا تفعل كذا وكذا ، وأنت لا تريد أن يقتلك ، ولكنك مبالغ فى ذلك ، ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿ فَخُذْ

(١) قضية الحمالة (٢٠).

أحدنا مكانهُ﴾ حقيقة ، وبعيد عليهم وهم أنبياء أن يروا استرقاق حر ، أي خذ أحدنا مكانه حتى ينصرف إليك صاحبك ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه، ويعرف يعقوب جلبة الأمر، فمنع يوسف عليه السلام من ذلك إذا الحمالة فى الحدود ونحوها - بمعنى إحصار المضمون فقط - جائزة مع التراضى ، غير لازم إذا أبى الطالب، وإنما الحمالة فى مثل هذا على أن يلزم الحميل ما كان يلزم المضمون من عقوبة، ولا يجوز إجماعاً وفى "الواضحة" أن الحمالة فى الوجه فقط فى الحدود جائزة، إلا فى النفس، وجمهور الفقهاء على جواز الكفالة فى النفس، واختلف فيها عن الشافعي ، فمرة ضعفها ، ومرة أجازها .

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل أن يريدوا وصفه بما رأوا من إحسانه فى جميع أفعاله معهم، ويحتمل أن يريدوا إنا نرى لك إحساناً علينا فى هذه اليد إن أسديتها إليها ، وهذا تأويل ابن اسحاق.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ مصدر ﴿أَن نَّأْخُذَ﴾ فى موضع نصب، أي من نأخذ ﴿إِلاَّ مَن وَجَدْنَا﴾ فى موضع نصب بـ ﴿نَّأْخُذَ﴾ ﴿مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ أي معاذ الله أن نأخذ البرئ بالمجرم ، ونخالف ما تعاقدنا عليه ﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ أي : أن نأخذ غيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ أي لقد تعديت وظلمت إن أذيت إنساناً بجرم صدر عن غيره.

فإن قيل: هذه الواقعة من أولها إلى آخرها تزوير وكذب، فكيف يجوز من يوسف عليه السلام مع رسالته الإقدام على التزوير والترويج ، وإيذاء الناس من غير سبب، ولاسيما ويعلم أنه إذا حبس أخاه عند نفسه بهذه التهمة فإن يعظم حزن أبيه ويشتد غمه.

فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة فى التزوير إلى هذا الحد ؟

فالجواب: لعله تعالى أمره بذلك تشديداً للمحنة على يعقوب ونهاه عن العفو والصفح وأخذ البدل كما أمر تعالى صاحب موسى بقتل من لو بقى لطغى وكفر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)﴾.

في الآية مسألتان :

المسألة الأولى : اعلم أنهم لما قالوا: ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ وهو نهاية ما يمكنهم بذله.

فقال يوسف فى جوابه : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ فانقطع طمعهم من يوسف عليه السلام فى رده.

فعند هذا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ وهو مبالغة فى يأسهم من رده.

وقال تعالى ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ أي تفردوا على سائر الناس يتناجون.

المراد يتشاورن ويتحيلون الرأى فيما وقعوا فيه ، لأنهم إنما أخذوا بنيامين من أبيهم بعد المواثيق المؤكدة وبعد أن كانوا متهمين فى حق يوسف ، فلو لم يعيدوه إلى أبيهم لحصلت محن كثيرة.

أحدها : أنه لو لم يعودوا إلى أبيهم وكان شيخاً كبيراً فبقاؤه وحده من غير أحد من أولاده محنة عظيمة.

ثانيها : أن أهل بيتهم كانوا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة.

ثالثها : أن يعقوب عليه السلام ربما كان يظن أن أولاده هلكوا بالكلية، وذلك غم شديد ولو عادوا إلى أبيهم بدون بنيامين لعظم حياؤهم ، فإن ظاهر الأمر يوهم أنهم خانوه فى هذا الابن كما أنهم خانوه فى الابن الأول ، وكان يوهم أيضاً أنهم ما أقاموا لتلك المواثيق المؤكدة وزناً ولا شك أن هذا موضع فكرة وحيرة وذلك يوجب التفاوض والتشاور طلباً للأصلح الأصوب.

فهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ .

المسألة الثانية : قال الواحدى : روى عن ابن كثير (استيئسوا) و (حتى إذا استيئس الرسل) بغير همز هكذا (استينس) وفى ييئس لغتان : يئس وييأس مثل حسب ويحسب، ومن قال: (استأيس) قلب العين إلى موضع إلغاء الفاء فصار استغفل وأصله استيأس ثم خففت الهمزة.

قال صاحب الكشاف : استيأسوا يئسوا ، وزيادة السين والتاء للمبالغة كما فى قوله تعالى (فاستعصم) .

قوله تعالى: (خلصوا) قال الواحدى: يقال خلص الشىء يخلص خلوصاً إذا ذهب عنه الشائب عن غيره.

ثم فيه وجهان :

الأول : قال الزجاج خلصوا أي انفردوا وليس معهم أخوهم.

الثاني : قال الباقون تميزوا عن الأجانب، وهذا هو الأظهر.

وأما قوله تعالى: (نجياً) فقال صاحب الكشاف : النجى على معنيين : يكون بمعنى الناجى كالعشير والمسير بمعنى المعاشر والمسامر، ومنه قوله تعالى: (وقربناه نجياً) وبمعنى المصدر الذى هو التناجى كما قيل: النجوى بمعنى المتناجين ، فعلى هذا معنى (خلصوا) اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم (نجياً) أي مناجياً روى «نجوى» أي فوجاً (نجياً) أى مناجاة لمناجاة بعضهم بعضاً، وأحسن الوجوه أن يقال : أنهم تمحصوا تناجياً، لأنه من كمل حصول أمر من الأمور وصف بأنه صار غير ذلك الشيء، فلما أخذوا فى التناجى على غاية الجد صاروا كأنهم فى أنفسهم صاروا نفس التناجى حقيقة.

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ فقيل: المراد كبيرهم فى نفس السن، وهو روبيل، وقيل: كبيرهم فى العقل وهو يهودا ، وهو الذى نهاهم عن قتل يوسف.

ثم حكى تعالى عن هذا الكبير أنه قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما قال يوسف عليه السلام : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، غضب يهودا ، وكان إذا غضب وصاح فلا تسمع صوته حامل إلا وضعت ويقوم شعره على جسده فلا يسكن حتى يضع بعض آل يعقوب يده عليه، فقال لبعض إخوته : أكفونى أسواق أهل مصر وأنا أكفيكم الملك ، فقال يوسف عليه السلام لابن صغير اسمه مسه، فمسه فذهب غضبه وهم أن يصيح فركض يوسف عليه السلام رجله على الأرض وأخذ بملابسه وجذبه فسقط عنده قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ .. ﴾.

فلما أيسوا من قبول الشفاعة تذاكروا وقالوا: إن أبانا قد أخذ علينا موثقاً عظيماً من الله، وأيضاً نحن متهمون بواقعة يوسف فكيف المخلص من هذه الورطة؟

المسألة الثانية : لفظ «ما» فى قوله تعالى ﴿ مَا فَرَّطتُمْ ﴾ فيها وجوه :

الأول : أن يكون أصله من قبل هذا فرطتم فى شأن يوسف عليه السلام ، ولم تحفظوا عهد أبيكم.

الثانى : أن تكون مصدرية ومحله الرفع على الابتداء وخبره الظرف، وهو ﴿وَمِن

قبلُ ﴾ ومعناه وقع من قبل تفريطكم في يوسف.

الثالث : النصب عطفاً على مفعول ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا ﴾ والتقدير : ألم تعلموا أخذ أبيكم موثقاً وتفريطكم من قبل في يوسف.

الرابع : أن تكون موصولة بمعنى : ومن قبل هذا ما فرطتموه ، أي قدمتموه في حق يوسف من الخيانة العظيمة، ومحله الرفع والنصب على الوجهين المذكورين.

ثم قال تعالى: «حكاية عن قول أخيهم» ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ ﴾ أي أفارق أرض مصر ﴿ حَتَىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ في الانصراف إليه ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ بالخروج منها، أو بالانتصاف من أخذ أخي أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب، وهو خير الحاكمين ، لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق.

وبالجملة فالمراد ظهور عذر يزول معه حياؤه ، وخجله عن أبيه أو غيره، قاله انقطاعاً إلى الله تعالى في إظهار عذر بوجه من الوجوه.

قولـــه تعالى : ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾[1] [يوسف].

أعلم أنهم لما تفكروا في الأصوب ما هو ؟ ظهر لهم أن الأصوب هو الرجوع، أن يذكروا لأبيهم كيفية الواقعة على الوجه من غير تفاوت.

والظاهر أن هذا القول قاله ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ قيل: إنه روبيل، بقى هو في مصر وبعث سائر إخوته إلى أبيه، وقيل: إنه يهودا.

فإن قيل: كيف حكموا عليه بأنه سرق من غير بينة، لاسيما وهو قد أجاب بالجواب الشافي، فقال الذي جعل الصواع في رحلي وهو الذي جعل البضاعة في رحالكم؟

والجود عنه من وجوه:

الوجه الأول : أنهم تعاهدوا أن الصواع كان موضوعاً في موضوع ما كان يدخله أحد إلا هم، فلما شاهدوا أنهم أخرجوا الصواع من رحله غلب على ظنونهم أنه هو أخذ الصواع.

وأما قوله : وضع الصواع في رحلي من وضع البضاعة في رحالكم فالفرق ظاهر، لأن هناك لما رجعوا بالبضاعة إليهم اعترفوا بأنهم هم الذين وضعوها في رحالهم، وأما هذا

(١) العير : القافلة.

الصواع فإن أحداً لم يعترف بأنه هو الذى وضع الصواع فى رحله فظهر الفرق. فلهذا السبب غلب على ظنونهم أنه سرق، فشهدوا بناء على هذا الظن.

ثم يبين أنهم غير قاطعين بهذا الأمر بقولهم: ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾.

الوجه الثانى : أن تقدير الكلام ﴿ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ فى قول الملك وأصحابه ، ومثله كثير فى القرآن ، قال تعالى ﴿ ... إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾[هود] ، أي عند نفسك، وقال تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾[الدخان].

الوجه الثالث : إن ابنك ظهر عليه ما يشبه السرقة هذا الشىء يسمى سرقة، فإن إطلاق أحد الشبيهين على الشبيه الآخر جائز فى القرآن، قال تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾[الشورى].

الوجه الرابع : أن القوم ما كانوا أنبياء فى ذلك الوقت فلا يبعد أن يقال: أنهم ذكروا هذا الكلام على سبيل المجازفة لاسيما وقد شاهدوا شيئاً يوهم ذلك.

الوجه الخامس : أن ابن عباس رضى الله عنهما كان يقرأ ﴿ إِنَّ ابْنَكَ سُرِّقَ ﴾ بالتشديد، أي نسب إلى السرقة فهذه القراءة لا حاجة بها إلى التأويل لأن القوم نسبوه إلى السرقة.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ فمعناه ظاهر لأنه يدل على أن الشهادة غير العلم بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ وذلك يقتضى كون الشهادة مغايرة للعلم ولأنه عليه الصلاة والسلام قال: إذا علمت مثل الشمس فاشهد، وذلك أيضاً يقتضى ما ذكرناه.

وليست الشهادة أيضاً عبارة عن قوله أشهد،لأنه قوله أشهد إخبار عن الشهادة، والإخبار عن الشهادة غير الشهادة.

إذا ثبت هذا فنقول : الشهادة عبارة عن الحكم الذهنى وهو الذى يسميه المتكلمون بكلام النفس.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ ففيه وجوه :

الأول : أنا قد رأينا أنهم أخرجوا الصواع من رحله، وأما حقيقة الحال فغير معلومة لنا، فإن الغيب لا يعلمه إلا الله.

الثانى : قال عكرمة معناه : لعل الصواع دس فى متاعه بالليل، فإن الغيب اسم لليل على بعض اللغات.

الثالث : قال مجاهد والحسن وقتادة : ما كنا نعلم أن ابنك يسرق، ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به إلى الملك وما أعطيناك موثقاً من الله فى رده إليك.

الرابع : نقل أن يعقوب عليه السلام قال لهم : فهب أنه سرق، ولكن كيف عرف الملك أن شرع بنى إسرائيل أن من سرق يسترق؟ بل أنتم ذكرتموه له لغرض لكم، فقالوا عند هذا الكلام، إنا قد ذكرنا له هذا الحكم قبل وقوعنا فى هذه الواقعة، وما كنا نعلم أن هذه الواقعة نقع فيها .

فقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ إشارة إلى هذا المعنى فإن قيل : فهل يجوز من يعقوب عليه السلام أن يسعى فى إخفاء حكم الله تعالى عن هذا القول؟

قلنا : لعله كان ذلك الحكم مخصوصاً بما إذا كان المسروق منه مسلماً ، فلعله أنكر هذا الحكم عند الملك الذى ظنه كافراً.

ثم حكى تعالى عنهم أنهم قالوا :﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾.

واعلم أنهم لما كانوا متهمين بسبب واقعة يوسف بالغوا فى إزالة التهمة عن أنفسهم فقالوا: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ والأكثرون اتفقوا على أن المراد من هذه القرية مصر.

وقال قوم : بل المراد منه قرية على باب مصر جرى فيها حديث السرقة والتفتيش، ثم فيه قولان:

الأول : المراد : واسأل أهل القرية، إلا أن حذف المضاف للإيجاز والاختصار، وهذا النوع من المجاز مشهور فى لغة العرب، قال أبو على الفارس، ودافع جواز هذا فى اللغة كدافع الضروريات وجاحد المحسوسات.

الثانى : قال أبو بكر الأنبارى: المعنى : اسأل القرية والعير والحيطان فإنها تجيبك وتذكر لك صحة ما ذكرناه لأنك من أكابر أنبياء الله فلايبعد أن ينطق الله هذه الجمادات معجزة لك حتى تخبر بصحة ما ذكرناه.

وفيه وجه ثالث : وهو أن الشىء إذا ظهر ظهوراً تاماً فقد يقال فيه : سل السماء والأرض وجميع الأشياء عنه، والمراد أنه بلغ فى الظهور إلى الغاية التى ما بقى للشك فيه مجال.

أما قوله تعالى ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ فقال المفسرون : كان قد صحبهم قوم من الكنعانيين فقالوا : سلهم عن هذه الواقعة.

ثم أنهم لما بالغوا فى التأكيد والتقرير قالوا: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ يعنى سواء نسبتنا إلى التهمة أو لم تنسبنا إليها فنحن صادقون، وليس غرضهم أن يثبتوا صدق أنفسهم بأنفسهم لأن هذا يجرى على مجرى إثبات الشىء بنفسه، بل الإنسان إذا قدم ذكر الدليل القاطع على صحة الشىء فقد يقول بعده وأنا صادق فى ذلك، يعنى فتأمل فيما ذكرته من الدلائل والبيانات لتزول عنك الشبهة.

قوله تعالى:﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾[1].

اعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع من أبنائه ذلك الكلام لم يصدقهم فيما ذكروا كما فى واقعة يوسف فقال تعالى:﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ فذكر هذا الكلام بعينه فى الواقعة.

إلا أنه قال فى واقعة يوسف عليه السلام :﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

وقال ههنا :﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾.

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : قال بعضهم : إن قوله : بل سولت لكم أنفسكم أمراً، ليس المراد منه ههنا الكذب والاحتيال كما فى قوله فى واقعة يوسف عليه السلام حين قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً لكنه عنى سولت لكم أنفسكم إخراج بنيامين عنى والمسير به إلى مصر طلباً للمنفعة، فعاد من ذلك شر وضرر وألحتم على فى إرساله معكم ولو تعلموا أن قضاء اللّه إنما جاء على خلاف تقديركم.

وقيل: بل المعنى سولت لكم أنفسكم أمراً خيلت لكم أنفسكم أنه سرق وماسرق.

المسألة الثانية : قيل إنه روبيل لما عزم على الإقامة بمصر أمره الملك أن يذهب مع إخوته فقال اتركونى وإلا صحت صيحة لا تبقى بمصر امرأة حامل إلا وتضع حملها. فقال يوسف دعوه، ولما رجع القوم إلى يعقوب عليه السلام وأخبروه بالواقعة بكى، وقال: يا بنى لا تخرجوا من عندى مرة إلا ونقص بعضكم ، ذهبتم مرة ونقص يوسف، وفى المرة الثانية نقص شمعون، وفى هذه الثالثة نقص روبيل وبنيامين.

(١) سولت : زينت وسهلت.

ثم حكى وقال: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾.

وإنما حكم بهذا الحكم لوجهين:

الأول : أنه لما طال حزنه وبلاؤه ومحنته علم أنه تعالى سيجعل له فرجاً ومخرجاً عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن برحمة الله تعالى.

الثاني : لعله تعالى قد أخبره بعد محنة يوسف أنه حى أو ظهرت له علامات ذلك، وإنما قال : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ لأنهم حين ذهبوا بيوسف كانوا اثنى عشر فضاع يوسف وبقى إحدى عشر، ولما أرسلهم إلى مصر عادوا تسعة لأن بنيامين حبسه يوسف واحتبس ذلك الكبير الذى قال: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي .. ﴾ فلما كان الغائبون ثلاثة لذا قال: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾.

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ يعنى هو العالم بحقائق الأمور الحكيم فيها على الوجه المطابق للفضل والإحسان والرحمة والمصلحة.

قوله تعالى ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

وفيه مسائل :

المسألة الأولى : اعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع كلام أبنائه ضاق قلبه جداً، وأعرض عنهم وفارقهم ثم بالآخرة طلبهم وعاد إليهم.

أما المقام الأول : وهو أنه أعرض عنهم وفر منهم، فهو قوله تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾.

وأعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذى سمعه من أبنائه فى حق بنيامين عظم أسفه على يوسف عليه السلام وقال : ﴿ ... يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف هذه الواقعة لوجوه:

الوجه الأول : أن الحزن الجديد يقوى الحزن القديم الكامن، والقرح إذا وقع على القرح كان أوجع ، وقال متمم بن نويرة :

وقد لامني عند القبور على البكا فقال أتبكي

رفيقي لتذراف الدموع السوافك لقبر ثوى بين

كل قبر رأيته فقلت له إن الأسى يبعث الأسى

اللوى والدكادك فدعني فهذا كله قبر مالك

وذلك لأنه رأى قبرا فتجدد حزنه على أخيه مالك فلاموه عليه فأجاب بأن الأسى يبعث الأسى.

الوجه الثاني : أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة، وكانت المشابهة بينهما فى الصورة والصفة أكمل، فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام ، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد.

الوجه الثالث : أن المصيبة فى يوسف كانت أصل مصائبه التى عليها ترتب سائر المصائب والرزايا ، وكان الأسف عليه أسفاً على الكل.

الوجه الرابع : أن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور يمكن معرفتها والبحث عنها.

وأما واقعة يوسف فهو عليه السلام كان يعلم كذبهم فى السبب الذى ذكروه، وأما السبب الحقيقى فما كان معلوما له.

وأيضاً أنه عليه السلام كان يعلم أن هؤلاء فى الحياة، وأما يوسف فما كان يعلم أنه حى أو ميت.

فلهذه الأسباب عظم وجده على مفارقته وقويت مصيبته على الجهل بحاله.

المسألة الثانية : من الجهال من عاب يعقوب عليه السلام على قوله : ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قال لأن هذا إظهار للجزع وجار مجرى الشكاية من الله وأنه لا يجوز.

والعلماء بينوا أنه ليس الأمر كما ظنه هذا الجاهل.

وتقريره أنه عليه السلام لم يذكر هذه الكلمة ثم عظم بكاؤه ، وهو المراد من قوله تعالى ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾.

ثم أمسك لسانه عن الناحية وذكر ما لا ينبغي ، وهو المراد من قوله تعالى ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

ثم أنه ما أظهر الشكاية مع أحد من الخلق بدليل قوله ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ وكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبته ، وقويت محنته فإن صبر وتجرع الغصة، وما أظهر الشكاية فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثناء العظيم.

روى أن يوسف عليه السلام سأل جبريل هل لك علم بيعقوب ؟ قال: نعم، قال: وكيف حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى، وهى التى لها ولد واحد ثم يموت، قال فهل له أجر؟ قال: نعم، أجر مائة شهيد.

فإن قيل: روى عن محمد بن على الباقر قال: مر بيعقوب شيخ كبير فقال له : أنت إبراهيم؟ فقال انا ابن ابنه والهموم غيرتنى وذهبت بحسنى وقوتى، فأوحى الله تعالى إليه «حتى متى تشكونى إلى عبادى ! وعزتى وجلالى لو لم تشكنى لأبدلتك لحماً خيراً من لحمك ودماً خيراً من دمك» فكان من بعد يقول إنما أشكو بثى إلى الله.

وعن النبى ﷺ أنه قال :« كان ليعقوب أخ مواخ فقال له : ما الذى أذهب بصرك وقوس ظهرك.؟ فقال الذى أذهب بصرى البكاء على يوسف، وقوس ظهرى الحزن على بنيامين فأوحى الله تعالى إليه : أما تستحى تشكونى إلى غيرى؟ فقال : ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ فقال :يا رب أما ترحم الشيخ الكبير قوست ظهرى، وأذهبت بصرى، فأردد على ريحانتى : يوسف وبنيامين ، فأتاه جبريل عليه السلام وقال : لو كانا ميتين لنشرتهما لك، فاصنع طعاماً للمساكين، فإن أحب عبادى إلى الأنبياء والمساكين».

وكان يعقوب عليه السلام إذا أراد الغذاء نادى مناديه : من أراد الغداء فليتغد مع يعقوب، وإذا كان صائماً نادى مثله عند الإفطار.

وروى أنه كان يرفع حاجبيه بخرقة من الكبر، فقال له رجل: ما هذا الذى أراه بك؟ قال: طوى الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى الله إليه «أتشكونى يا يعقوب» فقال: يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى.

قلنا : إنا قد دللنا على أنه لم يأت إلا بالصبر والثبات وترك النياحة.

وروى أن ملك الموت دخل على يعقوب عليه السلام فقال له : جئت لتقبضنى قبل أن أرى حبيبى فقال: لا، ولكنى جئت لأحزن لحزنك وأشجو لشجوك، وأما البكاء فليس من المعاصى.

وروى أن النبى ﷺ بكى على ولده إبراهيم عليه السلام وقال: «إن القلب ليحزن والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الرب ، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون».

وأيضاً فاستيلاء الحزن على الإنسان ليس باختياره ، فلا يكون ذلك داخلاً تحت التكليف ، وأما التأوه وإرسال البكاء فقد يصير بحيث لا يقدر على دفعه.

وأيضاً هناك دقيقة أخرى : وهى أن الإنسان إذا كان فى موضع التحير والتردد لابد وأن يرجع إلى الله تعالى، فيعقوب عليه السلام لم يكن يعلم أن يوسف بقى حياً أم صار ميتاً ، فكان متوقفاً فيه ، وبسبب توقفه كان يكثر الرجوع إلى الله تعالى وينقطع قلبه عن الالتفات عن كل ما سوى الله تعالى إلا فى هذه الواقعة.

وكانت أحواله فى هذه الواقعة مختلفة ، فربما صار بعض الأوقات مستغرقاً إليهم بذكر الله تعالى، فإن عن تذكر هذه الواقعة، فكان ذكرها كلا سواها ، فلهذا السبب صارت هذه الواقعة بالنسبة إليه جارية مجرى الإلقاء فى النار للخليل عليه السلام ومجرى الذبح لابنه الذبيح.

فإن قيل: أليس أن الأولى عند نزول المصيبة الشديدة ، أن يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، حتى يستوجب الثواب العظيم المذكور فى قوله تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾[البقرة].

قلنا : قال بعض المفسرين إنه لم يعط الاسترجاع أمة إلا هذه الأمة، فأكرمهم الله تعالى إذا أصابتهم مصيبة.

وهذا عندى ضعيف لأن قوله تعالى ﴿ .. إِنَّا لِلَّهِ ﴾ إشارة إلى أنا مملوكون لله وهو الذى خلقنا وأوجدنا، وقال تعالى :﴿ .. وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾[البقرة] إشارة إلى أنه لابد من الحشر والقيامة، ومن المحال أن أمة من الأمم لا يعرفون ذلك.

فمن عرف عند نزول المصائب به أنه لابد فى العاقبة من رجوعه إلى الله تعالى فهناك تحصل السلوة التامة عند تلك المصيبة، ومن المحال أن يكون المؤمن بالله غير عارف بذلك.

المسألة الثالثة : قوله تعالى: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ نداء الأسف، وهو كقوله (يا عجبا) والتقدير كأنه ينادى الأسف ، ويقول هذا وقت حصولك وأوان مجيئك، وقد قررنا أن هذا المعنى فى مواضع كثيرة منها تفسير قوله تعالى: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾.

والأسف الحزن على ما فات : قال الليث : إذا جاءك أمر فحزنت له ولم تطقه فأنت أسيف أي حزين ومتأسف أيضاً.

قال الزجاج : الأصل (يا أسفى) إلا أن ياء الإضافة يجوز إبدالها بالألف لخفة الألف والفتحة.

ثم قال تعالى: ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ وفيه وجهان:

الوجه الأول : أنه لما قال: ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ غلبه البكاء، وعند غلبة البكاء يكثر الماء في العين فتصير العين كأنها أبيضت من بياض ذلك الماء.

وقوله تعالى: ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ كناية عن غلبة البكاء.

والدليل على صحة هذا القول أن تأثير الحزن في غلبة البكاء لا في حصول العمى فلو حملنا الابيضاض على غلبة البكاء كان هذا التعليل حسناً، ولو حملناه على العمى لم يحسن هذا التعليل فكان ما ذكرناه أولى.

وهذا التفسير مع الدليل رواه الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله تعالى ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ قيل: لم يبصر بهما ست سنين، وأنه عمي، قال مقاتل : قد تبيض العين ويبقى شيء من الرؤية ، والله أعلم بحال يعقوب، وإنما ابيضت عيناه من البكاء، ولكن سبب البكاء الحزن، فلهذا قال (من الحزن) ، وقيل: إن يعقوب كان يصلي، ويوسف نائماً معترضاً بين يديه، فغط في نومه، فالتفت يعقوب إليه، ثم غط ثانية فالتفت إليه، ثم غط ثالثة فالتفت إليه سروراً به وبغطيطه ، فأوحى الله تعالى إلى الملائكة «انظروا إلى صفيي وابن خليلي قائماً في مناجاتي يلتفت إلى غيري، وعزتي وجلالي ! لأنزعن الحدقتين اللتين التفت بهما ، ولأفرق بينه وبين من التفت إليه ثمانين سنة، ليعلم العاملون أن من قام بين يدي يجب عليه مراقبة نظري».

الثانية : هذا يدل على أن الالتفاف في الصلاة - وإن لم يبطل - يدل على العقوبة عليها ، والنقص فيها ، وقد روى البخاري عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد» وسيأتي ما للعلماء في هذا في أول سورة "المؤمنين" موعباً إن شاء الله تعالى.

الثالثة: قال النحاس : فإن سأل قوم عن معنى شدة حزن يعقوب - عليه السلام وعلى نبينا- فللعلماء في هذا ثلاثة أجوبة : منها - أن يعقوب عليه السلام لما علم أن يوسف عليه السلام حي خاف

على دينه ، فاشتد حزنه لذلك . وقيل: إنما حزن لأنه سلمه إليهم صغيراً، فندم على ذلك. والجواب الثالث - وهو أبينها - هو أن الحزن ليس بمحظور ، وإنما المحظور الولولة وشق الثياب ، والكلام بما لاينبغى . قال النبى ﷺ: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب» . وقد بين الله جل وعز ذلك بقوله : ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى : مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثه ، ومن كظم الغيظ وهو إجفاؤه ، فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه ، قال الله تعالى: ﴿ .. إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾[القلم] أي مملوء كربا ، ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم . وهو المشتمل على حزنه.

الوجه الثانى : أن المراد هو العمى، قال مقاتل : لم يبصر بهما ست سنين حتى كشف الله تعالى عنه بقميص يوسف عليه السلام وهو قوله تعالى: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ قيل: إن جبريل عليه السلام دخل على يوسف حينما كان فى السجن فقال: إن بصر أبيك ذهب من الحزن عليك فوضع يده على رأسه وقال: ليت أمى لم تلدنى، ولم أك حزناً على أبى.

والقائلون بهذا التأويل قالوا : الحزن الدائم يوجب العمى ، لأنه يورث كدرة فى سوداء العين.

ومنهم من قال: ما عمى لكنه صار بحيث يدرك إدراكاً ضعيفاً، قيل: ما جفت عيناً يعقوب من وقت فراق يوسف ﷺ إلى حين لقائه، وتلك المدة ثمانون عاماً، وما كان على وجه الأرض عبد أكرم على الله تعالى من يعقوب ﷺ .

أما قوله تعالى: ﴿مِنَ الْحُزْنِ﴾ فأعلم أنه قرئ (من الحزن) بفتح الحاء وسكون الزاى، وقرأ الحسن بفتح الحاى والزاى.

قال الواحدى : واختلفوا فى الحزن والحزن، فقال : قوم الحزن البكاء والحزن ضد الفرح.

وقال قوم : هما لغتان ، يقال: أصابه حزن شديد، وحزن وهو مذهب أكثر أهل اللغة.

وروى يونس عن أبى عمرو قال: إذا كان فى موضع النصب فتحوا الحاء والزاى كقوله ﴿ .. تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ .. ﴿٨٣﴾ ﴾[المائدة] ، وإذا كان فى موضع الخفض أو الرفع ضموا الحاء كقوله تعالى: ﴿مِنَ الْحُزْنِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ قال هو فى موضع رفع بالابتداء.

وأما قوله تعالى: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ فيجوز أن يكون بمعنى الكاظم وهو الممسك على حزنه فلا يظهر، قال ابن قتيبة : ويجوز أن يكون بمعنى المكظوم ، ومعناه المملوء من الحزن

مع سد طريق نفسه المصدور ، من كظم السقاء ، إذا اشتد على مثله ، ويجوز أيضاً أن يكون بمعنى مملوء من الغيظ على أولاده.

وأعلم أن أشرف أعضاء الإنسان هذه الثلاثة ، فبين تعالى أنها كانت غريقة فى الغم: فاللسان كان مشغولاً بقوله ﴿ يَا أَسَفَىٰ ﴾ والعين بالبكاء والبياض، والقلب بالغم الشديد الذى يشبه الوعاء المملوء الذى شد ولا يمكن خروج الماء منه، وهذا مبالغة فى وصف ذلك الغم.

أما قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ ففيه مسألتان.

المسألة الأولى : قال ابن السكيت يقال: ما زلت أفعله وما فتئت أفعله وما برحت أفعله، ولا يتكلم بهن إلا من الجحد ، قال ابن قتيبة يقال: ما فتيت وما فتئت لغتان، فتياً وفتؤا إذا نسيته وانقطعت عنه، قال النحويون: وحرف النفى ههنا مضمر على معنى قالوا: ما تفتؤ وجاز حذفه ، لأنه لو أريد الإثبات لكان باللام والنون نحو : والله لتفعلن ، فلما كان بغير اللام والنون عرف أن كلمة لا مضمرة ، وأنشدوا قول امرئ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ، والمعنى : لا أبرح قاعدا ، ومثله كثير.

وأما المفسرون فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة : لا تزال تذكره ، وعن مجاهد لا تفتر من حبه كأنه جعل الفتور والفتو أخوين.

المسألة الثانية : حكى الواحدى عن أهل المعانى أن أصل الحرض فساد الجسم والعقل للحزن والحب، وقوله: حرضت فلانا على فلان تأويله أفسدته وأحميته عليه، وقال تعالى ﴿ .. حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ .. ﴿٦٥﴾ ﴾[الأنفال].

إذا عرفت هذا فتقول : وصف الرجل لأنه حرض أما أن يكون لإرادة أنه ذو حرض فحذف المضاف أو لإرادة أنه لما تناهى فى الفساد والضعف فكأنه صار عين الحرض ونفس الفساد ، أما الحرض بكسر الراء فهو الصفة وجاءت القراءة بهما معا ، إذا عرفت هذا فتقول للمفسرين فيه عبارات :

أحدهما : الحرض والحارض هو الفاسد فى جسمه وعقله.

ثانيهما : سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن الحرض فقال: الفاسد الدنف.

وقوله : ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أى من الأموات، ومعنى الآية أنهم قالوا لأبيهم أنك لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه أو تموت من الغم كأنهم قالوا: أنت الآن فى بلاء شديد، ونخاف أن تحصل ما هو أزيد منه وأقوى وأرادوا بهذا القول منعه عن كثرة البكاء والأسف.

ثم حكى عن يعقوب عليه السلام أنه قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (١) يعنى أن هذا الذى أذكره لا أذكره معكم وإنما أذكره فى حضرة الله تعالى ، والإنسان إذا بث شكواه إلى الله تعالى كان فى زمرة المحققين كما قال عليه الصلاة والسلام (أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من غضبك، وأعوذ بك منك) والله هو الموفق.

والبث هو التفريق ، قال الله تعالى: ﴿ .. وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾[البقرة] فالحزن إذا ستره الإنسان كان هما وإذا ذكره كان بثا .

وقالوا : البث أشد الحزن والحزن أشد الهم ، وذلك لأنه متى أمكنه أن يمسك لسانه عن ذكره لم يكن ذلك الحزن مستولياً عليه، وأما إذا أعظم وعجز الإنسان عن ضبطه وانطلق اللسان بذكره شاء أم أبى كان بثا وذلك يدل على أن الإنسان صار عاجزاً عنه وهو قد استولى على الإنسان.

فقوله تعالى :﴿ بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي لا أذكر الحزن العظيم ولا الحزن القليل إلا مع الله.

وقرأ الحسن : وحزنى بفتحتين ، وحزنى بضمتين.

وروى أنه أوحى الله إليه إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه ، وإن أحب خلقى إلىَّ الأنبياء والمساكين فاصنع طعاما وادع إليه المساكين، وقيل: اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت.

ثم قال يعقوب عليه السلام: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون، وهو أنه تعالى يأتى بالفرج من حيث لا أحتسب، فهو إشارة إلى أنه كان يتوقع وصول يوسف إليه.

وذكروا لسبب هذا التوقع أمورا :

---

(١) قضية الشكوى (٢١).

أحدهما : أن ملك الموت أتاه فقال له : يا ملك الموت هل قبضت روح ابنى يوسف؟ قال لا يا نبى الله ، ثم أشار إلى جانب مصر وقال: أطلبه ههنا .

ثانيهما : أنه علم أن رؤيا يوسف صادقة ، لأن إمارات الرشد والكمال كانت ظاهرة فى حق يوسف ورؤيا مثله عليه السلام لا تخطىء.

ثالثهما : لعله تعالى أوحى إليه أنه سيوصله إليه، ولكنه تعالى ما عين الوقت، فلهذا بقى فى القلق.

رابعهما : قال السدى:لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكمال حاله فى أقواله وأفعاله طمع أن يكون هو يوسف، وقال: يبعد أن يظهر فى الكفار مثله.

خامسها : علم قطعاً أن بنيامين لا يسرق وسمع أن الملك ما آذاه وما ضربه فغلب على ظنه أن ذلك الملك هو يوسف ؛ فهذا جملة الكلام فى المقام الأول.

المقام الثانى : أنه رجع إلى أولاده وتكلم معهم على سبيل اللطف، وهو قوله تعالى ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾.

وأعلم أنه عليه السلام لما طمع فى وجدان يوسف بناء على الأمارات المذكورة قال لبنيه: تحسسوا من يوسف ، والتحسس طلب الشىء بالحاسة وهو شبيه بالسمع والبصر.

قال أبو بكر الأنبارى : يقال تحسس عن فلان ولا يقال من فلان وقيل ههنا (من يوسف) لأنه أقام (من) مقام (عن).

قال : ويجوز أن يقال : (من) للتبعيض ، والمعنى تحسسوا خبرا من أخبار يوسف واستعملوا بعض أخبار يوسف ، فذكره كلمة (من) لما فيها من الدلالة على التبعيض.

وقرئ : (تجسسوا) بالجيم كما قرئ بهما فى الحجرات.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾[1] قال الأصمعى : الروح ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه، وتركيب الراء والواو والحاء يفيد الحركة والاهتزاز ، فكل ما يهتز الإنسان له ويلتذ بوجوده فهو روح.

وقال ابن عباس : لا تيأسوا من روح الله يريد من رحمة الله، وعن قتادة : من فضل الله ، وقال ابن زيد : من فرح الله، وهذه الألفاظ متقاربة.

وقرأ الحسن وقتادة (من روح الله) بالضم أي من رحمته.

---

(١) قضية اليأس من رحمة الله (٢٢).

ثم قال: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنها : إن المؤمن من الله على خير : يرجوه فى البلاء ويحمده فى الرخاء.

واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم بل هو بخيل، وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر.

فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة وكل واحد منها كفر، ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرا، والله أعلم.

وقد بقى من مباحث هذه الآية عدة أسئلة :

السؤال الأول : أن بلوغ يعقوب فى حب يوسف إلى الحد العظيم لا يليق إلا بمن كان غافلاً عن الله ، فإن من عرف الله أحبه ومن أحب الله لم يتفرغ قلبه لحب شىء سوى الله تعالى.

وأيضاً القلب الواحد لا يتسع للحب المستغرق لشيئين ؛ فلما كان قلبه مستغرقاً فى حب ولده امتنع أن يقال : إنه كان مستغرقاً فى حب الله تعالى.

السؤال الثانى : أن عند استيلاء الحزن الشديد عليه كان من الواجب أن يشتغل بذكر الله تعالى، وبالتفويض إليه والتسليم لقضائه.

وأما قوله تعالى :﴿يَا أَسَفَىٰ﴾ فذلك لا يليق بأهل الدين والعلم فضلاً عن أكابر الأنبياء.

السؤال الثالث : لا شك أن يعقوب كان من أكابر الأنبياء، وكان أبوه وجده وعمه كلهم من أكابر الأنبياء المشهورين فى جميع الدنيا، ومن كان كذلك ثم وقعت له واقعة هائلة صعبة فى أعز أولاده عليه لم تبق تلك الواقعة خفية، بل لابد وأن يبلغ فى الشهرة إلى حيث يعرفها كل أحد لا سيما وقد انقضت المدة الطويلة فيها وبقى يعقوب على حزنه الشديد وأسفه العظيم ، وكان يوسف فى مصر وكان يعقوب فى بعض بلاد الشام قريباً فى مصر، فمع قرب المسافة يمتنع بقاء مثل هذه الواقعة مخفية.

السؤال الرابع : لم لم يبعث يوسف ﷺ أحداً إلى يعقوب ويعلمه أنه فى الحياة وفى السلامة ؟ ولا يقال : إنه كان يخاف أخوته لأنه بعد أن صار ملكاً قاهراً كان يمكنه إرسال الرسول إليه، وإخوته ما كانوا يقدرون على دفع الرسول.

السؤال الخامس : كيف جاز ليوسف ﷺ أن يضع الصاع فى وعاء أخيه ثم يستخرجه منه ويلصق به تهمة السرقة مع أنه كان بريئاً منها ؟

السؤال السادس : كيف رغب فى إلصاق هذه التهمة به وفى حبسه عند نفسه مع أنه كان يعلم أنه يزداد حزن أبيه ويقوى ؟

الجواب عن الأول : أن مثل هذه المحنة الشديدة تزيل عن القلب كل ما سواه من الخواطر، ثم أن صاحب هذه المحنة الشديدة يكون كثير الرجوع إلى الله تعالى كثير الاشتغال بالدعاء والتضرع فيصير ذلك سبباً لكمال الاستغراق.

والجواب عن الثانى : أن الدواعى الإنسانية لا تزول فى الحياة العاجلة، فتارة كان يقول : ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ وتارة كان يقول ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾.

وأما بقية الأسئلة فالقاضى أجاب عنها بجواب كل حسن، فقال هذه الوقائع التى نقلت إلينا إما يمكن تخريجها على الأحوال المعتادة أو لا يمكن.

فإن كان الأول فلا اشكال، وإن كان الثانى فنقول : كان ذلك الزمان زمان الأنبياء عليهم السلام وخرق العادة فى هذا الزمان غير مستبعد ، فلم يمتنع أن يقال: إن بلدة يعقوب عليه السلام مع أنها كانت قريبة من بلدة يوسف عليه السلام، ولكن لم يصل خبر أحدهما إلى الآخر على سبيل نقض العادة، وهذا كله تحقيق لإرادة الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (١) ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ(٢) ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٣) ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ(٤) ﴿٩٣﴾

(١) الضر : الهزال من شدة الجوع - بضاعة مزجاة : بأثمان رديئة كاسدة.
(٢) آثرك الله علينا : اختارك وفضلك علينا.
(٣) لا تثريب عليكم : لا تأنيب عليكم ولا لوم عليكم.
(٤) يأت بصيراً : يصير بصيراً من شدة السرور.

ولما فصلت العير(١) قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون(٢) ﴿٩٤﴾ قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم (٣)﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ فلما دخلوا عليه ﴾أي على يوسف عليه السلام بعدما رجعوا إلى مصر بموجب أمر أبيهم، وإنما لم يذكر إيذاناً بمسارعتهم إلى ما أمروا به وإشعاراً بأن ذلك أمر محقق لا يفتقر إلى الذكر والبيان.

وأنكر اليهود رجوعهم بعد أخذ بنيامين إلى أبيهم ثم عودهم إلى مصر وزعموا أنهم لما جاءوا أولا للميرة اتهمهم بأنهم جواسيس فاعتذروا وذكروا أنهم أولاد نبى الله تعالى يعقوب وأنهم كانوا اثنى عشر ولدا هلك واحد منهم وتخلف أخوه عند أبيهم يتسلى به عن الهالك حيث أنه كان يحبه كثيراً فقال: ائتونى به لأتحقق صدقكم وحبس شمعون عنده حتى يجيئوا فلما أتوا به ووقع ما وقع من أمر السرقة ، أظهروا الخضــــوع والانكسـار فلم يمـلك عليه السلام نفسه حتى تعرف إليهم ثم أمرهم بالعودة إلى أبيهم ليخبره الخبر ويأتوا به ﴿ قالوا يا أيها العزيز ﴾ خاطبوه وذلك تعظيماً له على حد خطابهم السابق به على ما هو الظاهر وهل كانوا يعرفون اسمه أم لا ، لم أر من تعارض لذلك فإن كانوا يعرفونه ازداد أمر جهالتهم غرابة، والمراد على ما قال الإمام وغيره يا أيها الملك القادر المنيع ﴿ مسنا وأهلنا الضر ﴾ الهزال من شدة الجوع، والمراد بالأهل ما يشمل الزوجة وغيرها ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ ، مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا ، من أزجيته إذا دفعته وطردته والريح تزجى السحاب ، وأنشدوا لحاتم:

لبيك على ملحان ضيف مدفع وأرملة تزجــى مع الليــل أرمــلا

وكنى بها عن القليل أو الردئ لأنه لعدم الاعتناء يرمى ويطرح قيل: كانت بضاعتهم من متاع الأعراب صوفا وسمناً، وقال الزجاج : هى من قولهم : فلان يزجى العيش أي يدفع الزمان بالقليل، والمعنى أنا جئنا ببضاعة يدفع بها الزمان وليست مما ينتفع به ، والتقدير على هذه البضاعة مزجاة بها الأيام أي تدفع بها ويصير عليها.

وعن الكلبى أن (مزجاة) من لغة العجم ، وقيل: من لغة القبط، وتعقب ذلك ابن الانبارى بأنه لا ينبغى أن يجعل لفظ معروف الاشتقاق والتصريف منسوباً إلى غير لغة العرب فالنسبة إلى ذلك مزجاة.

---

(١) فصلت العير : فارقت القافلة عريش مصر.
(٢) تفندون : تسفهونى أو تكذبونى.
(٣) ضلالك : ذهابك عن الصواب.

وقرأ حمزة والكسائى (مزجية) بالإمالة لأن أصلها الياء والظاهر أنهم قدموا هذا الكلام ليكون ذريعة إلى أسعاف مرائهم ببعث الشفقة وهز العطف والرأفة وتحريك سلسلة الرحمة ثم قالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ..﴾ أي اتمه لنا ولا تنقصه لقلة بضاعتنا أو رداءتها واستدل بهذا على أن الكيل على البائع ولا دليل فيه ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ ظاهرة بالإيفاء أو بالمسامحة وقبول المزجاة أو بالزيادة على ما يساويها.

قال الضحاك . وابن جريج . أنهم أرادوا تصدق علينا برد بنيامين على أبيه، قيل: وهو الأنسب بحالهم بالنسبة إلى أمر أبيهم وكأنهم أرادوا تفضل علينا بذلك لأن رد الأخ ليس بصدقة حقيقة، وقد جاءت الصدقة بمعنى التفضل كما قيل، ومنه تصدق الله تعالى على فلان بكذا، وأما قول الحسن لمن سمعه يقول: اللهم تصدق على إن الله تعالى لا يتصدق إنما يتصدق من يبغى الثواب قل: اللهم اعطنى أو تفضل على أو ارحنى فقد رد بقوله ﷺ «تصدق الله تعالى بها عليكم فأقبلوا صدقته» وأجيب عنه مجازاً أو مشاكلة ، وإنما رد الحسن على القائل لأنه لم يكن بليغا كما فى قصة المتوفى، وادعى بعضهم تعين الحمل على المجاز أيضاً إذا كان المراد طلب الزيادة على ما يعطى بالثمن بناء على أن حرمة أخذ الصدقة ليست خاصة بنبينا ﷺ كما ذهب إليه سفيان بن عيينة بل هى عامة له ﷺ ولمن قبله من الأنبياء عليهم السلام وآلهم كما ذهب إليه البعض، والسائلون من إحدى الطائفتين لا محالة وتعقب بأنا لو سلمنا العموم لا نسلم أن المحرم أخذ الصدقة مطلقاً بل المحرم إنما هو أخذ الصدقة المفروضة وما هنا ليس منها، والظاهر كما قال الزمخشرى : أنهم امسكوا له عليه السلام بقولهم : (مسنا) الخ وطلبوا إليه أن يتصدق عليهم بقولهم ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾[1] فلو لم يحمل على الظاهر لما طابقه ذلك التمهيد ولا هذا التوطيد أعنى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بذكر الله تعالى وجزائه الحاملين على ذلك، وإن فاعله منه تعالى بمكان.

قال النقاش : وفى العدول عن أن الله تعالى يجزيك بصدقتك إلى ما فى النظم الكريم مندوحة عن الكذب فهو من المعاريض، فإنهم كانوا يعتقدونه ملكاً كافراً وروى مثله عن الضحاك ، ووجه عدم بدءهم بما أمروا به على القول بخلاف الظاهر فى التعلق التصدق بأن فيما سلكوه استجلاباً للشفقة والرحمة فكأنهم أرادوا أن يملأوا حياض قلبه من نميرها

---

(١) القضية (٢٣) : التصدق.

ليسقوا به أشجار تحسسهم لتثمر لهم غرض أبيهم، ووجه بعضهم بمثل هذا ثم قال: على أن قولهم (وتصدق) إلخ كلام ذو وجهين فإنه يحتمل الحمل على المحملين فلعله عليه السلام حمله على طلب الرد ولذلك (قال) مجيباً عما عرضوا به وضمنوه كلامهم من ذلك ﴿ .. هَلْ علمتُم مَّا فعلْتُم بيُوسُفَ وأَخيه﴾ وكان الظاهر على هذا الاقتصار على التعرض بما فعل مع الأخ إلا أنه ﷺ تعرض لما فعل به أيضاً لاشتراكهم فى وقوع الفعل عليهما، فإن المراد بذلك إفرادهم له عنه وإذلاله بذلك حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة، والاستفهام ليس عن العلم بنفس ما فعلوه لأن الإرادى مسبوق بالشعور لا محالة بل هو عما فيه من القبح بدليل قوله :﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهلُونَ﴾ أي هل علمتم ما فعلتموه زمان مضى قبحه وزال ذلك الجهل أم لا ؟ وفيه من إبداء عذرهم وتلقينهم إياه ما فيه كما فى قوله تعالى ﴿ .. مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾[الانفطار] والظاهر لهذا أن ذلك لم يكن تشفياً بل حث على الإقلاع ونصح لهم لما رأى من عجزهم وتمسكنهم كما رأى مع خفى معاتبة على وجود الجهل وأنه حقيق الانتقاء فى مثلهم ، فلله تعالى هذا الخلق الكريم كيف ترك حظه من التشفى إلى حق الله تعالى على وجه يتضمن حق الأخوين أيضاً والتطلف فى إسماعه مع التنبيه أن هذا الضر أولى بالكشف، قيل: ويجوز أن يكون هذا الكلام منه عليه السلام منقطعاً عن السابق وتنبيهاً لهم عما هو حقهم ووظيفتهم من الاعراض عن جميع المطالب والتمحض لطلب بنيامين، بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحى أو الإلهام على وصية أبيه ﷺ لما رأى منهم وهو من أرق خلق الله قلباً وكان قد بلغ الكتاب أجله شرع فى كشف أمره فقال ما قال.

ولعل الأنسب أئنك أنت أو أنت يوسف تجيهلا لنفسه أن يكون مخاطبة يوسف أي أئنك المعروف عزيز مصر أو أنت يوسف، استبعدوا أن يكون العزيز يوسف أو يوسف عزيزا ، وفيه قلة الإضمار أيضاً مع تغاير المعطوف والمعطوف عليه وقوة الدلالة على المحذوف والجرى على قانون الاستفهام مع زيادة للفائدة من إبهام البعد بين الحالتين.

واختلفوا فى تعيين سبب معرفتهم إياه ﷺ فقيل: عرفوه بروائه وشمائله وكان قد أدناهم إليه ولم يدنهم من قبل، وقيل: كان يكلمهم من وراء حجاب فلما أراد التعرف إليهم رفعه فعرفوه ، وقيل: تبسم فعرفوه بثناياه وكانت كاللؤلؤ وكان يضىء ما حواليه من نور تبسمه ، وقيل ﷺ رفع التاج عن رأسه فنظروا إلى علامة بقرنه كان ليعقوب، وإسحق. وسارة مثلها تشبه الشامة البيضاء فعرفوه بذلك ، وينضم إلى ذلك علمهم أن ما خاطبهم به لا يصدر مثله إلا عن حنيف مسلم من إبراهيم لا عن بعض أعزاء مصر، وزعم بعضهم أنهم

إنما قالوا ذلك على التوهم ولم يعرفوه حتى أخبر عن نفسه ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ ﴾ والمعول عليه ما تقدم وهذا جواب عن مسا ءلتهم وزاد عليه قوله :﴿ وَهَذَا أَخِي ﴾ أى من أبوى مبالغ فى تعريف نفسه، قال بعض المدققين : إنهم سألوه متعجبين عن كونه يوسف محققين لذلك مخيلين لشدة التعجب أنه ليس إياه فأجابهم بما يحقق ذلك مؤكداً ، لهذا لم يقل عَلَيْهِ السَّلَامُ : بلى أو أنا هو فأعاد صريح الاسم ﴿ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ وجوز الطيبى أن يكون ذلك جارياً على الأسلوب الحكيم كأنهم لما سألوه متعجبين أنت يوسف ؟ أجاب لا تسألوا عن ذلك فإنه ظاهر ولكن اسألوا ما فعل الله تعالى بى من الامتنان والإعزاز وكذلك بأخى وليس من ذاك فى شيء كما لا يخفى. وفى إرشاد العقل السليم أن فى زيادة الجواب مبالغة وتفخيماً لشأن الأخ وتكملة لما أفاده قوله ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ حسبما يفيده (قد من) الخ فكأنه قال: هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال فأنا يوسف وهذا أخى قد من الله تعالى علينا بالخلاص عما ابتلينا به والاجتماع بعد الفرقة والعزة بعد الذلة والأنس بعد الوحشة ولا يبعد أن يكون فيه إشارة إلى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه أخى لا أخوكم فلا وجه لطلبكم انتهى وفيه ما فيه . وجملة (قد من) الخ عندأبى البقاء مستأنفة ، وقيل: حال من (يوسف) و (أخى) وتعقب بأن فيه بعدا لعدم العامل فى الحال حينئذ ، ولا يصح أن يكون (هذا) إشارة إلى واحد وعلينا راجع إليهما جميعاً (أنه) أي الشأن ﴿ مَن يَتَّقِ ﴾ أى يفعل التقوى فى جميع أحواله أو يتق نفسه عما يوجب سخط الله تعالى وعذابه ﴿ وَيَصْبِرْ ﴾ على البلايا والمحن أو على مشقة الطاعات أو عن المعاصى التى تستلذها النفس ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى أجرهم، وإنما وضع للمظهر موضع المضمر تنبيهاً على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالإحسان، والجملة فى موضع العله للمن، واختار أبو حيان عدم التخصيص فى التقوى والصبر ، وقال مجاهد: من يتق المعاصى ويصبر على أذى الناس، وقال الزمخشرى : المراد من يخف الله تعالى ويصبر عن المعاصى وعلى الطاعات. وتعقبه صاحب الفرائد بأن فيه حمل من يتق على المجاز، ولا مانع من الحمل على الحقيقة والعدول عن ذلك إلى المجاز من غير ضرورة غير جائز فالوجه أن يقال: من يتق من يحترز عن ترك ما أمر به، وارتكاب ما نهى عنه، ويصبر فى المكاره ، وذلك باختياره وهذا بغير اختياره فهو محسن، وذكر الصبر بعد التقوى من ذكر الخاص بعد العام، ويجوز أن يكون ذلك لإرادة الثبات على التقوى كأنه قيل: من يتق ويثبت على التقوى انتهى.

والوجه الأول فيه ميل لما ذكره أبو حيان. وتعقب ذلك الطيبى بأن هذه الجملة تعليل لما تقدم وتعريض بأخواته بأنهم لم يخافوا عقابه تعالى ولم يصبروا على طاعته عز وجل وطاعة أبيهم وعن المعصية إذ فعلوا ما فعلوا فيكون المراد بالاتقاء الخوف وبالصبر على الطاعة وعن المعصية ورد بأن التعريض حاصل فى التفسير الآخر فكأنه فسره لئلا يتكرر مع الصبر وفيه نظر. وقرأ قنبل (من يتقى) بإثبات الياء ، فقيل: هو مجزوم بحذف الياء التى هى لام الكلمة وهذه ياء إشباع ، وقيل: جزمه بحذف الحركة المقدرة وقد حكوا ذلك لغة وقيل: هو مرفوع و(من) موصول وعطف المجزوم عليه على التوهم كأنه توهم أن (من) شرطية و (يتقى) مجزوم ، وقيل: أن (يصبر) مرفوع كيتقى إلا أنه سكنت الراء لتوالى الحركات وإن كان ذلك فى كلمتين كما سكنت فى (يأمركم) ونحوها أو للوقوف وأجرى الوصل مجرى الوقف، الأحسن من هذه الأقوال كما فى البحر أن يكون يتقى مجزوماً على لغة وإن كانت قليلة، وقول أبى على : أنه لا يحمل على ذلك لأنه إنما يجىء فى الشعر لا يلتفت إليه لأن غيره من رؤساء النحويين حكوه لغة ونظماً ونثراً ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي اختارك وفضلك علينا بالتقوى والصبر وقيل: بالملك، وقيل: بالصبر والعلم روياً عن ابن عباس ، وقيل: بالحلم والصفح ذكره سليمان الدمشقى، وقال صاحب الغنيان: بحسن الخلق والخلق والعلم والحلم والإحسان والملك والسلطان والصبر على أذانا والأول أولى.

(وان) أى والحال أن الشأن ﴿كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ أى لمعتمدين للذنب إذ فعلنا ولذلك أعزك وأذلنا ، قالوا أو حالية و ﴿وَإِن﴾ مخففة اسمها ضمير الشأن واللام التى فى خبر كان هى المزحلقة (وخاطئين) من خطىء إذا تعمد وأما اخطأ فقصد الصواب ولم يوفق له، وفى قولهم : هذا من الاستنزال لإحسانه ﷺ الاعتراف بما صدر منهم فى حقه مع لا إشعار بالتوبة ما لا يخفى ولذلك ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ﴾[1] أى لا تأنيب ولا لوم (عليكم) وأصله من الثرب وهو الشحم الرقيق فى الجوف وعلى الكرش، وصيغة التفعيل للسلب على إزالة الثرب كالتجليد والتقريع بمعنى إزالة الجلد والقرع ، واستعير للوم الذى يمزق الأعراض ويذهب بهاء الوجه لأنه بإزالة الشحم يبدو الهزال وما لا يرضى كما أنه باللوم تظهر العيوب فالجامع بينهما طربان النقص بعد الكمال وإزالة ما به الكمال والجمال وهو اسم ﴿لَا﴾

(١) قضية التثريب (٢٤).

و(عليكم) متعلق بمقدر وقع خبراً، وقوله تعالى ﴿الْيَوْمَ﴾ متعلق بذلك الخبر المقدر أو بالظرف أي لا تثريب مستقر عليكم اليوم وليس التقيد به لإفادة وقوع التثريب في غيره فإنه عليه السلام إذا لم يثرب أول لقائه واشتعال ناره فبعده بطريق الأولى. وقال المرتضى أن (اليوم) موضوع موضع الزمان كله كقوله :

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا والیوم نتبع من كان لنا تبعاً

كأنه أريد بعد اليوم ، وجوز الزمخشري تعلقه - بتثريب - وتعقبه ابن حيان قائلا: لايجوز ذلك لأن التثريب مصدر وقد فصل بينه وبين معموله - بعليكم- وهو أما خبراً أو صفة لا يجوز الفصل بينهما بنحو ذلك لأن معمول المصدر من تمامه، وأيضاً لو كان متعلقاً به لم يجز بناؤه حينئذ من قبيل المشبه بالمضاف وهو الذي يسمى المطول والممطول فيجب أن يكون معرباً منوناً، ولو قيل: الخبر محذوف و (عليكم) متعلق بمحذوف يدل على تثريب وذلك المحذوف هو العامل في (اليوم) والتقدير لا تثريب عليكم اليوم كما قدر وافي ﴿ ..لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿٤٣﴾ ﴾[هود] أي لا عاصم يعصم اليوم.

وجوز أيضاً كون الخبر ذاك ﴿الْيَوْمَ﴾ متعلقاً بقوله له : ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ، وقال ابن المنير: لو كان متعلقاً به لقطعوا بالمغفرة بأخبار الصديق ولم يكن كذلك لقولهم ﴿ .. يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ وتعقب بأنه لا طائل تحته لأن المغفرة وهي ستر الذنب يوم القيامة حتى لا يؤخذوا به ولا يقرعوا إنما يكون ذلك الوقت وأما قبله فالحاصل هو الإعلام به والعلم ويتحقق وقوعه بخبر الصادق لا يمنع الطلب لأن الممتنع طلب الحاصل لا طلب ما يعلم بحصوله ، على أن يكون هضماً للنفس واعتبر باستغفار الأنبياء عليهم السلام ولا فرق بين الدعاء والإخبار هنا.

وقد يقال أيضاً : إن الذين طلبوه من أبيهم مغفرة ما يتعلق به ويرجع إلى حقه ولم يكن عندهم علم بتحقق ذلك، على أنه يجوز أن يقال أنهم لم يعتقدوا إذ ذاك نبوته وظنوه مثلهم غير نبي فأنه لم يمض وقت بعد معرفة أنه يسع معرفة أنه نبي أيضاً وما جرى من المفاوضة لا يدل على ذلك فافهم ، وإلى حمل الكلام على الدعاء ذهب غير واحد وذهب جمع أيضاً إلى كونه خبراً . والحكم بذلك مع أنه غيب قيل لأنه ﷺ صفح عن جريمتهم حينئذ وهم قد اعترفوا بها أيضاً فلا محالة أنه سبحانه يغفر لهم ما يتعلق به تعالى وما يتعلق به ﷺ بمقتضى وعده جل شأنه بقبول توبة العباد، وقيل: لأنه عليه السلام قد أوحى إليه بذلك، وأنت تعلم أن أكثر القراء على الوقوف على (اليوم) وهو ظاهرة في عدم تعلقه - يغفر-

وهو اختيار الطبرى ، وابن اسحاق وغيرهم واختاروا كون الجملة بعده دعائية، وهو الذى يميل إليه الذوق، والله تعالى أعلم ﴿ ... وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ؛ فإن كل من يرحم سواه جل وعلا فإنما يرحم برحمته سبحانه مع كون ذلك مبنياً على جلب نفع أو دفع ضر ولا أقل من دفع ما يجده فى نفسه من التألم الروحانى مما يجده فى المرحوم، وقيل: لأنه تعالى يغفر الصغائر والكبائر التى لا يغفرها غيره سبحانه ويتفضل على التائب بالقبول ، والجملة إما بيان للوثوق بإجابة الدعاء أو تحقيق لحصول المغفرة لأنه عفا عنهم فاللّه تعالى أولى بالعفو والرحمة لهم هذا .

ومن كرم يوسف عليه السلام ما روى أن إخوته أرسلوا إليه أنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشية ونحن نستحى منك ما فرط منا فيك فقال عليه السلام : إن أهل مصر وإن ملكت فيهم كانوا ينظرون إلىّ بالعين الأولى ويقولون : سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت بكم الآن وعظمت فى العيون حيث علم الناس أنكم أخوتى وأنى من حفدة إبراهيم عليه السلام والظاهر أنه عليه السلام حصل بذلك العلم للناس ما لم يحصل قبل فإنه عليه السلام دلهم عليه بعض الآيات السابقة والأخبار وقد أخبرهم أنه ابن من وممن.

وكذا ما أخرجه سعيد بن منصور، وابن منذر، وابن أبى حاتم. وابن الشيخ عن ابن عباس قال: قال الملك يوما ليوسف عليه السلام إنى أحب أن تخالطنى فى كل شىء إلا فى أهلى وأنا آنف أن تأكل معى فغضب يوسف عليه السلام ، فقال: أنا أحق أن آنف أنا ابن إبراهيم خليل الله وأنا ابن اسحاق ذبيح الله وأنا ابن يعقوب نبى الله ولكن لم يشتهر ذلك أو لم يفد الناس علما . وفى التوراة التى بأيدى اليهود اليوم أنه عليه السلام لما رأى من أخوته مزيد الخجل أدناهم إليه وقال: لا يشق عليكم أن بعتمونى وإلى هذا المكان أوصلتمونى فإن الله تعالى قد علم ما يقع من القحط والجدب وما ينزل بكم من ذلك ففعل ما أوصلنى به إلى هذا المكان والمكانة ليزيل عنكم بى ما ينزل بكم ويكون ذلك سبباً لبقائكم فى الأرض وانتشار ذراريكم فيها وقد مضت من سنى الجدب سنتان وبقى خمس سنين ، وأنا اليوم قد صيرنى الله تعالى مرجعاً لفرعون وسيداً لألهه وسلطاناً على جميع أهل مصر فلا يضق عليكم أمركم ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا ﴾ هو القميص الذى كان عليه حينئذ كما هو الظاهر، وعن ابن عباس وغيره أنه القميص الذى كساه الله تعالى إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار، وكان من قميص الجنة جعله يعقوب حين وصل إليه فى قصبة فضة وعلقة فى عنق يوسف عليه السلام وكان من حرير، وكان لايقع على عاهة من عاهات الدنيا إلا أبرأها بإذن الله تعالى.

وضعف هذا بأن قوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ يدل على أنه ﷺ كان لابساً له فى تعويذته كما تشهد به الإضافة إلى ضميره وهو تضعيف ضعيف كما لا يخفى وقيل: هو القميص الذى قد من دبر وأرسله ليعلم يعقوب أنه عصم من الفاحشة ولا يخفى بعده، وأياما كان فالباء إما للمصاحبة أو للملابسة أى اذهبوا مسحوبين أو ملتبسين به أو للتعدية على ما قيل أى اذهبوا بقميصى هذا فالقوه على وجه أبى يأت بصيراً أى يصير بصيرا ويشهد له ﴿فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ أو يأت إلى، وهو بصير ونصره قوله : ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ من النساء والذرارى وغيرهم مما ينتظمه لفظ الأهل كذا قالوا.

وحاصل الوجهين - كما قال بعض المدققين - أن الإتيان فى الأول مجاز عن الصيرورة ولم يذكر إتيان الأب إليه لا لكونه داخلاً فى الأهل فإنه يجل عن التابعية بل تفادياً عن أمر الأخوة بالإتيان لأنه نوع إخبار على من يؤتى به فهو إلى اختياره، وفى الثانى على الحقيقة وفيه التفادى المذكور، والجزم بأنه من الآتين لا محالة وثوقاً بمحبته وأن فائدة الإلقاء إتيانه على ما أحب من كونه معافى سليم البصر، وفيه أى صيرورته بصير أمر مفروغ عنه مقطوع إنما الكلام فى تسبب الإلقاء لإتيانه كذلك فهذا الوجه أرجح وإن كان الأول من الخلاقة بالقبول بمنزل ، وفيه دلالة على أنه ﷺ قد ذهب بصره ، وعلم يوسف ﷺ بذلك يحتمل أن يكون باعلامهم ويحتمل أن يكون بالوحى، وكذلك علمه بما يترتب على الإلقاء يحتمل أن يكون عن وحى أيضاً أو عن وقوف من قبل على خواص ذلك القميص الذى كان فى التعويذة ويتعين الاحتمال الأول إن كان المراد غيره على ما هو الظاهر. وقال الإمام : يمكن أن يقال : لعل يوسف ﷺ علم أن أباه ما عرا بصره ما عراه إلا من كثرة البكاء وضيق القلب فإذا ألقى عليه قميصه فلابد وأن ينشرح صدره وأن يحصل فى قلبه الفرح الشديد وذلك يقوى الروح ويزيل الضعف عن القوى فحينئذ يقوى بصره ويزول عن ذلك النقصان فهذا القدر مما يمكنه معرفته بالعقل فإن القوانين الطبية تدل على صحته وأنا لا أرى ذلك، قال الكلبى: وكان أولئك الأهل نحواً من سبعين إنساناً وأخرج ابن أبى حاتم عن الرويبع بن أنس أنهم اثنان وسبعون من ولده وولد ولده ، وقيل: ثمانون وقيل: تسعون وأخرج ابن المنذر، وغيره عن ابن مسعود أنهم ثلاثة وتسعون ، وقيل: ست وتسعون، وقد نموا فى مصر فخرجوا منها مع موسى ﷺ وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت للذرية ألف ألف ومائتى ألف على ما قيل.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ خرجت من عريش مصر قاصدة مكان يعقوب ﷺ وكان قريباً من بيت المقدس والقول بأنه كان بالجزيرة لا يعول عليه، يقال: فصل من البلد يفصل فصولاً

إذا انفصل منه وجاوز حياطنه وهو لازم وفصل الشيء، فصلا إذا فرقه، وهو متعد، وقرأ ابن عباس (ولما انفصلت العير) قال أبوهم يعقوب عليه السلام لمن عنده ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي لأشم فهو وجود حاسة الشم أشمه الله تعالى ما عبق بالقميص من ريح يوسف عليه السلام من مسيرة ثمانية أيام على ما روى عن ابن عباس، وقال الحسن، وابن جريج عن ثمانين فرسخاً، وفي رواية عن الحسن أخرى من مسيرة ثلاثين يوماً، وفي أخرى عنه من مسيرة عشر ليال، وقد استأذنت الريح على ما روى عن أبى أيوب الهروى فى إيصال عرق يوسف عليه السلام فأذن الله تعالى لها، وقال مجاهد: صفت الريح القميص فراحت روائح الجنة فى الدنيا واتصلت بيعقوب عليه السلام فوجد ريح الجنة فعلم أنه ليس فى الدنيا من ريحها إلا ما كان من ذلك القميص فقال ما قال، ويبعد ذلك الإضافة فإنها حينئذ لأدنى ملابسة وهى فيما قيل: وان كانت كذلك أيضاً إلا أنها أقوى بكثير منها على هذا كما لا يخفى ﴿لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي تنسبونى إلى الفند أي الفساد.

بمعنى ضعف الرأى والعقل من الهرم وكبر السن ويقال: فند الرجل إذا نسبه إلى الفند، وهو على ما قيل مأخوذ من الفند وهو الحجر كأنه جعل حجراً لقلة فهمه كما قيل:

إذا أنت تعش ولم تدر ما الهوى ... فكن حجراً من يابسة الصخر جلمد

استمع فيه فقيل: فنده إذا ضعف رأيه ولامه على ما فعل.

قال الشاعر:

يا عاذلى دعا لومى وتفنيدى ... فليس ما قلت من أمر بمردود

وجاء أنفد الدهر فلانا أفسده قال ابن مقتل:

دع الدهر يفعل ما أراد فإنه ... إذا كلف الافناد بالناس أفندا

ويقال: شيخ مفند إذا فسد رأيه، ولا يقال: عجوز مفندة لأنها لا رأى لها فى شيبتها حتى يضعف قاله الجوهرى وغيره من أهل اللغة، وذكره الزمخشرى فى الكشاف وغيره، واستغربه السمين ولعل وجهه أن لها عقلا وإن كان ناقصاً يشتد نقصه بكبر السن فتأمل، وجواب ﴿لَوْلا﴾ محذوف أي لولا تفنيدكم إياى لصدقتمونى أو لقلت: إن يوسف قريب مكانه أو لقاؤه أو نحو ذلك، والمخاطب قبل من بقى ولده غير الذين ذهبوا يمتارون وهم كثير، وقيل: ولد ولده ومن كان بحضرته من ذوى قرابته وهو المشهور ﴿قَالُوا﴾ أي أولئك مخاطبون ﴿.. تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أى لفى ذهابك عن الصواب، بالإفراط فى محبة يوسف والإكثار من ذكره وتوقع لقائه وجعله فيه لتمكنه ودوامه عليه، وأخرج

ابن جرير عن مجاهد أن الضلال هنا بمعنى الحب، وقال مقاتل :هو الشقاء والعناء، وقيل: الهلاك والذهاب من تقولهم : ضل الماء في اللبن أي ذهب فيه وهلك، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير تفسيره بالجنون وهو مما لا يلق وكأنه لتفسير بمثل ذلك قال قتادة : لقد قالوا كلمة غليظة لا ينبغي أن يقولها مثلهم لمثله ﷺ ولعلهم إنما قالوا ذلك لظنهم أنه مات.

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا أن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾[1].

(أن) زائدة، و(البشير) قيل هو شمعون وقيل: يهوذا قال: أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبت به ملطخاً بالدم ، قاله ابن عباس، وعن السدى أنه قال لأخوته ، قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص الترحة فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة، وقال يحيى بن يمان عن سفيان: لما جاء البشير إلى يعقوب قال له: على أى دين تركت يوسف؟ قال : على الإسلام. قال: الآن تمت النعمة، وقال الحسن : لما رد البشير على يعقوب للشم يجد عنده شيئاً يثيبه به، فقال: والله ما أصبت عندنا شيئاً، وما خبزنا شيئاً منذ سبع ليال، ولكن هون الله عليه سكرات الموت.

قلت: وهذا الدعاء من أعظم ما يكون الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر ، ودلت هذه الآية على جواز البذل والهبات عند البشائر، وفى الباب حديث كعب بن مالك – الطويل – وفيه: «فلما جائنى الذى سمعت صوته يبشرن نزعت ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته» وذكر الحديث، وقد تقدم بكماله فى قصة الثلاثة الذين خلفوا، وكسوة كعب ثوبيه للبشير مع كونه ليس له غيرهما دليل على جواز مثل ذلك إذا ارتجى حصول ما يستبشر به، وهو دليل على جواز إظهار الفرح وزوال الغم والترح، ومن هذا الباب جواز حذاقة الصبيان ، وإطعام فيها، وقد نحر عمر بعد سورة (البقرة) جزوراً ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذكرهم قوله: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

---

(١) آوى إليه أبويه : صفهما إليه واعتنقهما.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ فى الكلام حذف ، التقدير : فلما رجعوا من مصر قالوا يا أبانا ، وهذا يدل على أن الذى قال له ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ بنو بنيه أو غيرهم من قرابته وأهله لا ولده ، فإنهم كانوا غيبا ، وكان يكون ذلك زيادة فى العقوق ، والله أعلم.

وإنما سألوه المغفرة ، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله.

قلت : وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلماً فى نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالما له ، فإنه يجب عليه أن يتحلل المطلق أم لا ؟ فيه خلاف ، والصحيح أنه لا ينفع ، فإنه لو أخبره بمظلمة لها قدر وبال ربما لم تطب نفس المظلوم فى التحلل منها ، والله أعلم ، وفى صحيح البخارى وغيره عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شىء فليتحلله من اليوم قبل ألا يكون دينارا ولا درهما إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحل عليه » وقال المهلب فقوله ﷺ « أخذ منه بقدر مظلمته » يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشار إليها مبينة ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾[1] وقال ابن عباس : آخر دعاءه إلى السحر. وقال المثنى بن الصباح عن طاووس قال: سحر ليلة الجمعة ووافق ذلك ليلة عاشوراء . وفى دعاء الحفظ من كتاب الترمذى – عن ابن عباس أنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذا جاءه على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال: بأبى أنت وأمى يا رسول الله – تفلت هذا القرآن من صدرى ، فما أجدنى أقدر عليه ، فقال له رسول الله ﷺ : « أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن وينفع بهن من علمته ويثبت ما تعلمت فى صدرك » قال: أجل يا رسول الله ، فعلمنى ، قال: « إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم فى ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال أخى يعقوب عليه السلام لبنيه ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ يقول حتى تأتى ليلة الجمعة » وذكر الحديث وقال أيوب بن أبى تميمة السختيانى عن سعيد بن جبير قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ فى الليالى البيض ، فى الثالثة عشرة ، والرابعة عشرة ، والخامسة عشرة ، فإن الدعاء فيها مستجاب ، وعن عامر الشعبى قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ أي أسأل يوسف إن عفا عنكم أستغفرت لكم ربى ، وذكر سنيد بن داود قال: حدثنا هشام قال: حدثنا عبدالرحمن بن إسحاق عن محار بن دثنار

---

(١) قضية الدعاء بظهر الغيب (٢٥).

عن عمه قال: كنت أتى المسجد فى السحر فأمر بدار ابن مسعود فأسمعه يقول اللهم إنك أمرتنى فأطعت، ودعوتنى فأجبت ، وهذا سحر فاغفر لى، فلقيت ابن مسعود فقلت: كلمات أسمعك تقولهن فى السحر؟ فقال: إن يعقوب آخر بنيه إلى السحر بقوله ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أى قصرا كان له هناك ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ قيل: إن يوسف ﷺ بعث مع البشير مائتى راحلة وجهازاً ، وسأل يعقوب أن يأتيه بأهله وولده جميعاً، فلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه، أى ضم، ويعنى بأبويه أباه وخالته، وكانت أمه قد ماتت فى ولادة أخيهم بنيامين، وقيل: أحيا الله أمه تحقيقاً للرؤيا حتى سجدت له، قال الحسن، وقد جاء فى الأثر «أن الله تعالى أحيا لنبيه ﷺ أباه وأمه فآمنا به».

قوله تعالى﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ قال ابن جريج : أي سوف أستغفر لكم ربى إن شاء الله : وهذا من تقديم القرآن وتأخيره، قال النحاس: يذهب ابن جريج إلى أنهم قد دخلوا مصر فكيف يقول: ﴿ .. ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) ﴾ وقيل: إنما قال ﴿ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ تبركاً وجزماً، ﴿ آمِنِينَ ﴾ من القحط أو من فرعون، وكانوا لا يدخلونها إلا بجواره.

وقوله تعالى:﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾.

قوله تعالى:﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ قال قتادة يريد السرير، وقد تقدمت محامله، وقد يعبر بالعرش عن الملك والملك نفسه، ومنه قول النابغة الذبيانى:

عروش تفانوا بعد عز وأمنه

قوله تعالى: ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾.

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾[1] الهاء فى (خروا له) قيل : إنها تعود على الله تعالى، والمعنى وخروا شكراً لله سجداً، ويوسف لا قبلة لتحقيق رؤياه، وروى عن

(١) قضية السجود لغير الله (٢٦).

الحسن، قال النقاش: وهذا خطأ، والهاء راجعة إلى يوسف لقوله تعالى فى أول السورة ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ وكان تحيتهم أن يسجد الوضيع للشريف، والصغير للكبير، سجد يعقوب وخالته وإخوته ليوسف عليه السلام فاقشعر جلده وقال: ﴿ هذا تأويل رءياي من قبل ﴾ وكان بين رؤيا يوسف عليه السلام وتأويلها اثنتان وعشرون سنة ، وقال سلمان الفارسى وعبدالله ابن شداد : أربعون سنة، قال عبدالله بن شداد : وذلك آخر ما تبطىء الرؤيا ، وقال قتادة : خمس وثلاثون سنة، وقال السدى وسعيد بن جبير وعكرمة ست وثلاثون سنة، وقال الحسن وجسر بن فرقد وفضيل بن عياض ثمانون سنة، وقال وهب بن منبه: ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد أن التقى بأبيه ثلاثا وعشرين سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة، وفى التوراة مائة وست وعشرون سنة، وولد يوسف من امرأة العزيز افراثيم ومنشا ورحمة امرأة أيوب. وبين يوسف وموسى أربعمائة سنة، وقيل: إن يعقوب بقى عند يوسف عشرين سنة، ثم توفى عليه السلام وقيل: أقام عنده ثمانى عشر سنة، وقال بعض المحدثين : بعضا وأربعين سنة، وكان بين يعقوب ويوسف ثلاث وثلاثون سنة حتى جمعهم الله. وقال ابن اسحاق : ثمانى عشرة سنة. والله أعلم.

الثانية : قال سعيد بن جبير عن قتادة عن الحسن فى قوله: ﴿ وخروا له سجدا ﴾ قال : لم يكن سجوداً ، ولكنه سنة كانت فيهم، يومئون برؤسهم إيماء، وكذلك كانت تحيتهم ، وقال الثورى والضحاك وغيرهما : كان سجوداً كالسجود المعهود عندنا، وهو كان تحيتهم، وقيل: كان انحناء كالركوع، ولم يكن خرورا على الأرض ، وهكذا كان سلامهم بالتكفى والانحناء وقد نسخ الله ذلك كله فى شرعنا، وجعل الكلام بدلاً من الانحناء وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة، قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة.

قلت : هذا الانحناء والتكفى الذى نسخ هنا قد صار عادة بالديار المصرية، وعند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض حتى أن أحدهم إذا لم يقم له وجد فى نفسه كأنه لا يؤبه به ، وأنه لا قدر له، وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض، عادة مستمرة ووراثة مستقرة، لاسيما عند التقاء الأمراء والرؤساء ، نكبوا عن السير، وأعرضوا عن السنن، وروى أنس بن مالك قال: قلنا يا رسول الله أينحنى بعضنا إلى بعض إذا التقينا قال: (لا). قلنا أفيعتنق بعضاً ؟ قال «لا» قلنا : أفيصافح بعضنا بعضاً؟ قال «نعم» خرجه أبو عمر

فى «التمهيد» فإن قيل: فقد قال رسول الله ﷺ : «قوموا إلى سيدكم وخيركم» يعنى سعد بن معاذ – قلنا : ذلكم مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المعينة ، وقد قيل: إنما كان قيامهم لينزلوه عن الحمار، وأيضاً فإنه يجوز للرجل الكبير لذا لم يؤثر ذلك فى نفسه، فإن أثر فيه وأعجب به ورأى لنفسه حظا لم يجزعونه على ذلك لقوله ﷺ :« من سره أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار» وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجه أكرم عليهم من وجه رسول الله ﷺ ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه ، لما يعرفونه من كراهته لذلك.

الثالثة : فإن قيل: فما تقول فى الإشارة بالإصبع قيل له : ذلك جائز إذا بعد عنك، لتعين له به وقت السلام فإن كان دانيا فلا، وقد قيل بالمنع فى القرب والبعد، لما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من تشبه بغيرها فليس منا » وقال :« لا تسلموا تسليم اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالأكف والنصارى بالإشارة » . وإذا سلم فإنه لا ينحنى ولا أن يقبل مع السلام يده، ولأن الانحناء على معنى التواضع لا ينبغى إلا لله، وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم، ولا يتبعون فى أفعالهم التى أحدوثها تعظيماً منهم لكبرائهم ، قال النبى ﷺ «لا تقوموا عند رأسى كما تقوم الأعاجم عند رؤوس أكاسرتها » فهذا مثله ، ولا بأس بالمصافحة، فقد صافح النبى ﷺ جعفر بن أبى طالب حين قدم من الحبشة، وأمر بها ، وندب إليها ، قال:« تصافحوا يذهب الغل» وروى غالب التمار عن الشعبى أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا التقوا تصافحوا ، ، وإذا قدموا من سفر تعانقوا ، فإن قيل: فقد كره مالك المصافحة؟ قلنا : روى ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعانقة، وذهب إلى هذا سحنون وغيره من أصحابنا ، وقد روى عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة ، وهو الذى يدل عليه معنى ما فى الموطأ، وعلى جواز المصافحة جماعة العلماء من السلف والخلف قال ابن العربى : إنما كره مالك المصافحة لأنه لم يراها أمراً عاماً فى الدين، ولا منقولا نقل السلام، ولو كانت منه لاستوى معه.

قلت : قد جاء فى المصافحة حديث يدل على الترغيب فيها، والدأب عليها والمحافظة، وهو ما رواه البراء بن عازب قال : لقيت رسول الله ﷺ فأخذ بيدى فقلت : يا رسول الله إن كنت لأحسب أن المصافحة منهم ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودة بينهما ونصيحة إلا ألقيت ذنوبهما بينهما ».

قوله تعالى : وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن ولم يقل من الجب استعمالاً للكرم، لئلا يذكر أخوته صنيعهم بعد عفوه بقوله :﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾.

قلت : وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية : ذكر الجفا فى وقت الصفا جفا ، وهو قول صحيح ذلك عليه الكتاب. وقيل لأن فى دخوله السجن كان باختياره بقوله ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ وكان فى الجب بإرادة الله تعالى له. وقيل: لأنه كان فى السجن مع اللصوص والعصاة، وفى الجب مع الله تعالى وأيضاً فإن المنة فى النجاة من السجن كانت أكبر، لأنه دخله بسبب أمرهم به، أيضاً دخله باختياره إذ قال: ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ فكان الكرب فيه أكثر، وقيل فيه أيضاً: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ فعوقب فيه ﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ ويروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان، وكانوا أهل مواش وبرية، وقيل: كان يعقوب عليه السلام تحول إلى بادية وسكنها ، وأن الله لم يبعث نبياً من أهل البادية. وقيل: إنه كان خرج إلى بدا وهو موضع، وإياه عنى جميل بقوله:

وأنت التى حببت شغبا إلى بدا ... إلىَّ وأوطانى بلاد سواهما

وليعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل. يقال : بدا القوم بدوا إذا أتوا بدا ، والمعنى وجاء بكم من مكان بدا ، ذكره القشيرى، وحكاه الماوردى عن الضحاك عن ابن عباس ﴿ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي... ﴾ بإيقاع الحسد، قاله ابن عباس: وقيل: أفسد ما بينى وبين أخوتى، وأحال ذنبهم على الشيطان تكرما منه ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ أي : رفيق بعباده ، وقال الخطابى: اللطيف هو البر بعباده الذى يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون ، كقوله :﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ... (١٩) ﴾[الشورى] وقيل: اللطيف العالم بدقائق الأمور والمراد هنا الإكرام والرفق. قال قتادة : لطف بيوسف بإخراجه من السجن، وجاء بأهله من البدو ، ونزع من قلبه نزغ الشيطان ويروى أن يعقوب لما قدم بأهله وولده، وشارف أرض مصر وبلغ ذلك يوسف استأذن فرعون – واسمه الريان – أن يأذن له فى تلقى أبيه يعقوب ، وأخبره بقدومه فأذن له ، وأمر الملأ من أصحابه بالركوب معه فخرج يوسف والملك معه فى أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خلق الله أعلم بهم، وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب، فكان يعقوب يمشى متكئاً على يد يهوذا ، فنظر يعقوب إلى الخيل والناس والعساكر فقال: يا يهوذا هذا فرعون مصر ؟ قال: لا ، بل هذا ابنك يوسف ، فلما دنا كل واحد منهما من

صاحبه ذهب يوسف ليبدأه بالسلام فمنع من ذلك، وكان يعقوب عليه السلام أحق بذلك منه وأفضل، فابتدأ يعقوب بالسلام فقال: السلام عليك يا مذهب الأحزان وبكى وبكى معه يوسف عليه السلام فبكى يعقوب فرحا، وبكى يوسف لما رأى ما بأبيه من الحزن، قال ابن عباس: فالبكاء أربعة، بكاء من الخوف، وبكاء من الجزع، وبكاء من الفرح، وبكاء رياء. ثم قال يعقوب عليه السلام : الحمد لله الذى أقر عينى بعد الهموم والأحزان ودخل مصر فى اثنين وثمانين من أهل بيته، فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف ونيف ألف، وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام ، رواه عكرمة عن ابن عباس، وحكى ابن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنساناً ما بين رجل وامرأة، وخرجوا مع موسى عليه السلام وهم ستمائة وسبعون ألفا. وقال الربيع بن خيثم : دخلوها وهم اثنان وسبعون ألفا، وخرجوا مع موسى عليه السلام وهم ستمائة ألف، وقال وهب: دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنساناً ما بين رجل وامرأة وصغير، وخرجوا منها مع موسى عليه السلام فراراً من فرعون وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً مقاتلين، سوى الذرية والهرمى والزمنى، وكانت الذرية ألف ألف ومائتى ألف سوى المقاتلة. وقال أهل التواريخ: أقام يعقوب بمصر أربعا وعشرين سنة فى أغبط حال ونعمة، ومات بمصر، وأوصى إلى ابنه يوسف عليه السلام أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحاق بالشام ففعل، ثم انصرف إلى مصر قال سعيد بن جبير: نقل يعقوب عليه السلام فى تابوت من ساج إلى بيت المقدس، ووافق ذلك يوم مات عيصو فدفنا فى قبر واحد، فمن ثم تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس، من فعل ذلك منهم، وولد يعقوب وعيصو فى بطن واحد، ودفنا فى قبر واحد وكان عمرهما جميعاً مائة وسبعا وأربعين سنة.

قال تعالى ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾.

فى الآية مسائل :

روى أن يوسف عليه السلام أخذ بيد يعقوب وطاف به فى خزائنه فأدخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الحلى وخزائن الثياب وخزائن السلاح، فلما أدخله مخازن القراطيس قال يا بنى ما أغفلك عندك هذه القراطيس وما كتبت إلى على ثمان مراحل؟ فقال: نهانى جبريل عليه السلام عنه، قال: سله عن السبب قال: أنت أبسط إليه فسأله فقال جبريل عليه السلام : أمرنى الله بذلك لقولك: ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ فهلا خفتنى.

وروى أن يعقوب عليه السلام أقام معه أربعا وعشرين سنة، ولما قربت وفاته أوصى إليه أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق فمضى بنفسه ودفنه ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه

ثلاثا وعشرون سنة فعند ذلك تمنى ملك الآخرة فتمنى الموت، وقيل: ما تمناه نبى قبله ولا بعده، فتوفاه الله طيباً طاهراً، فتخاصم أهل مصر فى دفنه كل أحد يحب أن يدفن فى محلتهم حتى هموا بالقتال فرأوا أن الأصلح أن يعملوا له صندوقاً من مرمر ويجعلوه فيه ويدفنوه فى النيل بمكان يمر الماء عليه ثم يصل إلى مصر لتصل بركته إلى كل أحد.

وولد له أفرائيم وميشا، وولد لافرائيم نون، ولنون يوشع فتى موسى عليه السلام ثم قال دفن يوسف عليه السلام هناك إلى أن بعث الله موسى فأخرج عظامه من مصر ودفنها عند قبر أبيه.

المسألة الثانية : ﴿مِنَ﴾فى قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ ومن تأويل الأحاديث للتبعيض، لأنه لم يؤت إلا بعض ملك الدنيا أو بعض ملك مصر وبعض التأويل. قال الأصم : إنما قال: ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ لأنه كان هناك ملك فوقه.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ إشارة إلى تعلق النفس بعالم الأجسام.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ إشارة إلى تعلقها بحضرة جلال الله، ولما كان لا نهاية لدرجات هذين النوعين فى الكمال والنقصان والقوة والضعف والجلاء والخفاء، امتنع أن يحصل للإنسان كل صنوف العلم ، فكان الحاصل فى الحقيقة بعضاً من أبعاض العلم.

فلهذا السبب ذكروا فيه كلمة (من) لأنها دالة على التعبير، ثم قال تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وفيه أمران.

البحث الأول : فى تفسير لفظ (الفاطر) بحسب اللغة. قال ابن عباس رضى الله عنهما: ما كنت أدرى معنى الفاطر حتى احتكم إلىَّ أعرابيان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها وأنا ابتدأت حفرها.

قال أهل اللغة : أصل الفطر فى اللغة الشق، يقال: فطر ناب البعير إذا بدأ وفطرت الشىء فانفطر ، أي شقته ، وتفطرت الأرض بالنبات والشجر بالورق إذا تصدعت . هذا أصله فى اللغة ثم صار عبارة عن الإيجاد ، لأنه ذلك الشىء حال عدمه كأنه فى ظلمة وخفاء، فلما دخل فى الوجود صار كأنه انشق عن العدم وخرج ذلك الشىء منه.

البحث الثانى : أن لفظ (الفاطر) قد يظن أنه عبارة عن تكوين الشىء عن العدم المحض بدليل الاشتقاق الذى ذكرناه إلا أن الحق أنه لا يدل عليه.

ويدل عليه وجوه :

أحدها : أنه تعالى قال: ﴿الْحَمْدُ للَّه فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... ۝١﴾[فاطر] ثم بين تعالى أنه إنما خلقها من الدخان حيث قال تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ... ۝١١﴾[فصلت] ، فدل على أن لفظ الفاطر لا يفيد أنه أحدث ذلك الشيء من العدم المحض.

ثانيها : أنه تعالى قال: ﴿.. فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. ۝٣٠﴾[الروم] .. مع أنه تعالى إنما خلق الناس من التراب، ثم قال تعالى:﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾[طه].

وأعلم أن قوله تعالى: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يوهم أن تخليق السماوات مقدم على تخليق الأرض عند من يقول : الواو تفيد الترتيب ثم العقل يؤكده أيضاً، وذلك لأن تعين المحيط يوجب تعين المركز وتعينه فإنه لا يوجب تعين المحيط، لأنه يمكن أن يحيط بالمركز الواحد محيطات لا نهاية لها ، أما لا يمكن أن يحصل للمحيط الواحد إلا مركز واحد بعينه.

وأيضاً اللفظ يفيد أن السماء كثيرة والأرض واحدة، ووجه الحكمة فيه قد ذكرناه في قوله تعالى:﴿الْحَمْدُ للَّه الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ .. ۝١﴾[الأنعام].

البحث الثالث : قال الزجاج : نصبه من وجهين:

أحدهما : على الصفة لقوله تعالى(رب) وهو نداء مضاف في موضع النصب.

ثانيهما : يجوز أن ينصب على نداء ثان.

ثم قال تعالى :﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ والمعنى : أنت الذى تتولى إصلاح جميع مهماتي في الدنيا والآخرة، فوصل الملك الفاني بالملك الباقي، وهذا يدل على أن الإيمان والطاعة كلمة من الله تعالى إذ لو كان ذلك من العبد لكان المتولى لمصالحه هو هو ، حينئذ يبطل عموم قوله تعالى:﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى : اعلم أن النبى ﷺ حكى عن جبريل عليه السلام عن رب العزة أنه قال: (من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين) فلهذا المعنى من أراد الدعاء فلابد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله فههنا يوسف عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ

فاطرَ السَّمواتِ والأرْضِ﴾ ثم ذكر تحية الدعاء وخاتمته ، وهو قوله تعالى ﴿ توَفَّني مُسْلمًا وَألْحقْني بالصَّالحينَ ﴾.

ونظيره ما فعله الخليل ﷺ من قوله ﴿ الَّذي خَلَقَني فَهُوَ يَهْدين ﴿٧٨﴾ ﴾[الشعراء].

فمن هنا إلى قوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لي حُكْمًا ... ﴿٨٣﴾ ﴾[الشعراء] ثناء على الله ثم قوله تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ ﴾ إلى آخر كلام دعاء ، فكذا ههنا.

المسألة الثالثة : اختلفوا في أن قوله: ﴿ تَوَفَّني مُسْلماً ﴾[1]. هل هو طلب منه للوفاة أم لا ؟ فقال قتادة: سأل ربه اللحوق به ولم يتمن نبى قط الموت قبله، وكثر من المفسرين على هذا القول، وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء: يريد إذا توفيتنى فتوفنى على دين الإسلام، فهذا طلب لأن يجعل الله وفاته على الإسلام وليس فيه ما يدل على أنه طلب الوفاة.

واعلم أن اللفظ صالح للأمرين ولا يبعد فى الرجل العاقل إذا كمل عقله أن يتمنى ويعظم رغبته فيه لوجوه كثيرة منها : أن كمال النفس الإنسانية ما بيناه فى أن يكون عالما بالإليهات ، وفى أن يكون ملكاً ومالكاً متصرفاً فى الجسمانيات ، وذكرنا أن مراتب التفاوت فى هذين النوعين غير متناهية الكمال المطلق فيهما ليس إلا للّه وكل ما دون ذلك فهو ناقص ، والناقص إذا حصل شعور بنقصانه وذاق لذة الكمال المطلق بقى فى القلق وألم الطلب.

وإذا كان الكمال المطلق ليس إلاللّه ، وما كان حصوله للإنسان ممتنعاً لزم أن يبقى الإنسان أبداً فى قلق الطلب وألم التعب فإذا عرف الإنسان هذه الحالة عرف أنه لا سبيل له إلى دفع هذا التعب عن النفس إلا بالموت، فحينئذ يتمنى الموت.

والسبب الثانى لتمنى الموت : أن الخطباء والبلغاء وإن أسرفوا فى مذمة الدنيا إلا أن حاصل كلامهم يرجع إلى أمور ثلاثة :

أحدها : أن هذه السعادات سريعة الزوال مشرفة على الفناء، والألم الحاصل عند زوالها أشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها.

ثانيها : أنها غير خالصة بل هى ممزوجة بالمنغصات والكدرات.

---

(١) قضية طلب الموت (٢٧).

ثالثها : أن الأراذل من الخلق يشاركون الأفاضل فيها بل ربما كان حصة الأراذل أعظم بكثير من حصة الأفاضل.

فهذه الجهات الثلاثة منفرة عن هذه اللذات، ولما عرف العاقل أنه لا سبيل إلى تحصيل هذه الأشياء إلا مع هذه الجهات الثلاثة المنفرة لا جرم يتمنى الموت ليتخلص عن هذه الآفات.

السبب الثالث : وهو الأقوى عند المحققين رحمهم الله تعالى أجمعين : أن هذه اللذات الجسمانية لا حقيقة لها، وإنما حاصلها دفع الآلام، فلذة الأكل عبارة عن دفع ألم الجوع، ولذة الوقاع عبارة عن دفع الألم الحاصل بسبب الدغدغة المتولدة من حصول المنى فى أوعية المُنى، ولذة الإمارة والرياسة عبارة عن دفع الحاصل بسبب شهوة الانتقام، وطمع بالرياسة.

وإذا كان حاصل هذه اللذات ليس إلا دفع الأثم لا جرم صارت عند العقلاء حقيرة خبيثة نازلة ناقصة، وحينئذ يتمنى الإنسان الموت ليتخلص عن الاحتياج إلى هذه الأحوال الخمسة.

السبب الرابع : أن مداخل اللذات الدنيوية قليلة وهى ثلاثة أنواع : لذة الأكل، ولذة الوقاع، ولذة الرياسة، ولكل واحدة منها عيوب كثيرة.

رابعهما : أن جميع الحيوانات الخسيسة، مشاركة فيها، فإن الروث فى مذاق الجعل كاللوزنيج فى مذاق الإنسان، وكما أن الإنسان يكره تناول غذاء الجعل، فكذلك الجعل يكره تناول غذاء الإنسان، وأما اللذة فمشتركة فيما بين الناس.

خامسها : أن الأكل إنما يطيب عند اشتداد الجوع، وتلك حاجة شديدة، والحاجة نقص وافر.

سادسها : أن الأكل يستحقر عند العقلاء، قيل : من كانت همته ما يدخل فى بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه.

فهذا هو الإشارة المختصرة فى معايب الأكل.

وأما لذة النكاح، فكل ما ذكرناه فى الأكل حاصل ههنا مع أشياء أخرى، وهى أن النكاح سبب لحصول الولد، وحينئذ تكثر الأشخاص فتكثر الحاجة إلى المال فيحتاج الإنسان بسببها إلى الاحتيال فى طلب المال بطرق لا نهاية لها، وربما صار هالكاً بسبب طلب المال.

وأما لذة الرياسة فعيوبها كثيرة ، والذى نذكره ههنا سبب واحد وهو أن كل أحد يكره بالطبع أن يكون خادماً مأموراً ويجب أن يكون مخدوماً آمراً، فإذا سعى الإنسان فى أن يصير رئيساً آمراً، كان ذلك دالاً على مخالفة كل ما سواه، فكأنه ينازع الخلق فى ذلك، وهو يحاول تحصيل تلك الرياسة ، وجميع أهل الشرق والغرب يحاولون إبطاله ودفعه.

ولا شك أن كثرة الأسباب توجب قوة حصول الأثر، وإذا كان كذلك كان حصول هذه الرياسة كالمتعذر ، ولو حصل فإنه يكون على شرف الزوال فى كل حين وأوان بكل سبب من الأسباب، وكان صاحبها عند حصولها فى الخوف الشديد من الزوال ، وعند زوالها فى الأسباب العظيمة والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال.

واعلم أن العاقل إذا تأمل هذه المعانى علم أنه لا يصلح له فى طلب هذه اللذات والسعى فى هذه الخيرات البتة . ثم إن النفس خلقت مجبولة على طلبها، والعشق الشديد لها، والرغبة التامة فى الوصول إليها وحينئذ يتعقد ههنا قياس ، وهو أن الإنسان ما دام يكون فى هذه الحياة الجسمانية فإنه يكون طالباً لهذه اللذات ، وما دام يطلبها كان فى عين الآفات وفى لجة الحسرات ، وهذا اللازم مكروه ، فالملزوم أيضاً مكروه، فحينئذ يتمنى زوال هذه الحياة الجسمانية.

والسبب فى الأمور المرغوبة فى الموت أن موجبات هذه اللذات الجسمانية متكررة ولا يمكن الزيادة عليها، والتكرير يوجب الملالة.

أما سعادة الآخرة فهى أنواع كثيرة غير متناهية.

المسألة الثالثة : أن يوسف عليه السلام كان من أكابر الأنبياء عليهم السلام، والصلاح أول درجات المؤمنين، فالواصل إلى الغاية كيف يليق به أن يطلب البداية؟

قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من المفسرين : يعنى بآبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

والمعنى : ألحقنى بهم فى ثوابهم ومراتبهم ودرجاتهم.

وههنا مقام آخر من تفسير هذه الآية على لسان أصحاب المكاشفات وهو أن النفوس المفارقة إذا أشرقت بالأنوار الإلهية واللوامع القدسية فإذا كانت متناسبة متشاكلة انعكس النور الذى فى كل واحدة منها إلى الأخرى بسبب تلك الملازمة والمجانسة، فتعظم تلك الأنوار وتقوى تلك الأضواء.

ومثال تلك الأحوال المرآة الصقيلة الصافية إذا وضعها متى أشرقت الشمس عليها انعكس الضوء فى كل واحدة منها إلى الأخرى فهناك يقوى الضوء ويكمل النور، وينتهى إلى الإشراق والبريق واللمعان إلى حد لا تطيقه العيون والأبصار الضعيفة، فكذا ههنا.

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) ﴾[1].

اعلم أن قوله (ذلك) رفع بالابتداء وخبره ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ و ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبر ثان.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أى ما كنت عند إخوة يوسف.

﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أى عزموا على أمرهم، وذكرنا الكلام فى هذا اللفظ عند قوله تعالى ﴿ .. فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ .. (٧١) ﴾[يونس].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أى بيوسف، واعلم أن المقصد من هذا إخبار عن الغيب فيكون معجزا، بيان أنه إخبار عن الغيب أن محمداً ﷺ ما طالع الكتب ولم يتلمذ لأحد وما كانت البلدة بلدة العلماء، فإتيانه بهذه القصة الطويلة على وجه لم يقع فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم، ومن غير أن يقال: إنه كان حاضراً معهم لابد وأن يكون معجزا، وكيف يكون معجزا، قد سبق تقرير هذه المقدمة فى هذا الكتاب مرارا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أى وما كنت هناك، ذكر على سبيل التهكم بهم، لأن كل أحد يعلم أن محمداً ﷺ ما كان معهم.

قوله تعالى: ﴿ .. وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)[2] وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٠٧)[3] ﴾.

اعلم أن وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله ﷺ على سبيل التعنت، واعتقد رسول الله ﷺ أنه إذا ذكرها فربما آمنوا، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية وكأنه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾.

---

(١) أجمعوا أمرهم: عزموا على الكيد ليوسف.
(٢) كأين من آية: كم من أية - كثير من الآيات.
(٣) غاشية: عقوبة تغشاهم وتجللهم - بغتة: فجأة.

قال أبو بكر بن الأنبارى : جواب «لو» محذوف ، لأن جواب «لو» لا يكون مقدماً عليها ، فلا يجوز أن يقال: قمت لو قمت.

وقال الفراء : فى المصادر يقال حرص حرصاً، ولغة أخرى شاذة : حرص يحرص حريصا.

ومعنى الحرص : طلب الشيء بأقصى ما يمكن من الاجتهاد .

وقوله : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ معناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أي هو تذكرة لهم فى دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد والقصص والتكاليف والعبادات، ومعناه : أن هذا القرآن يشتمل على هذه المنافع العظيمة، ثم لا تطلب منهم مالا ولا جعلاً، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا .

وقوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ يعنى : أنه لا عجب إذا لم يتأملوا فى الدلائل الدالة على نبوتك ، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد والحكمة ثم أنهم يمرون عليها ولا يتلفتون إليها .

وأعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة لا بد وأن تكون من أمور محسوسة ، وهى إما الأجرام الفلكية وإما الأجرام العنصرية. أما الأجرام الفلكية، فهى قسمان: إما الأفلاك وإما الكواكب.

أما الأفلاك فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته، أو قد يستدل بأحوال حركاتها ، إما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالعدم فلابد من محرك قادر ، وإما بسبب كيفية حركاتها فى سرعتها وبطئها ، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات.

وأما الأجرام الكوكبية فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها واحيازها وحركاتها ، وتارة بألوانها وأضوائها ، وتارة بتأثيراتها فى حصول الأضواء والإظلال والظلمات والنور.

وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية.

فإما أن تكون مأخوذة من بسائط وهى عجائب البر والبحر.

وإما من المواليد وهى أقسام :

أحدهما : الآثار العلوية كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح.

ثانيهما : المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها .

ثالثها : النبات وخاصية الخشب والورق والثمر واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص وخاصية مخصوصة.

رابعها : اختلاف أحوال الحيوانات فى أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها.

خامسها : تشريح أبدان الناس وتشريح القوى الإنسانية وبيان المنفعة الحاصلة فيها، فهذه مجاميع الدلائل ، ومن هذا الباب أيضاً قصص الأولين وحكايات الأقدمين وأن الملوك الذين استولوا على الأرض وخربوا البلاد وقهروا العباد ماتوا ولم يبق منهم فى الدنيا خبر ولا أثر، ثم بقى الوزر والعقاب عليهم.

هذا ضبط أنواع الدلائل ، والكتاب المحتوى على شرح هذه الدلائل هو شرح جملة العالم الأعلى والعالم الأسفل، والعقل البشرى لا يفى بالإحاطة به، فهذا السبب ذكره الله تعالى على سبيل الإبهام.

أما قوله تعالى: ﴿مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ فالمعنى : أنهم كانوا مقرين بوجود الإلــه بدليل قولـــه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان]. إلا أنهم كانوا له شريكاً فى العبودية.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هم الذين يشبهون الله بخلقه، وعنه أيضاً أنه قال: نزلت هذه الآية فى تلبية مشركى العرب لأنهم كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريك وهو لك تملكه وما ملك ، وعنه أيضاً أن أهل مكة قالوا: اللهم ربنا وحده لا شريك له والملائكة بناته، فلم يوحدوا بل أشركوا ، وقال عبدة الأصنام : ربنا الله وحده والأصنام شفعاؤنا عنده، وقال اليهود : ربنا الله وحده وعزير ابن الله ، والنصارى : ربنا الله وحده لا شريك له والمسيح ابن الله، وقال عبدة الشمس والقمر : ربنا الله وحده ، وهؤلاء أربابنا ، وقال المهاجرون والأنصار : ربنا الله وحده لا شريك معه.

واحتجت الكرامية بهذه الآية على أن الإيمان عبارة عن الإقرار باللسان فقط، لأنه تعالى حكم بكونهم مؤمنين مع أنهم مشركون وذلك يدل على أن الإيمان عبارة عن مجرد الإقرار باللسان.

وجوابه معلوم :

أما قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ أي عقوبة تغشاهم وتنبسط عليهم وتغمرهم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي فجأة.

(وبغتة) نصب على الحال، يقال: بغتهم الأمر بغتا وبغتة إذا فاجأهم من حيث لم يتوقعوا.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ كالتأكيد لقوله تعالى ﴿ بَغْتَةً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾.

قال المفسرون : قل يا محمد لهم: هذه الدعوة التى أدعو إليها، والطريقة التى أنا عليها سبيلى وسنتى ومنهاجى ، وسمى الدين سبيلاً لأنه الطريق الذى يؤدى إلى الثواب، ومثله قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥) ﴾[النحل].

واعلم أن السبيل فى أصل اللغة الطريق، وشبهوا المعتقدات بها لأن الإنسان يمر عليها إلى الجنة ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ وحجة برهان ﴿ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ إلى سيرتى وطريقتى وسيرة أتباعى الدعوة إلى الله، وقد دعا بمقدار وسعة إلى الله وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول: وعلى هدى ويقين، فإن لم يكن كذلك فهومحض الغرور.

وقال ﷺ :« العلماء أمناء الرسل على عماد الله من حيث يحفظون لما تدعونهم إليه ».

وقيل: أيضاً يجوز أن ينقطع الكلام عند قوله : ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ ثم ابتدأ وقال: ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾.

وقوله تعالى :﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ أى قل هذه سبيلى ، وقل سبحان الله ، تنزيها للّه عما يشركون ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الذين اتخذوا مع الله ضدا وندا وكفؤا وولدا.

وهذه الآية تدل على حرفة الكلام وعلم الأصول حرفة الأنبياء عليهم السلام وأن الله ما بعثهم إلى الخلق إلا لأجلها.

قولـــه تعالـــى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾.

اعلم أنه قرأ حفص عن عاصم (نوحى) بالنون والباقون بالياء ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عمرو، ورواية حفص عن عاصم ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب والباقون : بالياء على الغائب.

واعلم أن من جملة شبه منكرى نبوته ﷺ أن الله أراد إرسال رسول لبعث ملكا، فقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِم مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ فلما كان الكل هكذا فكيف تعجبوا فى حقك يا محمد والآية تدل على أن الله ما بعث رسولا إلى الخلق من النساء وأيضاً لم يبعث رسولا من أهل البادية، قال ﷺ: «من بدا جفاء من اتبع الصيد غفل».

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ والمعنى دار الحالة الآخرة ، لأن الناس حالتين : حال الدنيا وحال الآخرة، ومثله قوله : صلاة الأولى، أي صلاة الفريضة الأولى، وأما بيان أن الآخرة خير من الأولى فقد ذكرنا دلائله مراراً.

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) ﴾.

اعلم أنه قرأ عاصم وحمزة والكسائى (كذبوا) بالتخفيف وكسر الذال، والباقون بالتشديد ، ومعنى التخفيف من وجهين.

الوجه الأول : أن الظن واقع بالقوم، أي حتى إذا استيأس الرسل من إيمان القوم فظن القوم أن الرسل كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر.

فإن قيل : لم يجر فيما سبق ذكر إليهم فكيف يحسن عود هذا الضمير إليهم؟

قلنا : ذكر الرسل يدل على المرسل إليهم وإن شئت قلت أن ذكرهم جرى فى قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فيكون الضمير عائداً إلى الذين من قبلهم من مكذبى الرسل ، والظن ههنا بمعنى التوهم والحسبان.

الوجه الثانى : أن يكون المعنى أن الرسل ظنوا أنهم قد كذبوا فيما وعدوا ، وهذا التأويل منقول عن ابن أبى ملكية عن ابن عباس رضى الله عنهما.

قالوا: وإنما كان الأمر كذلك لأجل ضعف البشرية إلا أنه يعيذ المؤمن لأن المؤمن لا يجوز أن يظن بالله الكذب، بل يخرج بذلك عن الإيمان فكيف يجوز مثله على الرسل؟

وأما قراءة التشديد ففيها وجهان :

الأول : أن الظن بمعنى اليقين ، أي وأيقنوا أن الأمم كذبوهم تكذيباً لا يصدر منهم الإيمان بعد ذلك، فحينئذ دعوا عليهم فهنالك أنزل الله سبحانه عليهم عــذاب الاستئصال، وورد الظن بمعنى العلم كثير فى القــرآن، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ .. ﴿٤٦﴾ ﴾[البقرة] أي يتقون ذلك.

الثانى : أن يكون الظن بمعنى الحسبان، والتقدير : حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم فظن الرسل أن الذين آمنوا بهم كذبوهم، وهذا التأويل منقول عن عائشة رضى الله عنها وهو أحسن الوجوه المذكورة فى الآية.

وأما قوله تعالى: ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ أى لما بلغ الحال الحد المذكور ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ﴾ قرأ عاصم وابن عامر ﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ﴾ بنون واحد وتشديد الجيم وفتح الياء على ما لم يسم فاعله.

واختاره أبو عبيدة لأنه فى المصحف بنون واحدة.

والباقون بنون وتخفيف بنونين وتخفيف الجيم وسكون الياء على معنى: ونحن نفعل بهم ذلك.

وأعلم أن هذه حكاية حال، ألا ترى أن القصة فيما مضى وإنما حكى فعل الحال كما أن قوله تعالى﴿ .. هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ .. ﴿١٥﴾ ﴾[القصص] إشارة إلى الحاضر والقصة ماضية.

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[1].

اعلم أن الاعتبار عبارة عن العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول، والمراد منه التأمل والتفكر ، ووجه الاعتبار بقصصهم أمور.

الأول : أن الذى دل على إعزاز يوسف بعد إلقائه فى الجب ، وإعلائه بعد حبسه فى السجن ، وتمليكه مصر بعد أن كانوا يظنون به أنه عبد لهم، وجمعه مع والديه وإخوته على ما أحب بعد المدة الطويلة ، لقادر على إعزاز محمد ﷺ وإعلاء كلمته.

الثانى : أن الإخبار عنه جار مجرى الإخبار عن الغيب ، فيكون معجزة دالة على صدق محمد ﷺ.

---

(١) قضية الاقتداء بالأنبياء (٢٨).

الثالث : أنه ذكر في أول السورة: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ ثم ذكر في آخرها ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ تنبيهاً على أن حسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة.

والمراد من قصصهم : قصة يوسف عليه السلام واخوته وأبيه.

ومن الناس من قال: المراد : قصص الرسل، لأنه في القرآن ذكر قصص سائر الرسل إلا أن الأولى يكون المراد قصة يوسف عليه السلام .

فإن قيل: لم قال ﴿ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ مع أن قوم محمد ﷺ كانوا ذوى عقول وأحلام، وقد كان الكثير منهم لم يعتبر بذلك؟

قلنا : أن جميعهم كانوا متمكنين من الاعتبار ، والمراد من وصف هذه القصة بكونها عبرة بحيث يمكن أن يعتبر بها العاقل.

أو نقول : المراد من أولى الألباب الذى اعتبروا وتفكروا وتأملوا فيها وانتفعوا بمعرفتها، لأن (أولى الألباب) لفظ يدل على المدح والثناء فلا يليق إلا بما ذكرنا وأعلم أنه تعالى وصف هذه القصة بصفات.

الصفة الأولى : كونها ﴿ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ وقد سبق تقريره.

الصفة الثانية : قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ وفيه قولان:

الأول : أن المراد الذى جاء به وهو محمد ﷺ لا يصح منه أن يفترى لأنه لم يقرأ الكتب ولم يتلمذ لأحد ولم يخالط العلماء فمن المحال أن يفترى هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد فى التوراة من غير تفاوت.

الثانى : أن المراد أنه ليس بكذب فى نفسه ، لأنه لا يصح الكذب منه.

ثم إنه تعالى أكد كونه غير مفتر فقال تعالى: ﴿ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ وهو إشارة إلى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما فى التوراة وسائر الكتب الإلهية، ونصب تصديقاً على تقدير ولكن كان تصديق الذى بين يديه كقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾[الأحزاب] قاله الفراء والزجاج.

ثم قال : ويجوز رفعه فى قياس النحو على معنى: ولكن هو تصديق الذى بين يديه.

الصفة الثالثة : قوله تعالى: ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وفيه قولان:

الأول : المراد وتفصيل كل شىء من واقعة يوسف عليه السلام مع أبيه وأخوته .

الثانى : أنه عائد إلى القرآن ، كقوله ﴿ .. مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام]

فإن جعل هذا الوصف وصفاً لكل القرآن أليق من جعله وصفاً لقصة يوسف وحدها ، ويكون المراد ما يتضمن من الحلال والحرام وسائر ما يتصل بالدين.

قال الواحدى : على التفسيرين جميعاً فهو من العام الذى أريد به الخاص كقوله تعالى: ﴿ .. وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .. ﴿١٥٦﴾ ﴾[الأعراف] يريد : كل شىء يجوز أن يدخل فيها وقوله تعالى: ﴿ .. وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ... ﴿٢٣﴾ ﴾[النمل].

الصفة الرابعة والخامسة : كون هذه فى الدنيا ، وسبباً لحصول الرحمة فى القيامة لقوم يؤمنون ، خصهم بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا به كما قررنا فى قوله تعالى: ﴿ .. هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾[البقرة].

وهكذا عشنا فى أنوار السورة الكريمة، نطوف فى بستانها ، ونقطف من أزهارها ، ونشم عطره أريجها ، وتوقفنا عند ملامح إيمانية، ولمحات تفسيرية من خلال هذه السورة الكريمة التى سماها الله تعالى أحسن القصص، وتعرفنا من خلال هذه السورة على بعض سمات الإعجاز اللغوى والأدبى فى القرآن العظيم، وكذلك جوانب من الإعجاز الاقتصادى والتاريخى والاجتماعى مما رصدته المشاهد القرآنية الفريدة فى هذه السورة الكريمة ، فنسأل الله تعالى أن يجعل هذا فى ميزان حسناتنا يوم القيامة.

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين.

دعاء الختام

اللهم اجعل عملنا هذا خالصا لوجهك الكريم، وأثقل به موازيننا ، وارفع اللهم به درجاتنا ، وبيض اللهم به وجوهنا يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

اللهم رحمتك نرجو فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا أقل من هذا يا أرحم الراحمين، اللهم ثبتنا بالعلم النافع، وثبتنا بالقرآن وثبت اللهم الحق بنا، واجعلنا هداة مهتدين، واجعل هذا العمل حجة لنا لا علينا، واجعله سبيلاً إلى مرضاتك ورضوانك وعفوك ورضاك.

اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، واجعلنا لآياته من الحافظين، ولأحكامه من العاملين، وللذيذ خطابه من المستمعين ، اللهم اجعله لنا فى الدنيا ضياء، وفى القبر مؤنساً، ويوم القيامة ستراً وحجاباً وعتقا من النار، اللهم ألبسنا به الحلل، وأسكنا به الظلل، وأخرجنا به اللهم من الظلمات إلى النور.

اللهم اختم لنا بخير، وارزقنا اللهم عيشة هنية، وميتة سوية، ومردا غير مخزى ولا فاضح.

اللهم إنا نسألك برد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك الكريم.

اللهم يا مصرف القلوب ثبت قلوبنا على دينك.

ربنا آتنا فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد ﷺ عدد خلقك، وزنة عرشك ، ورضا نفسك، ومداد كلماتك ، وعلى آله وصحبه وذوى نسبه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

نسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يتوفنا مسلمين، وأن يلحقنا بالشهداء والصالحين، وأن يجعلنا من عباده المتقين الفائزين ، ويجعل ما كتبناه خالصا لوجهه الكريم، بمنه وكرمه، وأن ينفعنا به ووالدينا، وغفر الله لنا ولوالدينا ولسائر المسلمين أجمعين، ولمن قرأ هذا الكتاب أمين يا رب العالمين.

وتم الكلام وربنا المحمود ... وله المكارم والعلا والجود

وعلى النبى محمد صلواته ... ما ناح قمرى وأورق عود

أولاً : فهرس التفسير العام للآيات

ثانياً : فهرس القضايا التى عرضت لها السورة

رقم الإيـــداع :
٢٠٠٤/ ١٥٩٠٨
الترقيم الدولى :

977 - 294 - 307 - 7

مطابع آمـــــون

٤ ش الفيروز من ش إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦